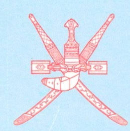
سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة
المنتدى الأدبي



قِراءَات في فكر البهلاني الرّواحي

حصاد الندوة التي أقامها المنتدى احتفاء بذكرى المرحوم أبي مسلم البهلاني الرواحي

١٤ - ١٦ رجب ١٤١٥ هـ
الموافق ١٧ - ١٩ ديسمبر ١٩٩٤م

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة
المنتدى الأدبي



قراءات في فكر البهلاني الرواحي

حصاد الندوة التي أقامها المنتدى احتفاء بذكرى المرحوم أبي مسلم البهلاني الرواحي

أعده للطبع
محمد علي الصليبي

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الاصدار

حمداً لله ونصلي ونسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه اجمعين وبعد.

في عالم يموج بتيارات الفكر، ويتمخض عن الجديد في كل آن، عالم اختزلت فيه المسافات، وتلاحمت فيه الثقافات باشكالها الفكرية والفنية والحياتية المختلفة.

تتقدم وزارة التراث القومي والثقافة ممثلة في المنتدى الأدبي بهذا الاصدار الذي يجول فكر أحد اعلام عُمان في الفقه والأصول والأدب والشعر راجين ان نتمثل جميعاً هذا الحصاد الفكري الذي جاء نتيجة جهود ثلة مختارة من كبار الباحثين والدارسين تمثلا ذاتيا في اطار محاولة عصرية لسبر أغوار نهضة فكرية ثقافية رادتها تلك الصفوة من علماء عُمان وأدبائها وشعرائها في ادراك ووعي منا بأننا نواجه تراثنا الحافز بحيث لا نعمل فيه مشرطنا النقدي من جانب واحد ولا على اساس انه ملك حضوري، لاننا شئنا أم ابينا فنحن جزء لا يتجزأ منه، وأنه يمثل افتراضا القاعدة الصلبة التي نستقي من ينابيعها اصالتنا وهويتنا التي بدونها يظل فكرنا سجين الأخذ، رهين العطاء؛ آخذين بعين الاعتبار تفاعلنا الايجابي مع ما تفرزه الحضارات الانسانية المعاصرة.

وانه في اطار اهتمام المنتدى الأدبي بالتواصل الأدبي والفكري وفي ضوء سعيه إلى صلة الرحم بين الخلف والسلف يسرنا أن نتقدم بهذا الاصدار حول فكر المرحوم أبي مسلم البهلاني الرواحي ايماناً منا بأن قراءة التراث تعد تأسيساً للمستقبل بما يسمح ببعث الجديد عبر احياء المكتسب، سائلين الله التوفيق والسداد.

والله من وراء القصد

أسرة المنتدى الأدبي

شعبان ١٤١٨هـ
ديسمبر ١٩٩٧م

﴿ تنـــويه ﴾

ينوه المنتدى الأدبي بأنــه وقع في العبارة الواردة في بحث الدكتور/ عبدالحفيظ محمد حسن ص٩٧ من كتاب «قراءات في فكر الخليلي» لبس حول إسناد القـول برؤية الله عز وجل في الآخرة إلى الشيخ/ سعيد بن خلفان الخليلي-يرحمه الله-

وبما أن قـول الشيخ الخليلي في نفي الـرؤيـة صريح فقـد جاء التوضيح الآتي من الدكتور نفسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة رئيس المنتدى الأدبي المحترم

تحية طيبة وبعد

لقد سعدت بالتكليف الذي أسنده لي المنتدى الأدبي بالمشاركة في ندوة العلامة المحقق الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي ببحث حول شاعريته وقد بذلت في هذا البحث الجهد الذي لا يخفى عليكم حيث اتبعت فيه المنهج التحليلي العلمي الحديث ، وقد دهشت حين اطلعت عن كثب وعن عمق على انتاج الشيخ الشعري الذي ينم عن عبقرية فذة وتمكن من أدواته اللغوية والشاعرية ، وقد لفت انتباهي كثيراً غيرته على الدعوة المحمدية ودفاعه عن حياض الإسلام وتحسره على أحوال المسلمين وأعجبتني طريقته في الرد على القائلين بالرؤية بأي حال من أحوالها وتفنيد حججهم ودحضها مستقصياً كل شاردة وواردة بأسلوب منطقي يعتمد على منهجية سليمة وعقلية واعية لذلك وجدتني أهتم من بين اهتماماتي بالبحث بتلك القصيدة التي حملت عنوان " في نفي الرؤية عن الله تعالى والرد على مدعيها " سواء في الدنيا أو في الآخرة ، وبكيفية وبلا كيفية حيث يرد عليهم رداً مفحماً مؤيداً بالحجة والدليل العقلي والنقلي ، ويعجب من أولئك الذين ينفون الرؤية عن الله تعالى في الدنيا ويثبتونها في الآخرة مسندين ذلك إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو بريء مما ينسبون إليه . أما فيما جاء في العبارة التي وردت في بحثي موضع اللبس فإنني اعتمدت في ذلك على شواهد لغوية زخرت بها كتب اللغة من جواز حذف المسند إليه والإشارة إليه بالضمير ، وأن الضمير يعود إلى الأقرب ، وعليه فإن الضمير "هو" الذي ورد في بحثي يعود على المدعي الذي ينفي الرؤية عن الله تعالى . في الدنيا ويثبتها في الآخرة ، وأن فاعل الفعل "يرد" يعود على الشيخ سعيد وهو صاحب الرد الوحيد في البحث ، ولا أدري كيف حصل لبس في فهم العبارة ، إذ يؤكد عنوان القصيدة على نفي الرؤية بالإطلاق وتأكيد ذلك بلا الجنس " أي

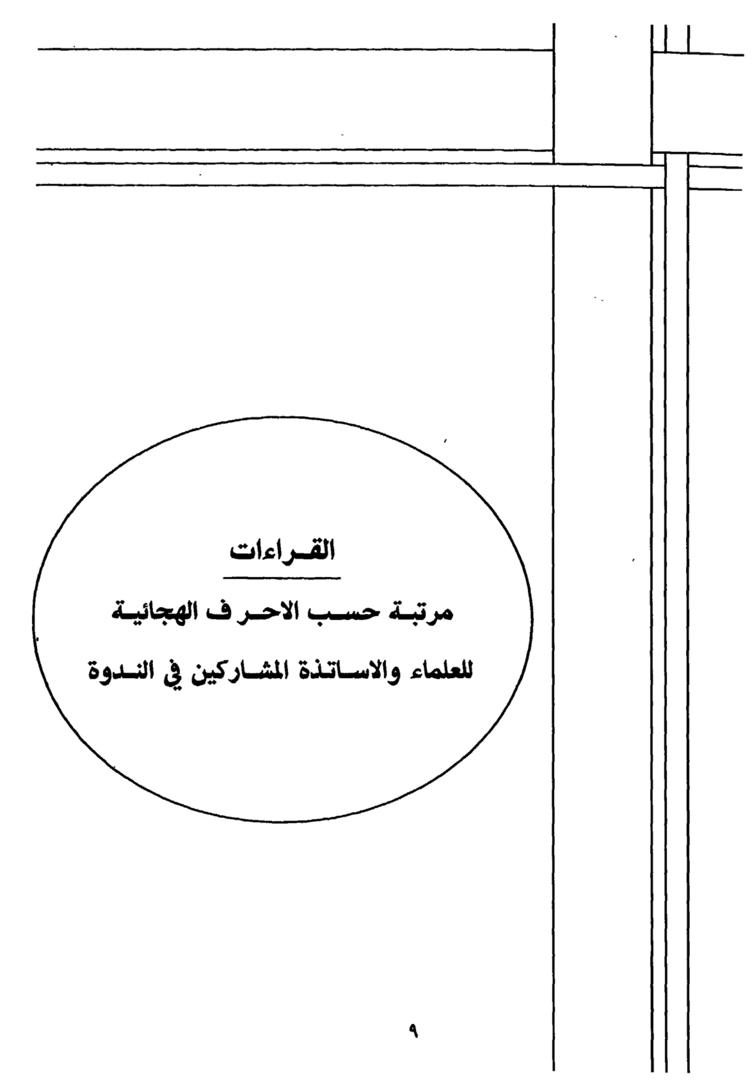
جنس الرؤية بكل أشكالها وحالاتها ونوعها تها، ثم أردفنا ذلك بأبيات من القصيدة تفند حجج المدعين وترد كيدهم إلى نحورهم، فالأمر من وجهة نظري جلي واضح ولا لبس في الموضوع وحاشا لله أن يساورنا شك في أن الشيخ سعيد وهو من العلماء المعروفين والمشهود لهم يقول عليه مثل هذا التأويل. فهو هو كما نعلمه دوما محاميا مدافعا عن حرم العقيدة مصححا للمحرفين، حاملا عليهم مشبها إياهم في بعض أبياته بأنهم أشبه بالحمير لأنهم يلغون عقولهم التي وهبها الله لهم ليستفيدوا بها ويتفكروا بملكوت من خلقهم جلت قدرته، وما أجمل هذا الرد. في قوله:

إذ كل منظور فذاك مكيف أولا فهاته دلالة عن معرفة

هذا وما اطلع على قصيدته تلك في نفي الرؤية عن الله تعالى والرد على مدعيها تتجلى له الحقائق بكل أوجهها. سائلين الله التوفيق.

د. عبد الحفيظ أحمد حسن

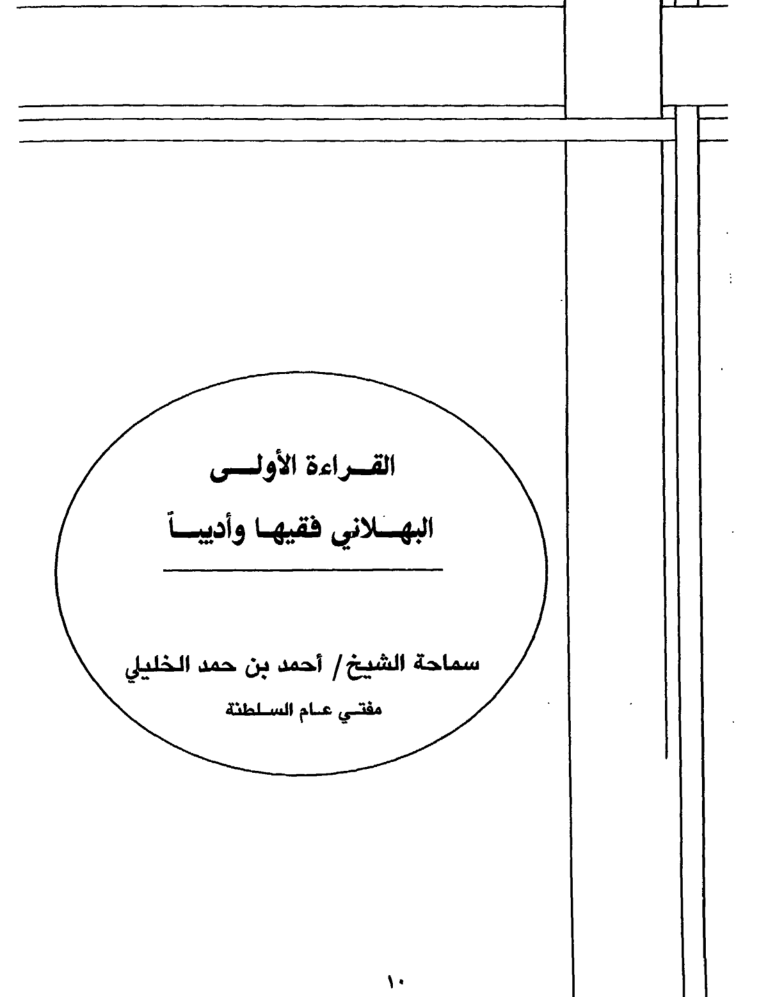
[illegible]



القـراءات

مرتبـة حســب الاحــر ف الهجائيـة

للعلماء والاســاتـذة المشــاركين في النــدوة



القــراءة الأولــى

البهــلاني فقيهـا وأديبـاً

سماحة الشيخ/ أحمد بن حمد الخليلي

مفتـي عـام السـلطنة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان الا على الظالمين، سبحانه له الحمد على ما أنعم، علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ـ أحمده وأثني عليه، واستغفره وأتوب اليه، وأومن به وأتوكل عليه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، أرسله الله الى خلقه منقذاً من الضلالة ومعلمًا من الجهالة وداعياً إلى الله على بصيرة، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الغمة، وصلى الله وسلم عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم باحسان إلى يوم الدين.

أصحاب الفضيلة والسعادة، أيها الاخوة الحضور، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انه من يمن الطالع أن يتجدد لقاؤنا في هذا الصرح الثقافي تحت مظلة العلم والأدب، من أجل احياء ذكريات أعلام هذا البلد العريقين في علمهم وفي أدبهم، وان مما يسعد النفس ويبهج الخاطر أن يكون المحتفى بذكراه في هذا اللقاء الميمون رجلاً تلاطم في حيزومه بحر العلم والأدب، وهو الأديب الذي لا يشق له غبار وهم الفقيه المحقق المعروف بعمق مناقشاته الفقهية وقوة تأصيلاته لمسائل الفقه وهو المتكلم البارع الذي يثبت حجة الحق بما يثلج الصدور، وبما يثري القلوب.

ان المحتفى به امام العلم والأدب العلامة الكبير أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم بن صالح بن محمد بن عبدالله بن محمد البهلاني الرواحي ـ رحمه الله تعالى ـ وشهرته تغني عن التعريف.

والحديث عن شخصية أبي مسلم حديث ذو شجون، فطرح الجانب الأدبي في مثل هذه الندوة من أجل استقصاء مهارة أبي مسلم الأدبية أمر يستدعي جهداً كبيراً، كما ان طرح مناقشة قوة مأخذه في الفقه، وعمق تأصيلاته للقضايا الفقهية، أيضاً أمر يحتاج الى باع طويل في الفقه وذلك أمر لايستطيعه مثلي وقد كنت حريصاً كل الحرص على الحضور هنا معكم في الليلتين الماضيتين من أجل الاستفادة من الباحثين المهرة الذين تناولوا شخصية أبي مسلم وعلمه وأدبه، ولكن حالت الظروف دون ذلك، والمقادير تحول دون الأماني كثيرا.

ولئن جئنا الى شخصية أبي مسلم الأدبية ـ نجد أنه لم يكن أديباً تقليدياً يهيم في كل واد

ويقول ما لا يعمل، وانما كان رجلاً في أمة وأمة في رجل، يحمل هموم أمته. ويتلمس بيده الخبيرة عللها وآلامها، ويستنتج بعقله الثاقب علاجها ودواءها من تلك العلل التي تعاني منها، فكانت معاناته بسبب ذلك معاناة كبيرة.

نعم، عاش أبو مسلم من أجل أمته وسخر قلمه لخدمتها، فلئن جلنا في أدبياته الروحانية التي قدم فيها أسماء الله الحسنى نجد أنه في مرحلة مبكرة كان يدعو الله ـ تبارك وتعالى ـ ويبتهل اليه بأن يهيىء لهذه الأمة من أمرها رشداً فقصيدته التي نظمها وهو في مطلع العقد الثاني من عمره و سماها المعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى، نلمس فيها هذا الابتهال والضراعة الى الله – تبارك وتعالى – كما في قوله :

ويا قاهر اقصتم دولة السوء وامحها	وشرد بها وأشدد عليها معجلاً
ويا وارث اصرف سورة البغي وانتقم	بعدلك ممن بالضلال تسربلا
ويا باعث ابعث راية الحق حولها	جنودك تبلو في رضاك وتبتلى
ويا قائمًا بالقسط قوم مسددا	قويا على اظهار دينك فيصلا
يصول سريعاً يا سريع بنقمة	على كل ضليل عن الحق أحفلا

وهكذا نجده في جميع أذكاره التي جمعها في ديوانه الذي سماه (النفس الرحماني من أذكار أبي مسلم البهلاني).

ولئن جئنا الى قصائده الأخرى التي تتعلق بجانب الأمة نجد أنه الطبيب الخبير، فقد عرف حق المعرفة داء الأمة ودواءها، كما نجد ذلك واضحاً في كل قصائده التي تناولت هذا الجانب لاسيما تلكم القصيدة العصماء المقصورة، والتي شخص فيها العلة وجسد الألم، ووصف فيها الدواء، نسمعه في مقصورته تلك يتألم لآلام هذه الأمة عندما يقول :

اذكي من النار بقلبي زفرة	يخرجها المظلوم من حر الأسى
محترق الأكباد من حسرته	لا غوث لا منصف لا يلوي الى
أنفاسه تطرق باب العرش لا	تطرق بابا غيره ولاذرى
وعبرة تسفحها أرملة	كالخلق السحق اضارها الضوى
شعثاء غبراء عليها ذلة	مهضومة الحق عديمة الحمى
وصفرة على يتيم شاحب	ادقعه الفقر وأشواه الضنا
مفترشا على العفا اديمه	وهل له عافية على العفا
يغدو ويمسي ضاحيا تحت السما	كأنه عود خلال أو خلا

وضربة من سيف به نهكت وجه تقي مثل تشهاق العف
وسطوة من ظالم شباته اقتل للاسلام من حد الظبا
ينتهك الحرمة لا تريغه ضريبة من كرم ولا تقى
يرى عيال الله صيد قوسه يترك ما شاء وما شاء رمى
جاس البلاد بالبلاء طاميا فبز حتى بلغ السيل الزبى
وغيرة المؤمن في ضميره يطفئها الخوف ويوريها الاسى
يهان في حريمه وعرضه ودينه وماله مثل اللقا

ثم بعد ذلك يوجه النداء الى رجال أمته :

أين رجال الله ما شأنكم الى متى في ديننا نرضى الدنا
الى متى نعجز عن حقوقنا الى متى يسومنا الضيم العدا
كنا اباة الضيم لا يقدح في صفاتنا الذل ونقدح الصفا؟
كنا حماة الأنف لا يطمع في ذروتنا الطامع في نيل الذرى
لا يطرق الوهن عماد مجدنا وكم مللنا عرش مجد فكبا
علام[1] صرنا سوقة امعة اتبع من ظل واقنى من عصا؟!
ما أفظع الشنار حين يزيله ضرب يزيل الهام من فوق الطلى!
الى متى نخزى ولا يؤلمنا كالميت لايؤلمه حز الشبا؟!
اذل من وتد حمار فيهم وقدرنا اقصر من ظفر القطا
الى متى نهطع في طاعتهم ونتقي وليتها تجدي التقى؟!

ترون كيف صور حال الأمة في هذه الأبيات، عندما أحدقت بها المحن وتراكمت عليها الفتن، وهي في ذلك مفترقة أحزاباً وشيعا، لا تحس بالآلام التي تقع عليها ولا تحس بالواجب الذي هي مسؤولة عنه، ثم يتبع ذلك خطابه لهذه الأمة لعله يجد فيها أنشودته.

أين ذوو الغيرة من لي بهم قد حزب الأمر قد انقد السلا؟!
اتسع الخرق على راقعه من يشعب الوهى ويرتق الثأى
أما شعرتم أنها داهية شعواء لا فصية منها بألوى
هبوا من النومات ان حية تنباع ما بين شرا سيف الحشا

ويصف الحالة التي آلت اليها الأمة، حيث ذلت لخصومها واستكانت لعدوها :

هل استباحوا حرمات دينكم هل منعوا الأرض الحياة والحيا؟!

(١) تكتب على نحو آخر (على م)

منــوا عليكــم بغــذاء طفلكــم وحســوة المــاء ونفحــة الصفــا
تحكمــوا في ملككــم ورزقكــم وكبســوا البئــر وقطعــوا الــرشــا
وأزعجــوكــم عــن ظــلال ريفكــم وليتكــم لــن تنــزعجــوا عــن الفــلا
وضــايقــوكــم في بــلاد ربكــم حتــى على مــدفــن ميــت في الثــرى
لا يــرقبــون فيكــم إلاًّ ولا ذمــة ديــن أو ذمــام مــن رعــى
قــد سُفِكَــتْ دمــاؤكــم وانتهكــت حــرمتكــم ولا حشــا ولا خــلا
نقعــد يشكــو بعضنــا لبعضنــا ومــا مفــاد مــن شكــا ومــن بكــى؟!

ثم يقول :

في بعــض هــذا غصــة[1] لعــاقــل لــو رجعــت أفكــارنــا الى النهــى
بسـومنـا الخسـف خسيس نـاقـص لا ديــن لا حكمــة لا فضــل ولا
أليــس ممــا يــذهــل اللــب لــه عســف الطــواغيــت بشرع المصطفــى
وحملنــا على اتبــاع غيهــم مصيبــة لحرهــا ذاب الحصــا
هــب ملكنــا ورزقنــا فيء لهــم فــديننــا الأقــدس فــيء وجــزى
فيــا صــاحبــاه هل مــن ســامــع لــو عــوفيــت قلــوبنــا مــن العمــى!

ويتبع ذلك تقريع هذه الأمة على رضاها بما وصلت اليه من المهانة اذ يقول :

أليــس عــاراً أن نعيــش أمــة مثــل اللقــا أو غــرضــا لمن رمــى؟!
يلفنــا الخزي الى أوكــاره ويحكــم النــذل علينــا مــا يــرى
أنشرب المــاء القــراح مــا بنــا من مضض وليس بـالحلـق شجـا؟!
ونهنــا بــالعيــش على أكــداره ونطعــم الأجفــان لــذات الكــرى

ثم يذكر بعد ذلـك اعتزاز هذه الأمة بأسلافها وافتخارها بماضيهـا مع عدم سلوك منهج أولئك الأسلاف، والقيام بما قاموا به من حق تجاه دينهم وتجاه أمتهم اذ يقول :

نقــر أحــلاس البيــوت خشعــا أبصــارنــا مغمضــة عما دهــى
نــدرس تــاريــخ الألى تقــدمــوا وحسبنــا الله تعــالى وكفــى
ان العظــام لا تــواتي شرفــا ولا أقـاصيـص الـوغـى تكفي الـوغـى
والسلــف الصــالــح سـل سيفــه وكــان مــا كــان لــه ثــم انقضــى
تلــك الــرفــات طينــة صــالحة لغــارس وحــارث ومــن بنــي
أتبحثــون بينهــا عــن عــزة أو في (لعــل) فرجــا أو في (عســى)؟!
تلكــم اذاً أمنــية مخلفــة وضيعــة العقــل وجهــل وعمــى

(١) عظة : نسخة قديمة للديوان ص٣٩ (المنظومات الاربع)

ثم ذكر ما بقي لهذه الأمة من أسلافنا :

أسلافنا وما لنا من مجدهم … الا حديث بعدهم لا يفترى!!

لم التحجي بعدهم في شرف … عند رفات القوم في الأرض حجى؟!

نرفع منا أنفسا[1] وننتخي … كانها من كسبنا تلك النخا!!

وهو يشير بذلك الى أن الأمة يجب أن تبني مثل ما بنى سلفها، وألا تعتز بما قدم سلفها من غير أن تطأ موطئه وتنتهج نهجه، وتقوم بتبعات ما عليها من واجب تجاه جميع أفرادها كما تقوم بما عليها من واجب تجاه ديننا الحنيف ثم يتبع ذلك قوله :

أواه أواه رزئنا بعدهم … وليتنا في خلف عمن مضى!!

ثم يصف مرة أخرى حالة هذه الأمة في لهوها عما هي مسؤولة عنه، وفي غفلتها عما يحيق بها، وفي عدم احساسها بما وقعت فيه، وما يسري في جثمانها من آلام.

فتحت عيني فرأيت غافلا … يحمله السيل وليته درى

ونائمًا والنار في جثمانه … كأنه جزل الغضا وما وعى

وراضيا بذله مفتخرا … بان يعيش خازياً ومزدرى

ومؤمنا مستضعفا يغمزه … ظالمه من الرجا الى الرجا

وعاقلا في رأيه متهما … وأرشد الآراء للحر الذوى[2]

وحاسدا لنعمة تخاله … اسعر ما كان اذا قلت خبا

وبائعا لوطن فيه انتشى … بلقمة يلذها وهي الودى

فهل لنا استقامة وعزة … وحالنا مشؤومة كما نرى؟!

بعد هذا الوصف لألم هذه الأمة وآلامها، نجده يقدم وصفة الدواء اليها اذ يقول :

عصائب الاسلام تلكم حالنا … وليس يخفى في الظلام ابن جلا

ما تنظرون في التماس طبكم … قد نكأ الجرح وادنف الضنا

ليس لها الا التفاف قوة … بقوة ومقتد بمقتدى

ليس لها الا نفوس طفئت[3] … اضغانها واشتعلت فيها التقى

يلمها الايمان قلبا واحدا … وجهته الله وحشوه الهدى[4]

اذا رمت فقوسها واحدة … وما رمت وانما الله رمى

---

(١) (انفسنا) ص٣٤٨ ديوان ابي مسلم شاعر زمانه وفريد اوانه.
(٢) المرجع نفسه ص٣٥١ (الدوا)
(٣) نفس المرجع ص٣٥٢
(٤) ديوان ابي مسلم شاعر زمانه وفريد اوانه ص١٧ ورد الشطر «وهيبة الله وسورة الهدى»

فأبو مسلم من خلال هذا الوصف لعلاج هـذه الأمة يبين لنا أنه لايمكن خلاصها مما هي فيه وعليه مـن الذل والمهانة الا باستعـلائها على أنانـيتها، بحيث تكون أمـة واحدة، اذا رمت فانما ترمـي غن قوس واحدة، ومـع ذلك فلحمة وحدتها ايمانها بـالله ـ سبحانه وتعـالى ـ ، وسدي هذه الـوحدة تقوى الله ـ تبـارك وتعالى ـ ، بحيث تجتمـع في ظل الإيمان والتقوى، وتلتقي على ما أمـر الله ـ سبحانه وتعـالى ـ في ديننـا من الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينئذ تكون أمة قوية، وتكون أمة منصورة على عدوها.

ولم يكن أبو مسلم رجلاً محلياً واقليمياً وانما كـان رجلاً عالمياً، فحيثما كانت مشكلة تهم هذه الأمة كـانت تلك المشكلة تعنـي أبا مسلم، وكان يجد لـزاماً عليه أن يشارك في عـلاجها فعندما حاول الاستعمار في مصر أن يذكي جذوة النعرة القبطية في غير المسلمين، وأن يصور لهم بأن الإسـلام دخيل فيهـم وأن مصر قبطية نصرانـية، وان المسلمين هم الـذين احتلـوا بيضتهم وهـم الذين استهـانوا بكرامتهـم، وضايقـوهم في بلادهـم، وانعقد اثر ذلـك مؤتمر اسلامي برئاسة رياض باشا في مصر لعلاج هذه المشكلة ومواجهة ذاك التحدي، فما كان من أبي مسلم وهو بعيد عن مكان انعقاد هذا المؤتمر الا أن شارك فيه بقلمه، فأرسل قصيدة الى اخوانه المسلمين بمصر، وقد قرأت بأن هذه القصيدة نشرت في بعض الصحف المصرية آنذاك، وتلقيت بالقبول من قبل المسلمين الذين يعنـيهم هذا الأمر، وجاء في هذه القصيدة :

هـــزت العـــالم أدوار البشــــر	ينقضي الــدور بـــأدوار أخـــر
كـل دور رقـص الــدهـــر لـــه	ضــايـق العـالم وارتــاد القمــر
أيها العــــالم سعهـــا جلـــدا	ان نصــف الليـل يتلــوه السحــر
مـن كفيـل الكشـف عــن مـوضـوعهـم	هــل لـــه مستـــودع أو مستقـــر ؟
ان تكـــن فلسفـــة الــدهــر على	حـــدهـــا الأول أدركنـــا الخطـــر !
يسقـــط الهز علينــــا كسفـــا	ثـــم لا يلبـــث اسقـــاط الحجـــر
ربما أشهـــد ظبيـــا كـــانســـا	دب فيـــه الــدور فـــاصطـــاد النمـــر

ثم ينبه لخوانه المصريين المسلمين لخطورة هذا الأمر وخطـورة ما غرسه العدو في جزء من أبناء الشعب المصري من بغض لبقية الشعب، اذ يقول :

يـــا قطين النــــيل مـــا حـــادثـــة	بـــات جفـــن الـديـــن منهـا في سهـــر !!
أقلقـــت مصر وغـــاظـــت غيرهـــا	خطــــة القبـــــط وذاك المؤتمر
يـــا لقـــومـــي والأســـى كـل الأســـى	ان جـــرى النـــيل على هـــذا القـــدر !!

ضـــايقـــوكــم في المراعـــي مطلقـــا واشرأبـــوا لاختصـــاص واشـــر
طلبـــوا أعظــم مـــن مقـــدارهـــم شـــأن مـــن أكسبـــه العـــدل البطـــر

ثم يتساءل بعد ذلك :

ليــت شعـــري مـــا الـــذي أبطـــرهـــم ضغطـــة الـــرومـــان أم عـدل عمـــر ؟!
أم وصـــايـــا المصطفـــى في حقهـــم ان ملكنـــاهـــم وسعنـــاهـــم ببر
أم لصفـــح الـــديـــن عنهـــم بعـــدمـــا جيـــش نـــابليـــون ولانـــا الـــدبـــر
تبعـــوا نعقتـــــه وانجفلـــــوا نحـــوه أشبـــــاه ضـــــان وبقـــــر
ثـــــم لما صننـــــع اللـــــه لنـــــا وجلى الخصـــم وابنـــا بـــــالظفـــر
خـــــالطـــــونـــــا بضمير محرق وبصـــــدر فيـــــه ضـــب محتجـــــر
فـــاصطنعنـــاهـــم وقلنـــا جـــارنـــا واذى الجار جميـــــــــل المصطبر
هـــــذه سيرتهم حيـــــث انجلـــــت قترة جـــــاءوا بـــــادهـــــى وأمـــــر

ثم يخاطب بعد ذلـك ضمير الأقباط، ويذكرهم بالجوار، كما يذكرهـم بالحقوق المشتركة، وأن العدو يتربص بالكل الدوائر وهـو لايفرق بين مسلم ونصرانـي، وانما همه أن يسعى الى التفريق بين أبناء الوطن الواحد.

ان هـــــذا النـــــيل أم حـــــافـــــل كلنـــــا يـــــرضـــــع منهـــــا ويـــــذر
فغـــــدت حـــــافلنـــــا تـــــرضعهـــــا حيـــــة أشبـــــه شيء بســـــقر
رضعتهـــــا لبنـــــا ثـــــم دمـــــا واغتبطنـــــا بمشـــــاش ووبـــــر
وهـــــي لا يقنعهـــــا مـــــا تـــــرتمي لا ولا يقنعهـــــا بلـــــع الحجـــــر
ذكـــرتنـــا بعصـــا مـــوســـى علـــى ان ذي تلقـــــف أرواح البشـــــر

ثم يذكر ما يستفيده الآخرون من خيرات مصر فيقول :

نـــــيلنا في الغـــــرب يجري ذهبـــــا وبقينـــــا نترامـــــي في الحفـــــر
ان يكـــن جيـــش احتـــلال غـــركـــم فهـــي أمنـــية مـــن لا يفتكـــر
مـــا يـــريـــد الجيـــش بـــاستقـــلالكـــم بعـــدمـــا أبقـــى عصـــاه واستقـــر ؟!
عقـــد النـــير ومـــا في همـــته آمـــن المصري .. يـــومـــا أم كفـــر
جـــاء والمعيـــة تلـــوي معيـــه فـــامترى ثـــم تعـــاطـــى فعقـــر
طمـــت الحرفـــة يـــا أقبـــاطهـــا انها مـــــأدبـــــة لا تنتقـــــر
أصبـــح المطـــران والمسلـــم في غمـــرهـــا اعجـــاز نخـــل متقعـــر
فـــاشعبوا الـــوحـــدة وحيـــا قبـــل أن تتـــــداعـــــى كهشيـــــم المحتضر

ثم بعد ذلك يثني على أولئك الذين استيقظوا لهذا الأمر وسعوا الى رأب الصدع، وتدارك ذلك الخطر فعقدوا هذا المؤتمر اذ يقول :

إن في مصر رجالا عرفت كيف تأتي الأمر أو كيف تذر
لا تبيارون لهم مأثرة ولو احتلتم على كسف القمر
صعدوا في كل هم فكرهم فاقتنوا حكم ابتداء وخبر
اثر الحكمة فيهم نير كادت الأفلاك منه تنبهر
مثلوا غيرتهم مؤتمرا ينصر الله ونعم المؤتمر
وطئوا الآمال بالدرك الذي[1] ادركوه من تعاليم النظر
لا يبيتون على الضيم ولا حيرة الذهن اذا الخطب انفجر
يهيمون بسواد مبهم هم الى التحقيق أهدى من بصر
يابني التوحيد في مصر لقد صرتمو في جبهة الدهر غرر
صبغة الله على نهضتكم ان من كان مع الله انتصر
بيئة مخلصة صادق لم يدنسها رياء واشر
فخذوا وجهتكم واصطقروا لا ينال النجح الا من صبر
ثابروا جهدكم لا تسأموا قد بدا لي فتح أمر منتظر
ربما ضاق على حيلتنا اعقب الفتح كلمح بالبصر
واذا الفتح تلافى أمة جد في نهضتها أهل الخطر
صفوة الأمة أنتم وعلى أمركم صفوة أرباب النظر
بطل الإسلام قمقام العلى رجل المجد الهمام المقتدر
ناصع الحجة معصوم النهى جلد الهمة ذو العزم الذمر
صاحب العز رياض من غدت فطرة التوحيد منه في وزر
هضبة الفضل عزيز المحتمى شأنه العدل بما شاء وسر
جرد الغيرة من أجفانها فحمى الحق وأخزى من غدر
عصم النحلة مرهوب السطا لين الجانب صعب المنكسر
يا حميّ الأنف يال ليث الثرى ذد عن الحوض فقد جد الحذر
لا تدع مصر لمن يعشو بها غير ما عزك من أمر القدر
قائم أنت على أرجائها بمسلاك الأمر والحق الأغر
قم بحول الله لا تحفل بها رقصت أم سكنت أم العبر

(١) (لما) ديوان ابي مسلم (مرجع سابق) صـ٣٥٥

ثم يعبر بعد ذلك عن شعوره بالتقصير من نفسه تجاه هذا الأمر لأنه لا يملك الا هذا الذي يقدمه من الأدب، اذ يقول :

بـــو يكـــون الشعـــر نصراً لم أزل	انظـــم الانجـــم لا أرضـــى الـــدرر
لـــو ملكنـــا السيـــف لم نـــرجـــع الى	قلـــم في النصر دن قـــام عثـــر
والغيـــور الحر يبـــدي نصره	لأخـــي ملتـــه كيـــف قـــدر
فخـــذوا شعـــري ثنـــاء بعـــدمـــا	مـــدحـــت نهضتكـــم آي الســـور
وليـــدم حيـــا ريـــاض وليعـــش	ثـــابـــت العـــزة هـــذا المؤتمـــر

وفي هذا ما يدل ـ كما قلت ـ على أن أبا سملم لم يكن رجلاً محلياً، أو رجلاً اقليمياً، وانما كان رجلاً عالمياً يعنى بقضايا أمته في كل مكان ويتحسس آلامها ويشاركها في آمالها.

وبجانب هـذا الإهتمام الكبير بقضايا الأمة الإسلامية في كـل مكان فانه كان يـولي قضايا بلده عُمان اهتماماً خاصاً وكان يعتز بجميع المنجـزات التي يقدمها الشعب العُمانـي الأصيل، ويبدي شوقه في أشعاره الى هذا الوطن العريق ومما قال في ذلك :

معـــاهـــد تـــذكـــاري سقتـــك الغمائم	ملثـــا متـــى يقلـــع تلتـــه ســـواجـــم
تعـــاهـــدك الأنـــواء(ســـح) بعـــاقـــه[1]	فســـوحـــك خضر والـــوهـــاد خضـــارم
اذا أجفلـــت وطفـــاء حنـــت حنـــينها	على قنـــن الأوعـــار وطـــف روازم
ولا بـــرحـــت تلـــك الـــريـــاض نـــواضرا	تضمخهـــا طيـــب الســـلام النســـائم
تصـــافحـــه بـــالـــزاكيـــات أكفهـــا	فيحســـب فيهـــا والـــريـــاض تـــراجـــم

الى أن قال :

ولكـــن شجانـــي معهـــد بـــان أهلـــه	فبـــان الهدى في أثـــرهـــم والمكـــارم
هـــو المعهـــد الميمـــون أرضـــاً وأمـــة	وان زمجرت للجـــور حينـــا زمـــازم
سيكثـــر وراداً على الحوض أهلـــه	اذا جـــاء يـــوم الحشر والكـــل هـــائم
لقـــد صـــدقـــوا المختـــار مـــن غير رؤيـــة	وتكـــذيـــب جـــل الشـــاهـــديـــن مقـــاوم

وكان أبـو مسلم لا يخفي اعتزازه بـالمنجزات التي تحققـت عل ارض هذا الوطـن الأصيل، فعندما قرأ قصيدة لأحد الشعراء لام فيها اخوانه العرب على نومهم الطويل مع استيقاظ العالم الغربي،في ضوء التقدم في كل المجالات الحضارية في العالم الغربي، انبرى أبو مسلم يجيب هذا اللائم، ويدفع العـار عن العرب، ثم يعتز بعد ذلك ببلـده عُمان، وبما تم في عُمان من المنجزات التي هـي لصالح الإسلام والمسلمين، وكـانت تلك الإجابـة على نفس روي قصيدته وبحـرها

---

(١) ديوان الشاعر ص٣١٦

حيث قال في مطلع قصيدته :

ألا لبيك يا صوت المعالي ... لقد أسمعت أحياء الرجال
أحابك سادة نجب كرام ... طوال العزم بالبيض الطوال
خفاف كالصواعق ان يشدوا ... جبال في حلومهم الثقال
معاقلهم جياد فنقوها ... مسارحهن حومات النزال
تعلمن التقارع من قديم ... فهن مع التقارع في شكال
فان تسال بهم فهمُ سراة ... تربوا بين قيصوم وضال
رضاع وليدهم بدم الأعادي ... ويحيى في الرضاع بلا فصال
اذا استصرختهم شبوا سعيرا ... وصخ النجم قعقعة النصال
مساعير الحرب لهم أجيج ... اذا احتدمت حميات الرجال
مصاعب تصعق الأبطال منهم ... رغائبهم بأطراف العوالي
اذا هجموا رأيت الفجر يجري ... ببارقة الصوارم في الليالي
تروعك في زحوفهم رجوم ... من السمر المثقف والنبال
جحاجح من بني قحطان صيد ... ومن عدنان آصاد القتال
رأوا ما حل بالأوطان خزيا ... يسارع بالفظايع والوبال

الى أن قال بعد ذلك :

وخصم الله جزار شنيع ... يضحي بالديانة لا يبالي
رأوا أموالهم نهبا هنيئا ... وكل محرم عين الحلال

ثم يتوجه اليه بالدعوة لزيارة عُمان فيقول :

تفضل بالزيارة في عُمان ... تجد أفعال أحرار الرجال
تجد ما شئت من مجد وفضل ... واحساب عزيزيات المثال
تجد ما قسمته من المنايا ... خيول الله في حزب الضلال
تجد من هيبة الإسلام شأنا ... عليه الكفر مبيض القذال
تجد همم الرجال مصممات ... بثار الدين ترخص كل غال

ثم يخاطب أهل الشرق فيقول :

قطين الشرق نمتم نوم غيد ... فنبهكم صناديد الكمال
فقوموا عندنا أولا فناموا ... هنيئاً بين ربات الحجال

سنـــأخـــذ حقكـــم ونـــذود عنكـــم ذيــــادا باليميــــن وبالشمــــال
ويـــدرك فهمكـــم أنـــا قليـــل نكـــاثـــر بـــالحميـــد مـــن الخـــلال
وتعترفـــون أن العـــرب قـــوم قـــديما عبـــدوا صهـــب السبـــال
وقـــد وافـــاكـــمُ زمـــن جـــديـــد ووافتكـــم بـــه السنـــن الخـــوالي
يـــرد الحق فيكـــم مشمخـــراً ويخزي الظلـــم خـــزي أبي رغـــال
بـــأسيـــاف الغبيراء المواضـــي ستخضر الأســـافـــل والأعالـــي
ويعلـــم عـــالم الدنـــيا بـــأنـــا بضـــوضـــاء الفخـــافـــخ لا نبـــالـــي

—وكما قلت ـ كان أبـو مسلم في جميع ابتهالاته الى الله ـ تبارك وتعالى ــ لا ينسى جانب الأمة ووحدتها ونصرتها على عدوهـا وقد وجد في قصائد العلامة سعيـد بن خلفان الخليلي ـ رحمه الله ـ مثلاً يحتذى في ذلـك، فلذلك عنـي بتخميس كثير من قصـائد الالهيات، ومن بين هذه القصائد تلـك القصيدة التي كان المحقق الخليلي ـــ رحمه الله ـ يدعو بها ربـه مدة اثنى عشر عاماً ـ كما قيل ـ وقد خمسها أبو مسلم، ومما جاء في تخميسها مما يتعلق نصرة الدين ـ وكلها من أجل نصرة الدين ومن أجل وحدة الأمة ـ قوله :

الهي عـــدو اللـــه يشفـــي غليلـــه
سبيلـــك يدنـــيها ويعلي سبيلـــه
يغـــالـــب أمـــر اللـــه حتـــى يحيلـــه
فيـــا غـــارة اللـــه اغضبـــي وخيولـــه اركبـــي ومـــواضيـــه انعمـــي بـــورود
ودائرة الســـوء استمـــري بـــدورة
عليـــه ومقـــت اللـــه خـــذه بســـورة
ويـــت بطشـــة اللـــه اسحقيـــه بثـــورة
ومنـــي على الأعـــداء منـــك بـــزورة تـــريحهـــمُ مـــن كفـــرهـــم بلحـــود
ومـــزقهـــمُ اللـــه كـــل ممـــزق
بـــأهلـــك غلبـــاً فيلقـــاً بعـــد فيلـــق
ونكـــل بهم وامحقهـــمُ بـــالتفـــرق
ويـــارب مـــزق كـــل ســـور وخنـــدق عليهـــم وحصـــن شـــامـــخ ووصيـــد
طغـــوا في بـــلاد اللـــه لما تطقهـــمُ
وتغييرك اللهـــم لم يعتنقهـــمُ
وانـــك بـــالمرصـــاد خـــذهـــم وبقهـــم

وقــد مكــروا فـــامكــر بهم واذقهــم عــواقــب مكــر في البـــلاد شـــديــد

لقد وطئـوا الدنــيا برجـس مـرجـس
وعـــاثـــوا بظلـــم في عبـــادك مضرس
شيــاطين ملعونـــين مـن كــل مبلـس

فطهــر بقـاع الأرض منهــم بـأنفــس مــن البغـــي تجريها بكــل صعيـــد

الهي قبيــل جــاحـد لــك قــد غــوى
يعــاديـك لايــألــو على عــربـك انطـوى
ابـــده ومـــن والاه وحيــا ومـــا حـــوى

وشرد بهم في كـــل أرض فـــلا ســـوى قتيــل ومـــأســـور يـــرى وطـــريـــد

بغيرتـــك اللهــم يـــا حـــامـي الحمـــى
بسطـــوتـــك اللهـــم يـــا رافــع السما
سميــع دعـــائي كـن عليهــم مـدمــدمـاً

وصـــب عليهـــم ســوط منتقـــم كمـــا لعـــاد وفـــرعـــون جـــرى وثمـــود

وعــــذبهم نكـــر العـــذاب ودنهــــمُ
وشــــدد عليهـــم وطــــأة واهنهــمُ
وعـــن كــل خـــزي ربنـــا لا تصنهـــم

ولا تبـــق ديـــاراً على الأرض منهـــم فما قـــوم نـــوح منهـــم ببعيـــــد

ومن غـرائب الإتفاق أن هناك قصيدة لـلإمام سعيد بـن خلفان ـ رحمه الله تعالى ـــ من قصائده الالهيات تناولها أبو مسلم ـ رحمه الله ـ بالتخميس قبيل موته ببضعة أيام، ولربما كانت فاتحة تلك القصيدة اشارة بأن أبا مسلم بتخميسها يقدم نفسه الى ربه، ومطلع قصيدة الإمام الخليلي ـ رحمه الله تعالى ـ :

تقـدم الى بـــاب الكـريـم مقـــدمـــا لـــه منـــك نفســاً قبــل أن تتقـــدمـــا

أما مطلع تخميس أبي مسلم فهو :

هـو اللـه فـاعرفـه ودع فيـه مـن ومـا دعـــاك ولم يترك طـــريقـــك مظلمًا
عـن الحق نحو الخلـق يـدفعك العمـى تقـدم الى بـــاب الكـريـم مقـــدمـــا

لـــك منـــه نفســا قبــل أن تتقـــدمـــا

وقد وجـدنا بخط العـلامة أبي مسلم أنـه أنهى تخميسها في اليـوم الثامن والعشريـن من محرم، وقد كانت وفاته ليلة غرة صفر من نفس ذلك العام، بما يعني ان تمام تخميسها كان قبل وفاته بيومين وبعض يوم، أو بيوم و بعض يوم.

ولئن جئنا الى الجانب العلمكـي ولا أقول الجانب الفقهي من حياة أبي مسلـم، نجد أن أبا مسلم هو العلامة الذي لايشق له غبـار، وانما قلت الجانب العلمي لأن أبا مسلم درس علوم المعقول والمنقول، فكان نابغة في العلـوم الكثيرة، ولم يكن مقتصراً على علم الفقه فحسب، فهو في علم التوحيد والمذاهب الكلامية عالم كبير، كما انه في الفقه فقيه مطلع محقق وله في المسائل الكلامية تحقيق يدل على طول باعه في كثير مـن المسائل، من بين هذه المسائل، مسألة شغلت الناس كثيراً وتراشقوا بسببها بالتهم وهي مسـألة واضحة لا تحتاج الى النقاش الطويل، ولا تحتاج الى ذاك الجدل العـريض، تلكم هي مسـألة الأسماء والمسميات، فإن أصحـاب المذاهب الكـلامية اختلفـوا اختلافـاً طويـلاً وعـريضاً في الأسماء والمسميـات، هل الأسماء هـي عين المسميات؟ أم الأسماء هي غير المسميات؟ وقـد أشبع أبو مسلم هذه المسألـة بحثاً وتمحيصاً في كتابه «العقيـدة الوهبية» وقد وضـع فيهـا المفصل على المفصل، وأوضـح بـالحجة والبرهان بما لا يحتمل أي جدل وأي خلاف.

خلاصة الأمـر أن الذي ذهب اليه العلامة أبـو مسلم هو نفسه الذي حـرره العلامة الكبير السيد محمد رشيـد رضا في تفسيره (المنار) وهو أن الأسماء التـي هي الألفاظ المكتوبـة من الحروف هي غير المسميات بطبيعة الحال، فلا يمكن أن يكـون الإسم هو المسمى، اذ لو كان الإسم هو المسمى لكان من تلفظ بكلمة (ماء) وهو عطشان، جرى المـاء على حلقه وروي من عطشه، وكذلك إن تلفـظ أحد بكلمة (نار) احترق لسانه بمجرد هـذا التلفظ، لأن النار محرقة ولكن أعيان المسميات هي غير الأسماء، وانما مدلولات الأسماء هي عين المسميات لأن الإسم يدل على المسمـى، فاذا كـان المدلول الذي يشخصـه الإسم هو نفـس المسمى فـلا فارق بين مدلول الإسم وبين المسمى.

وقد وجدت الإمام محمد عبده في تفسيره لقول الله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ يذكر عن بعض المفسرين قولاً، بأن تلك الأسماء كانت هي المـاهيات، ماهيات الأشياء.

فان آدم كان أحـوج الى معرفة المـاهيات من حاجتـه الى معرفة أسمائها لأنه يتعـامل مع هذه المـاهيات، فلذلك كـان بحاجة الى معرفة خصائصـها، وهذا القول عـار عن الدليل، فإن آدم ـ عليـه السلام ـ سئـل عن هذه الماهيـات، ما أسمـاؤها فـأجاب بهذه الأسمـاء عنـدما عجزت عـن ذلك الملائكـة، وقد أعـاد الإمام محمـد عبده هـذا الاختلاف الى فلسفـة يونانـية قديمـة، هذه محصلها أن الحقائق الذهنـية كانت تسمـى عند اليونان أسماء، وأعـاد الإمام محمد عبده الخلاف بأن الأسماء هي المسميات أو غير المسميـات الى هذه الفلسفة وقال بأن

الإختلاف في كون هذه الحقائق الذهنية هي نفس مدلولاتها أو هي أشياء أخر شهير، أما الاسم فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون هو نفس المسمى.

واذا جئنا الى المسائل الفقهية نجد أن العلامة أبا مسلم كان العالم المحقق الذي لا يتقيد برأي عالم من العلماء بل يناقش جميع العلماء على السواء، فقد كان أبو مسلم يجل العلماء ويحترمهم احتراما كبيراً، ولكن هذا الاحترام لم يمنعه من أن يناقشهم.

فعندما جاء -مثلا ــ الى مسألة تخليل اللحية في الوضوء رجح بأن تخليل اللحية واجب لابد منه مع أنه ذكر بنفسه عن ابن بركة وعن صاحب الايضاح وعن الامام القطب أنهم كانوا يرجحون عدم وجوب تخليل اللحية، لأن الانسان مطالب بأن يغسل ما واجه به، وتنما يواجه بوجهه لا بما كان داخل شعره، ولكن العلامة أبا مسلم قال : إن الوضوء ليس أقل من الغسل ـ فكما يجب استيعاب العضو داخله وخارجه في الغسل كذلك يجب في الوضوء، فاذا كان استيعاب البدن كله لازماً في الغسل، فلا أقل من أن يستوعب العضو الذي تجب توضئته في الوضوء، واستدل على ذلك بأن النبي ـ ﷺ ـ ، أمر النساء بأن يخللت ضفائرهن في الغسل من الحيض وأن يغمزن قرونهن في الغسل من الجنابة، من أجل أن يصل الماء الى أصول الشعر، وقد قال ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ : «إن تحت كل شعرة جنابة فبلوا الشعر وانقو البشر» فاذاً من الضروري في الوضوء عندما يكون الشعر يغطي جانباً من الوجه الذي أمر بتوضئته أن يخلل ذلك الشعر حتى يصل الماء الى أصوله.

هناك مسألة أخرى وقع فيها الخلاف بين المذاهب الإسلامية من قديم ، وهي مسألة المني وطهارته أو نجاسته، فالشافعية والحنابلة يقولون بطهارة المني إذا ما خرج من السبيلين، والمالكية والحنفية وعليه أصحابنا الاباضية يقولون بأن المني نجس لأنه يخرج من المخرج الذي تخرج منه النجاسات، فاذاً لابد من أن يكون حكمه حكم الخارج من هذا المخرج، والامام الشافعي أشبع هذه المسألة بحثاً في كتابه «الأم» وانتصر به لمذهبه.

والعلامة أبو مسلم في كتابه «نثار الجوهر» يجمع أشتات المسائل من المؤلفات القديمة والحديثة في مختلف المذاهب الاسلامية، ويناقش هذه المسائل مناقشة دقيقة، وقد نقل كلام الامام الشافعي بنصه وفصه في كتاب «نثار الجوهر» أي نقل النصوص التي أوردها الامام الشافعي في كتابه «الأم» بحذافيرها، ثم اتبع ذلك مناقشة علمية دقيقة، وخلاصة الأمر أن الامام الشافعي يقول : بأن حكم المني يختلف عن حكم ما خرج من السبيلين فللمني حكم خاص ويستدل لذلك بأدلة عقلية ونقلية.

فمن الأدلة النقلية التي استدل بها ما جاء عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ انها قالت : «كنت أفرك ثوب رسول الله ـ ﷺ ـ من الجنابة» وتعرض الامام الشافعي لرواية سليمان بن يسار لهذا الحديث، اذ روى عن عائشة «كنت أغسل ثوب رسول الله ـ ﷺ ـ من

الجنابة ويخرج الى الصلاة وان بقع الماء في ثوبه» وقال : لا نعلم أن سليمان ابن يسار روى حرفاً عن عائشة، وانما هو وهم من الراوي عنه، عمرو بن ميمون.

وهذا الكلام الذي ذكره الامام الشافعي في رواية سليمان بن يسار تبعه عليه البزار، كما ذكر ذلك الحافظ بن حجر في فتح الباري ولكن الحافظ بن حجر بعد ما ذكر نصوص الرواية، رواية سليمان بن يسار عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الصحيحين، قال : بأن هذا وهم، ولم يهم البزار وحده بل قال هذا القول من تقدموه ومن بينهم الامام الشافعي في كتابه «الأم».

واستدل أيضاً على ذلك بما أخرجه هو عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه ذكر بأن المني ان كان يابساً يحت وان كان رطباً فيماط عن الثوب.

واستدل أيضا برواية تشبه هذه الرواية عن سعد بن أبي وقاص.

أما من الناحية العقلية فانه استدل لذلك بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ خلق أصل الانسان من ماء وطين، والماء والطين طهوران جعلهما ـ تبارك وتعالى ـ طهورين، فلا يعقل أن يكون خلقه لسلالة هذا الإنسان فيما بعد من غير شيء طاهر، واحتج لذلك أيضا بكرامة الإنسان على الله ـ تبارك وتعالى ـ لأنه أكرم من أن يخلق هذا الإنسان الذي شرفه بالخلافة في هذه الأرض وبالسيادة في هذا الكون، وجعله مؤتمناً على دينه وجعله قائمًا بأمره ـ سبحانه وتعالى ـ من مادة نجسة، هذه هي خلاصة ما استدل به الامام الشافعي.

وقد أطال العلامة أبو مسلم في مناقشة هذا الكلام واستدل أو ما استدل بنجاسة المني في الحديث الذي أخرجه الامام الربيع في مسنده عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال «المني والوذي ودم الحيضة ودم الاستحاضة نجس» فهذا النص صريح في نجاسة المني.

كما استدل لذلك أيضاً برواية سليمان بن يسار التي في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ انها قالت : «كنت أغسل ثوب رسول الله ـ ﷺ ـ من الجنابة، ويخرج الى الصلاة وان بقع الماء في ثوبه».

وقال بأن رواية الفرك لا تنافي رواية الغسل لأنها كانت تستعين على ازالة هذه النجاسة، بالفرك أولاً عندما يكون هذا المني يابساً في الثوب فانها تحته أي تفرك الثوب حتى يزول أثر المني ثم تتبع ذلك الغسل بالماء.

وقال : إن ما قاله الامام الشافعي من أن سليمان بن يسار لم يرو جرفاً عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أمر غريب لأن ابن يسار كان من أكابر التابعين، وقد كان بالمدينة المنورة وقد صرح بالسماع عن عائشة فهو تارة يقول (سألت عائشة، وتارة يقول (سَمعتَ عائشة)، فهو اذاً روى رواية متصلة من غير سقط، على أن هذه الرواية كانت رواية مرسلة، فان

المرسل عندما يعتضد بـدليل آخر يعول عليه عند الامام الشافعـي، ولذلك عول على مسانـيد سعيد بن المسيب.

وتحدث عما رواه الامام الشافعي عن ابن عباس من أنه قال : بأن المنـي يماط، وقال انما هو بمثابة المخاط وبمثابة النخامـة، وبأن هذه الاماطة انما هي وسيلة الى التطهير كما يقول: الاستجمار وسيلة الى التطهير بالمـاء فيما بعد، وليسـت مشروعية الاستجمار قبـل المـاء الا لأجل هذه العلة والتشبيـه بالمخاط والنخامة لما ينتظم هذه الأشياء المشبـه بعضها ببعض من التلبد، فان المخاط والمنـي شبيهان بالتلبد وكذلك النخامة بالجملة.

وقد أشبع أبو مسلم هذه المسألة بحثاً واستدل لذلك أيضاً بالأثر الذي أخرجه الامام مالك بالموطأ عن عمرلا بن الخطاب ــ رضي الله عنه ـ انه ذهب الى الجرف، وقد صلى الصبح وإن قد احتلـم ولم يشعر وصلى ولم يغتسل، فلما رأى ذلك الاحتـلام هناك غسل ثوبـه ونام أي غسل ما رأى أثر المنـي عليه، ونضح ما لم ير عليه أثر المنـي.

كما استدل أيضاً لـرجحان رأيه بالأثر الذي أخـرجه مالك أيضا في الموطأ عـن يحيى بن عبدالرحمن بـن حافظ أنه صحب عمر بـن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الى العمـرة فاحتلم ولم يكن على ماء فركب حتى وصل الى المـاء، وبقي وقتاً يغسل ثوبه حتى أسفر وناداه عمرو بن العاص: لقد أصبحـت ومعنا ثياب، فقال له : عجباً منـك يا ابن العاص : ان كنت اجـد ثيابا، أكل الناس تجد ثيابا ؟ لـو فعلت هذا كانت سنة ولكن أغسل مـا رأيت وأنضح على مالم أره، الى غير ذلك من الأدلة.

ثم تحدث عن مبدأ خلـق الانسان من هذه النطفة فقال : ان الله ـ تبـارك وتعالى ـ وصف هذه النطفة التي خلق منها الانسان بأنها مـاء مهين، ووصفها بأنها نطفة أمشاج وذلك أبلغ في الدلالة على حقارتها، وذلك أبلغ في الدلالة على قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ .

وأيضا فان الانسان ينطوي على كثير من الأشياء التي هـي أنجاس فدمه نجس وفضلاته نجسة، كذلك أيضا ان كانت نطفة الرجـل طاهرة، فلم يقل أحد في نطفة المرأة بطهارتها، على أن مرقد الانان في الرحم عندما ينشأ، والرحم مشتمل على النجاسة ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ أراد بهذا أن يذكـر الانسان بحقارة ومهانة أصلـه لولا أن الله ـ تبارك وتعـالى ـ شرفه بما آتاه من فضل وبما نفخ فيه من روح.

وتعرض العلامة أبو مسلم لكثير من القضايا فأشبعها بحثاً في كتابه «نثار الجوهر» ومن بين هذه القضايا التـي ناقش فيها العلماء قضية التفرقة بين الضـاد والظاء (الظاء المستطيلة والضاء المشالة) فان الامـام الفخر في تفسيره قال : لا يجب أن يفرق بينعما القارىء، وان لم يفرق بينهما في صـلاة لما كان عليه في صلاتـه بأس، ولقد تشـدد أبو مسلم اجاه هـذا الأمر وقال بأن الضاد وان كـانت تجتمع مع الظاء في مجموعة من الصفـات منها الجهر والاطباق

والرهو والجرسية، ولكن بجانب ذلك أيضا تختلف الضاد عن الظاء في المخرج، فالضاد من الحروف الشجرية والظاء من الحروف اللثوية كما انها تختلف عنها بكون الظاء مستطيلة والضاد ليست من حروف الاستطالة.

ويجب على الانسان أن يقرأ القرآن كما أنزل من غير أن يبدل حرفا بحرف، ثم بجانب ذلك ذكر أيضا كلاماالامام السالمي من أن النبي ـ ﷺ ـ عندما كان يعلم أصحابه القرآن كان يعلمهم النطق بهذه الحروف، والشعوب التي دخلت الاسلام تلقت النطق بهذه الحروف كما هي، وذلك داخل في تعريف القرآن.

وقال : بأن هذا الرد غير مسلم به نظراً لأن العرب كانوا أقحاحاً يتحدثون بالعربية بسليقتهم وبفطرتهم، ولم يكونوا بحاجة الى أن يعرفوا الصفات الفارقة ما بين هذه الحروف.

ومعظم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا من العرب فاذا كانوا عندما يتلقون القرآن عن الرسول ـ ﷺ ـ كانوا يقرأونه بسليقتهم العربية، والشعوب التي كانت تتعلم على أيدي العرب، بعدما دخلوا في الاسلام كانوا يلقنونهم النطق بهذه الحروف ولئن كانوا يلقنونهم التفرقة ما بين بقية الحروف الأخرى التي هي متقاربة في المخرج ـ فكيف لا يلقنونهم التفرقة ما بين الضاد والظاء فاشبع هذه المسألة بحثاً.

أيضا مسألة ترجمة القرآن الكريم، وقراءة القرآن الكريم باللغة الفارسية أشبعها بحثا وناقش كلام الحنفية، وذكر أن القرآن الكريم لايمكن أن تفي به لغة، فلغته الخاصة ـ هي التي أنزله الله ـ تبارك وتعالى ـ بها، ولا يمكن أن يكون أي كلام آخر بأي لغة أخرى يسد مسد القرآن الكريم، فلو حاول الإنسان أن يستخلص المعاني من الفاتحة الشريفة، ويقرأ قراءة غير هذه الآيات التي أنزلها الله مع الاستيعاب لتلك المعاني لايمكن أن يقال بأنه قرأ، ولو قرأها بعربية فصيحة فكيف أن انتقل من العربية الى لغة أخرى، على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بين أنه حكم عربي، وانه ـ سبحانه ـ جعله قرآنا عربيا وأنزله قرآنا عربياً فانه لايعدل عن العربية الى أي لغة أخرى، وقد استفاض بالاحتجاج بهذه المسألة.

كذلك مسائل أخرى متعددة، لايمكننا الآن مع ضيق الوقت أن نستوعبها، فأبو مسلم كما كان في أدبه رجلاً عالميا هو أيضا في علمه وفقهه خاصة رجل عالمي فانه يجمع في فقهه ومناقشاته الفقهية ما بين المذاهب الاسلامية المختلفة ويعتمد على مراجع المذاهب المتعددة فهو ينقل عن كتاب الأم للامام الشافعي والموطأ للامام مالك، ويروي عن الأمهات الست وغيرها من كتب الحديث وعن شروحها، كما يروي عن كتب الرجال والنقد، ويروي عن كتب التفسير وغيرها، فكتابه موسوعة علمية، ولو أن الله ـ تبارك وتعالى ـ هيأ له أن يتم هذا الكتاب فأنسأ له في عمره لكان هذا الكتاب موسوعة فقهية في المذاهب الاسلامية المتعددة.

نسأل الله ـ سبحانه ـ أن يتغمده برحمته وأن يمن عليه بالفوز والسعادة في دار النعيم

كما أسأله ـ سبحـانه وتعالى ـ أن يهدينا سواء السبيل، وأن يبارك لنـا في حياتنا وأن يعلمنا ما لم نعلم، وأن يفهمنـا ما لم نفهم وأن يهدينا الى الطـريق الأقوم انه– تعـالى– على كل شيء قدير، وهو بالاجابة جديـر، انه نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين.

وفي الختام أشكر وزارة التراث القـومي والثقافة على هـذه الفرصة التي أتـاحتها لي وعلى رأسها سمـو السيد فيصل بـن علي بن فيصل آل سعيد وزيـر التراث القومي والثقـافة، كما أشكـر القـائمين على المنتدى على اتـاحـة هـذه الفرصـة وأشكـركـم جميعاً على اصغـائكـم وحضوركم.

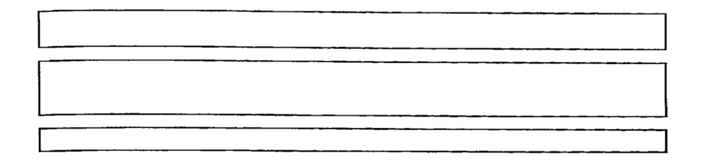
وأسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يجمعنا مـرات ومرات تحت لواء العلم والأدب انه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى صحبه أجمعين.

القــراءة الثانيــة

في بعض الجوانب الفنية لشــعر أبـي مسـلم البهـلاني الرواحـي

أ. د. أحمـد درويــــش

كلية الآداب – جامعة السلطان قابوس



الطاقة الشعرية المتميزة عند الشاعر العُماني الكبير أبي مسلم البهلاني، ناصر بن سالم ابن عديم الرواحي (١٢٦٣ ـ ١٣٣٩ هـ) ، طاقة تتبدى في كثير من المظاهر الفنية في نتاجه الشعري الغزير، والمتعدد الجوانب، وتجعل شهرته الواسعة بين طوائف متعددة الثقافات، وبين أجيال متتابعة، شهرة نابعة من القدرة على الاشباع الفني، وهي قدرة يمتلكها الشاعر المتمكن ويستطيع من خلالها أن يستثير جوانب الظمأ أولاً في نفوس سامعيه أو قارئيه، قبل أن يمطر على هذه النفوس بعض قطرات الري، التي تجد الأرض ممهدة لها فتهتز وتربو وتورق وتثمر ويخضر عودها بعد ذبول ويشتد بعد ضعف، وذلك بعض آثار العطاء البياني الشعري الجيد الذي يخلع على سامعيه ثياب الحكمة، ويؤثر فيهم تأثير السحر «إن في الشعر لحكمة، وإن في البيان لسحراً».

والشعراء يتفاوتون في وسائلهم الفنية التي يحدثون بها هذا التأثير ـ عامدين أو غير عامدين ـ بل ربما اختلف الشاعر مع نفسه عندما تختلف المواقف أو المقامات، ولكل مقام مقال، كما يقولون، أو عندما تختلف الأجيال والثقافات، أو معارضي التلقي سماعاً أو قراءة، وفي هذا الاطار قد تتعدد الوسائل الجيدة بتعدد الشعراء الجيدين على كثرتهم في العربية، وقد لايمكن الخروج منها بقاعدة عامة في كل الأحوال، ومن هنا عد الايجاز في بعض المواطت هدفاً يسعى اليه، على حين عد الاطناب في مواقف أخرى مطلبا لابد منه لكي تستقيم للعبادة بلاغتها، وورد التعبير الخبري مستملحاً في موضعه، وجاء الأسلوب الانشائي ضروة لابد منها في موضع آخر، وكذلك اختلفت تأثيرات الأوجه المتقابلة للتراكيب العربية كالتعريف والتنكير والذكر والحذف، والتلميح والتصريح، وغيرها من الأمور التي فصلتها كتب البلاغة العربية وهي تتحدث عن جمال التراكيب والمفردات ومما أفاد منه النقد الأدبي الحديث وهو يعالج قراءة النصوص الأدبية من جوانبها المختلفة.

والنص الشعري الجيد تمده كثير من الروافد المعرفية والشعورية عند قائله، ومن القدرة على السيطرة على هذه الروافد وتنسيقها وابراز كل منها في المعرض اللائق به، من خلال

جهد، قد يتـم لدى الشاعر بطريقة غير واضحــة المعالم والقواعد لديه هــو، ولكنها ينبغي أن تكون واضحة لدينا نحن، وتلك احـدى مهام النقد الأدبي، على أن وسـائل هذه الطريقة اذا لم تكن واضحــة لدى الشــاعر مــن خلال التسميــة والشرح، فهي واضحــة في نفسه مــن خلال الشعور، بحيث لا يطمئن الى شيء يخالفهــا، ويجاهد خلال كتابة القصيدة، حتــى يستقيم له الأمر على النحو الذي تتوخاه نفسه، كما يصنع الشاعر أحيانا في تعامله مع موسيقى الشعر، فقد لايكون حــافظاً لقواعد علم العــروض، بل وقد لايكون درسـها في بعـض الأحايين، ولكن حساسيته الفنـية لاتسمح لبيت غير مستقيم أن يمـر، ولا لايقاع يخالف البحر الذي ارتضاه أن يتسرب الى قصيدته.

وأبو مسلـم البهلانــي شــاعر يمتلـك وسائلـه الفنـية ويسيطـر عليها، رغـم تعدد هـذه الوســائل، وتنوع المعارض التــي يوظفها فيهــا، وقد أشرنا في دراســة سابقة عـن أبي مسلم البهلانــي[1]، إلى أن الشاعرية كانت عنده موهبة أولى غـالبة، رغم تعدد مواهبه الأخرى، فقد كان «شاعراً ـ فقيهاً» أو «شاعراً ـ مؤرخاً» أو «شاعراً ـ نسابة» أو «شاعراً ـ متحمساً لفكرة وطنـية ، ولم يكن فقيهاً يلجأ الى الشعر ليصب فيه آراءه، أو عالماً بالتاريخ أو الأنساب، يقدم للناس فكرته فى شكل منظوم، أو متحمساً لأفكار قومية، يستعين بموسيقى الشعر على جمع القلوب حـولها، لكنه كان قبل كـل شيء شاعراً سلـط بصيرته الشعرية على حقـول مختلفة، فأكسبتها كثيراً من لون الربيع الشعرى ومناخه».

وقد اختبرنـا هذا المفهوم من قبـل في قراءة بعض قصــائد ابن مسلم مثل قصيـدة «الفتح والرضوان»، و «القصيدة النهروانـية»[2]

ونود من خلال هذا المفهوم أيضاً، أن نلقي نظرة هنا على بعض «مراثيه» وخاصة ما كتبه في عالمي عصره الجليلين، قطـب الأئمة الشيخ العلامـة محمد بن يوسـف اطفيش الجزائري، ونـور الديـن العلامـة السالمي، وقـد كتب في كـل منهما مرثيتين متـواليتين، وجاءت المراثي الأربع في عام واحد هو ١٣٣٢ هـ

وأول ما يلاحظ على هذه المراثي، هو طول النفس الشعري، فقد جاءت أعداد أبيات المراثي على النحو التالي :

المرثية الأولى في قطب الأئمة : مائة وأربعة وستون بيتاً.

---

(١) انظر كتابنا : مدخل الى دراسة الأدب في عُمان ـ مسقط ـ دار الأسرة سنة ١٩٩٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ وما بعدها.

المرتبة الثانية في قطب الأئمة : مائة وستة وخمسون بيتاً.

المرثية الثالثة في نور الدين : مائة وثمانية وستون بيتاً.

المرثية الرابعة في نور الدين : مائة وتسعة عشر بيتاً.

وطول النفس ليس غريباً على شعر أبي مسلم البهلاني، فقد بلغت قصيدته التائية التي كتبها حول الصفات الالهية، نحو ألف وستمائة بيت، وجاءت قصيدته اللامية بعنوان «القاموس الأسنى في أسماء الله الحسنى» في نحو مائتين وخمسين بيتاً، وألحقت بها نفحتان في شكل قصيدة يائية في نحو تسعين بيتاً، وكثيرة هي الشواهد في ديوان أبي مسلم على طول نفسه الشعري، **وطول النفس الشعري، عندما يجيء في موضعه، يعد واحدة من المزايا التي أضافها النقاد للشاعر** الجيد، والناقد القديم حازم القرطاجني صاحب كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدب كان يعد من مزايا الشعر الجيد «الاستقصاء والاقتران» ويعني بالاستقصاء قدرة الشاعر على تتبع جزئيات الغرض الشعري الذي يعالجه، ويعني بالاقتران القدرة على ضم كل جزئية إلى ما يلائمها، وهما شرطان، كان القرطاجني يرى أن شعر الارتجال، يحرم في اجتماعهما معاً.

على أن طول المرثية عند البهلاني يعد لافتاً للنظر بالقياس الى متوسط طول المراثي عند شعراء آخرين قدماء أو معاصرين، واذا قارنا طول المرثية عنده بنظيرتها عند شاعر كبير كأبي تمام، فسوف نجد أن الأمر مختلفاً الى حد بعيد، فالمراثي التي ترد في ديوان أبي تمام[١] هي ثلاثون مرثية، يجيء عدد أبياتها على النحو التالي : ٦٤ / ٨ / ١٠ / ٢٢ / ١٧ / ١١ / ٧ / ٣٣ / ٢١ / ٤ / ٤٩ / ٢٥ / ٦ / ٤ / ٤ / ١٥ / ٣١ / ١٠ / ٣٠ / ٣٠ / ٢٥ / ٦ / ٣٦ / ٣٥ / ٦ / ٣ / ١٢ / ٨ / ١٤ / ٧.

وهذا الاحصاء يمكن أن أن يقودنا الى أن متوسط طول قصيدة الرثاء عند أبي تمام هو نحو ستة عشر بيتاً، والفرق في هذا المتوسط ومتوسط القصيدة التي بين أيدينا لا يحتاج الى تعليق، غير أنه لا ينبغي أن يفهم من المقارنة أن قصيدة ما يمكن أن تفضل نظيرتها من خلال الطول، فنحن هنا أمام مقياس كمي يعطي مؤشراً على حجم القصيدة ليس أكثر.

يمكن أن يلاحظ على مراثي البهلاني أيضاً، فكرة التكرار والعودة الى المرثى الواحد في أكثر من قصيدة، على النحو الذي نراه معنا هنا من تكرار الرثاء لكل من العالمين الجليلين،

---

(١) أنظر ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي، الجزء الرابع، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف ـ القاهرة.

واذا لم يكن التكرار في المراثي خاضعاً لفكرة المناسبات وأحكامها، فإن دلالته الفنية تكمن في أن الدفقة الشعرية الأولى التي عكستها قصيدة الرثاء الأولى، لم ترو ظمأ الشاعر نفسه ريا كاملا، وإنما بقي سؤر منها، ماليث أن تخمر من جديد في نفس الشاعر وامتزج بها، فاتسعت رقعته في نفسه وتحول الى قصيدة جديدة أخرى، وتلك حالة يعرفها الشعراء المجيدون جيداً، فالآفاق التى تتفتح أمامهم لحظة الميلاد الشعري، لايتم استنفادها جميعاً في القصيدة الواحدة، وغالباً ما يختتم الشاعر قصيدته على نبة العودة إليها، وان كانت لحظات اليقظة التالية على الميلاد ما تبتعد شيئاً فشيئاً، ببقايا اللحظة الشعرية، وتجفف سؤرها الحائر، غير أن بعض الشعراء يستطيعون المحافظة على ذلك السؤة حتى تتشكل قصيدة جديدة، وذلك ما يؤدي الى وجود ظاهرة التكرار في معالجة الموقف الواحد.

على أنه اذا كانت هذه الظاهرة مسوغة في القصائد القصيرة أو المتوسطة، والتي يمكن أن يقال حولها، إن المعاني لم تستقص في جولتها الأولى، فان القصائد الطوال، على النحو الذي نراه عند أبي مسلم قد تطرح تساؤلاً آخر وهو : ما الذي أضافه الشاعر من الناحية الفنية عندما عاد يطرح موضوعه من جديد؟ وهل يتصل الأمر بتقديم خطة فنية جديدة ؛ أم باضافة لمسات هنا أو هناك؟ أم بالتكرار لذاته؟

إن الاشارة إلى «الخطة» قد يقودنا الى الهيكل العام الذي يحكم قصائد المراثي عند أبي مسلم، واذا كانت القصائد أو المقطوعات الصغيرة يمكن لها أن تستبدل بالهيكل وحدة المشاعر الغنائية المثارة، فان القصائد الطويلة لا يعصمها من الترهل، الا وجود خيط هيكلي رقيق يتحرك بها من مرحلة الى أخرى، وهو خيط يشكل عنصراً في بناء القصيدة ربما كان الشاعر أكثر وعيا به من بقية العناصر الأخرى، لأنه يتم جزئياً على مستوى التخطيط العقلي للقصيدة، وليس على مستوى الانسياب الشعوري معها، فهل هناك هيكل للمرثية عند أبي مسلم؟

ان الذي يتأمل في القصائد الأربع المطروحة أمامنا، يجد ملامح مشتركة تجمع بينها من حيث البناء الهيكلي، وتنظيم المادة الخام، وتؤكد على التنوع في روافد ثقافة البهلاني الشاعر الفقيه، فهي جميعاً تأخذ من الحديث عن الدنيا وفنائها وعدم الاغترار بها مدخلاً رئيسياً، يكاد يشكل هدفا في ذاته من ناحية، ويمهد النفوس للدخول في جو الرثاء من ناحية، وهذا الهدف تفتتح به ثلاث من القصائد الأربع، حيث تطالعنا الأولى بمفتتح يقول :

عش ما تشاء وراقب فجعة الأمل　　　سينقضي العمر في بطء وفي عجل
تلهو بتصويرك الآمال مغتبطاً　　　وبين جنبيك ما يلهي عن الأمل

وتطالعنا الثانية بقولها :

تكب على دناك وهي تبيد ... وتفتقد النائي وأنت فقيد

حريصا عليها جامعا لحطامها ... وغاية ما ناقست فيه نفود

أما المرثية الأولى للعلامة نور الدين ، فمطلعها :

ريب المنون مقارض الأعمار ... وحياتنا تعدو الى المضمار

والنفس تلهو فوق تيار الردى ... ياليتها حذرت من التيار

وإذا كانت المرثية الثانية للسالمي، وهي الرابعة في مجموعتنا قد بدأ مطلعها على نحو مخالف قليلاً في قوله :

نكسي الأعلام يا خير الملل ... رزىء الإسلام بالخطب الجلل

فانها ما لبثت بعد المفتتح أن خصصت مقطعاً رئيسياً للحديث عن الدنيا وغرورها :

هذه الدنيا وهذا أمرها ... تندف الأعمار ندفاً لم تزل

كشفت عن قبحها في حسنها ... وأرتنا السم في هذا العسل

إن التركيز على الجانب الوعظي في بداية المراثي، قد يشف عن جانب من شخصية الشاعر ـ الفقيه، الذي يرى أن مسئولية الكلمة عنده تتجاوز مجرد رصد مشاعر اللحظة الطارئة، على جسامتها، إلى التنبيه إلى أن هذه هي اللحظة الأصل، وماعداها من الاستكانة إلى دوام الحياة عرض طارىء، ولقد يمتد هذا الجانب في مراثي أبي مسلم امتداداً كبيراً حتى إننا لنجد بداية الحديث عن المرثى لا تجيء الا بعد مرور نحو خمسين بيتاً من بيوت المرثية، ففي المرثية الأولى لقطب الأئمة، يبدأ الحديث عنه بعد ثلاثة وخمسين بيتاً، وفي المرثية الثانية له، يبدأ بعد خمسة وثلاثين بيتاً، وفي المرتبة الأولى انور الدين يبدأ الحديث عنه بعد ستلا وستين بيتاً وفي الثانية بعد سبعة وثلاثين بيتاً، ويلاحظ حتى على هذه الأرقام، التدرج النسب الدقيق، وامتصاص المرثية الأولى عادة للجانب الأكبر من هذا الغرض الشعري، مما يخفف العبء عن المرثية الثانية فيجيء الأمر على النحو التالي :

	قطب الأئمة	نور الدين
المرتبة الأولى	٥٣	٦٦
المرتبة الثانية	٣٥	٣٧

وإذا كانت شخصية الفقيه تؤثر على هذا الجانب من القصيدة، فان شخصية الشاعر ما تلبث أن تتوازن معها في بقية أجزاء القصيدة من خلال حسن السيطرة على توجيه المادة الخام للمرثية توجيهاً شعريا، وهي سمة تشترك فيها كل القصائد، مما ساعد على اكمال الصورة حول ملامح هيكلها العام، ونعني بالمادة الخام، ذلك التوازن بين عناصر السرد وعناصر الانشاء داخل المرتبة، فالمرتبة في جانب منها تسرد تاريخاً للمآثر الخاصة للمراحل، وهي في جانب آخر تلون هذه المآثر، وجوداً وفقدانا بلون عاطفي، وللشاعر وسائل فنية في هذا التلوين سوف نعود اليها، بعد استكمال ملامح الهيكل، أو الخطة العامة للقصيدة التي تشتمل إلى العناصر جانب التي أشرنا اليها عناصر أخرى أهمها :

(١) التجريد الحواري.

(٢) الدعاء.

(٣) التاريخ بالشعر.

ـ ويأخذ التجريد الحواري أشكالاً متعددة، فقد يجيء في صورة حوار بين الغائب الجمع والمفرد المتكلم ، مثل :

قالوا دسائسها في طي زخرفها ... فقلت قد صرحت بالسم في العسل

لم تخف عيب ولم تأخذ مخالسة ... ولا الهناء بها الا على العلل

وقد يتحول المتكلم الى صوت جماعي :

حتى متى نحن والأجيال تحفزنا ... والجد والهزل منا تابع الأمل ؟!

وقد يتحول المخاطب الى صورة المثنى على الطريقة الشائعة في الشعر القديم في مثل قوله:

خليلي دلاني على جزء خطوة ... خطونا ومن بعد المضي تعود

خذا بيدي نحو المنازل اذ خوت ... عساها بخير الظاعنين تجود

أما الدعاء فيتمثل في تلك النسمة الرقيقة التي تهب على أعجاز القصائد في مثل قوله في رثاء القطب :

سقى الاله ربوع الزاب ماطرة ... من رحمة الله بالأبكار والأُصُل

وباشرتك هبات الله دائبة ... بعارض من عظيم الفضل منهطل

وروح الله والرضوان روحك في ... منازل القرب والاسعاد والنزل

أو قوله في رثاء السالمي :

قدست من غوث وقدس مشهداً غبطته فيك عوالم الأنوار
يا وافد الرحمن أي كرامة لقيت في عدن وأي جوار ؟!
حلقت للطاعات خطفة طائر فحللت مسرح جعفر الطيار

أما التاريخ بالشعر، فهو سمة من سمات صنعة العصور الوسطى في الشعر العربي، كانت تعمد الى اثبات جمل تعبر حروف كلماتها عن سنة الحدث اذا ترجمت الى أرقام، كقول البهلانــي في رثاء السالمي :

تاريخها ما طال ما لحب الردى الصبر أحرى يا أولي الأبصار

وهي جملة عندما تترجم بحساب الأرقام تعادل سنة «ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين» وهي تاريخ وفاة السالمي.

ومثلها الجملة التي وردت في نهاية مرثية القطب :

الا في ربيع الآخر الحزن فاحسبوا فهذا لتاريخ الوفاة مفيد

وهي جملة تعطي بحساب الأرقام، الذي رحل فيه العالمان معاً.

* * *

إن الوسائل الفنية التي أشرنا اليها من قبل، والتي يستطيع الشاعر من خلالها أن يحدث هذا التوازن في صهر المادة الخام، وسائل كثيرة، تتراوح بين طريقة تشكيل الجملة الشعرية، وعلاقاتها بجاراتها، والتدرج والانتقال من مشهد الى آخر، والتلوين الصوتي والموسيقي، وبناء الصورة، واللجوء إلى فكرة التكرار ودلالاتها، وغير ذلك من الوسائل الفنية المؤثرة في ثنايا القصائد، والتي يمكن للدارس أن يطيل الوقوف أمامها. وسنكتفي (هنا بايجاز) اعطاء لمحات سريعة عن بعضها.

ان تزاوج السرد والانشاء مهمة دقيقة تقتضي من الشاعر أن يختلس سامعه أو قارئه من عالم النثر الاخباري إلى عالم الشعر الانفعالي دون أن يقطع الخيط الرقيق بين العالمين، وقد يكون من وسائل ذلك، خلخلة الاعتقاد بحرفية مضمون الكلمات والتراكيب، فيستخدم الأمر لمن لا يستجيب والنداء لمن لا يعي والحوار مع من هو غائب، وتستخدم صيغ الحوار المستحيلة، التي يعلم الشاعر أيضا أنها مستحيلة لكنه يود أن يستثير من ورائها مناخاً شعرياً لا نثريا، هكذا يصنع البهلاني، عندما يخاطب السالمي في موته :

ارجعي وما ظني بأنك مشتر   بجوار ربك جيرة الأشرار
أدعوك للأمر الذي تدعى له   شيم الرجال وهمة الأحرار
ادعوك ان كنت السميع لدعوتي   لخطابة التبشير والانذار
هيهات يا أسفاه، لا رجعى وقد   جثمت عليك صحائف الأحجار !!

فالحوارية هنا تنتقل في سلاسة بين عالم الأماني وعالم المستحيلات لكي تعكس من خلال هذا الانتقال، حوارية البقاء والفناء، ونسمح بتبادل الصفات، لاناس رحلوا، ولكنهم باقون، وهذا ما يدفع الشاعر الى ألا يكتفي بخلع صفات الأحياء على أولئك الراحلين، لكنه قد يختر أكثرها حيوية، مثل صفة السباحة وصفة الطيران يخلعها عليهم فيعطي الايحاء بأن رحيلهم كان تخلصاً من القيود، ويقول في رثائه للقطب :

ما زلت تسبح في القرآن ملتقطاً   در المعارف لم تضجر ولم تحل
حتى ملأت مراد العقل معرفة   ممدودة الفيض حتى لحظة الأجل
يا طائراً طار ما أضفى قوادمه   نجوت من قفص في حكم محتبل
وقضت لله من دنياك في عطل   فلتسرح الآن بين الحلي والحلل

إن التكرار يمثل دون شك واحدة من أبرز الخصائص التي يتكيء عليها أبو مسلم لمحاولة ابراز المحاور العاطفية الرئيسية في عمل مطول مثل مرثياته، وهو يستخدمه في إحكام في كثير من أغراض بناء القصيدة فقد ينتقل به ومعه من مرحلة الانفعال العاطفي إلى مرحلة سرد المآثر، يقول في مرثيته الأولى للقطب :

جردت نفسك للاسلام نخدمه   في جد محتنسب للهول محتمل
كم حجة بسطت بالبطل أيديها   صدعت بالحق فيها فهن في شلل
كم قاطع في سبيل الله يمنعها   رميته بشهاب منك مختزل
كم مشكل أعجز الأفكار جئت به   صديعة الفجر نوراً واضح السبل

وقد يأتي التكرار لكي يبني عمق المأساة، ولكي يستنفر شرائح بعينها يريدها أن ترجع صدى أحاسيسه، كما جاء في المرثية الثانية لنور الدين السالمي :

يا رجال الدين هل جاءكم   أن بدر الدين في الأرض أفل ؟!
يا رجال الدين لا تهنا لكم   فرصة إن مصاب الدهر حل
يا رجال الدين لم ينزل بنا   فادح أعظم مما قد نزل
يا رجال الدين ما هذا الأسى   والأسى بالعقل، والعقل ذهل ؟!

وكثيرة هي النماذج التـي يعتمد فيهـا البهلانـي على التكـرار في شعره عـامة وفي مـراثيه خاصة، نشداناً لأهداف فنـية دقيقة في بناء قصيدته.

يلجأ البهلانـي أحيـاناً إلى إحداث ألوان من التوازي في الايقـاع أو في الصياغة أو في التراكيب، لكي يساعد التجاوب والتقابل بينها، على إحكام الربط والتماسك، الذي أحدثه البحر الشعري من قبل، وشد من أزره التخطيط الهيكلي لجسد القصيدة العام، ويأخذ هذا التوازي أشكالاً متعـددة، تقترب في مجملها مـن فكرة «الترصيـع» التي اهتمـت بها البلاغـة العربيـة وشاعـت لدى شعراء من أمثـال صريع الغوانـي، مسلـم بن الوليد، وأبي تمام وغيرهـم من شعراء مدرسة البديع، يقول البهلانـي في رثاء السالمي :

أسرعـــت في الأغـــواث والأقطـــاب	**نـــزح القطين وجـــف روح الـــدار**
مهـــلاً فما أبقيـــت، ثَـــمّ بقيـــة	**والأعـــلام والأبـــدال والأخيـــار**
أفقدتنـــي شهـــب الفضـــائل كلهـــم	**ويـــلاه مـــن شهبـــي ومـــن أقماري**
ويـــلاه أيـــن سماؤهـــا ونجـــومهـــا	**وشمـــوسهـا، ذهبـــوا كـــأمسي الجاري**
أنضـــاهـــم التسبيـــح والترتيـــل	**والتهجيـــد بين جـــوانـــج الأسحـــار**
خبـــت إذا جـــن الظـــلام رأيتهـــم	**طـــاروا إلى الملكـــوت بـــالأسرار**
غـــر إذا سجـــد الظـــلام على الفضـــا	**سجـــدوا على الثفنـــات كـــالأحجـــار**

والأبيات كما هـو واضح مليئـة بألوان الترصيـع، في بناء الصيغـة أو التركيب، فـالأغواث والأقطاب، والأعلام، والأبدال، ينتمون الى صيغة واحـدة يحدث تواليها أثراً عميقاً على النفس، وكذلك النجوم والشموس، والتسبيح والترتيل والتهجـد، وأحياناً يأتي التوازي والترصيع، بين تركيبين متواليين، كما هو الشأن في البيتين الأخيرين، حيـث يتشابه النسق التركيبي. من خبر محذوف المبتدأ الى، وأداة شرط، تأتي عقـب الخبر، ويتلوها فعل الشرط في الشطـر الأول، ثم يتصدر جواب الشرط الشطر الثانـي، فيتوحد النسقـان التركيبيان في البدنـين معاً، مما يعطي البناء الداخلي قوة، ومتانة وإحكاماً.

إن هـذا النوع مـن التوازي، ربما يتـزامن مـع ازدياد لحظـات التوتـر في بناء القصيـدة، ويستطيع الدارس أن يرصـد مزيداً من خصائصه لو أنـه تساءل في أي المواطن في القصيدة يجيء؟ .. هل في مرحلة الاخبار والسرد، أو مرحلة الانشاء والتعقيب ؟ ، وهل يجيء مع البناء المجرد، أو البناء التصويري؟ ، وهل يتحقق في بـدايات القصتئد ومطالعها، أم يجيء غالباً في لحظات الذروة الفنـية ؟

وعلى أية حال، فـان هذه الوسيلة، تضيف ملمحـاً من ملامح التماسـك في قصيدة المرثية المطولة عند أبي مسلـم البهلانـي، يشكل مع الملامح السابقة التي أشرنـا اليها، منهجاً فنـياً، يتركنا على قنـاعة بأننـا أمام شاعر جيـد، تعينه الشاعـرية، على التحكم في روافـده، واظهار مشاعره العميقة، وبنائها في نسق يستخرج معـه مشاعر المتلقي العميقة أيضاً، بعد أن يكون قد استثار ظمأها بطريقة فنـية، حتى إذا نزل عليها ندى الشعر اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

القــراءة الثالثــة

أبومســلم البهــلاني الرواحـــي
حياته ـ شيوخه ـ تلاميذه ـ سلوكياته

«المدرســة التي ينتمي اليها»

أحمــد بــن ســعود الســيابي

مدير عام مكتب سماحة مفتي عام السلطنة

أبو مسلـم البهلانـي الرواحي واحـد من عباقرة الأمـة العُمانـية ونبغائها الذين أنجبتهم عُمان عبر مسيرتها الحضارية القائمـة على دعائم راسخة من رجال عظام وفكـر قويم، وهو أحد مفـاخر الأمة العربيـة لغة وفكراً على أنه إذا كـان لابد للأشيـاء من أصول ترجـع اليها اعتماداً وتأصيلاً واستنـاداً، فكذلك لابد للإنسان مـن أصول يرجع اليها وينتمـي اليها، فمن هو أبو مسلم ؟ وما هو نسبه؟

انه العلامة المحقق والشـاعر المفلق والأديب المدقق أبو مسلم ناصر بن سـالم بن عديم بن صالح بـن سالم بن محمد بن عبدالله بـن محمد البهلانـي الرواحي ينحدر مـن أسرة كريمة المحتد عريقـة النسب. فقد كان جده عبدالله بـن محمد البهلانـي أحد قضاة الدولـة اليعربية على وادي محرم كما ان أباه الشيخ سالم بن عديم البهلانـي أحد قضاة الامام عزان بن قيس والسلطان تركي بـن سعيد. وربما يتبادر إلى ذهن السامع أو القارىء، أو يتـوهم متوهم أن البهلانـي نسبة إلى بهلا المدينة التاريخية المشهورة في عُمان، وليـس الأمر كذلك، فالنسبة الى بهلا بهلوي، فلا تحتاج الى زيادة حرف النون، اذن فمن أين نسب البهالنة أو البهلانـيين؟

سمعت سماحة الشيخ أحمد بـن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة ـ أبقاه الله ـــ وهو يمت اليهـم بنســب ـــ يقـول نقـلاً عــن بعــض ذوو الاهتمام أن نسبهــم مــن طــيء.

وانهم كانوا في منطقة اليمن من إزكي ومنها تفرقوا إلى أمكنة أخرى من عُمان ومنها قرية محرم بوادي محرم التي ينتمي اليها المحتفى به أو المترجم عنه . ودخلوا في بني رواحه القبيلة العبسية المشهورة. على أن تداخل قبائل العرب وأفخاذها وبطونها في بعضها البعض أمر معروف وغير منكر يعرف ذلك كل من اطلع على كتب النسب كما هو الشأن في القبائل العُمانية أيضاً.

يقول الشيخ سالم بن حود السيابي بعد أن ذكر تداخل بعض القبائل في غيرها «وكثير غيرهم من أهل عُمان يمانيون دخلوا في النزار فترأسوا فيهم، وكذلك يمانيون دخلوا في قبائل أخرى يمانية من غير نسبهم وانتسبوا فيهم وكذلك النزار وهلم جرا ... وهذا أمر لم يختصوا به با شاركتهم فيه العرب في الجاهلية يعلم ذلك المطلع على السير، وفي تاريخهم أيضاً شائع ذائع. لايسع المقام ذكره، ولا يضر عرب تدخل في عرب ولكن المضر اخفاء النسب الأصلي والانتساب بنسب مستحدث»[٢].

ويقول أبو عباس القلقشندبي «اذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب الى قبيلته الأولى وأن ينتسب الى القبيلة التي دخل فيها وأن ينتسب الى القبيلتين جميعاً مثل أن يقالب التميمي ثم الوائلي وما أشبه ذلك»[٣]. وهذه المسألة لا تخلو من خلاف بين فقهاء الاسلام. واذا كنا قد تعرفنا على نسب المترجم له فماذا عن حياته وكيف عاشها؟

حياته :

ولد أبو مسلم وأطل على هذا الوجود سنة ١٢٧٣ هـ حسب رواية ابن أخيه الكاتب الأديب سالم بن سليمان البهلاني. وهناك رواية أخرى صاحبها نجل المترجم له (مهنا لن ناصر البهلاني) تقول أنه ولد سنة ١٢٧٧ هـ ويبدو أن الرواية الأولى أكثر ترجيحاً وأقرب الى الحقيقة والصحة وذلك لأن صاحبها لازم عمه طويلاً وكتب عن شعره وتتلمذ عليه كما يتضح ذلك من ملازمة أبي مسلم للشيخ أحمد بن سعيد الخليلي. وأيضاً فان أبا مسلم يقول في قصيدته العينية التى مطلعها :

الا هل لداعي الله في الأرض سامع   فاني بأمر الله يا قوم صادع

يقول فيها :[٤]

وأي رجاء بعد ستين حجة   لعيش وهل ماض من العمر راجع

---

(٢) سالم بن حمود السيابي ، اسعاف الأعيان ، ص ٤٤   (٣) أبو العباس القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص
(٤) أبو مسلم البهلاني، ديوان.

فانـه نظم هـذه القصيدة بعيد نصـب الامام سالم بـن راشد الخروصي سنـة ١٣٣١ هـ وربما أنه وقـت نظمها كان لا يتعـدى سنتي (١٣٣٣ هــ) أو (١٣٣٤هـ). وكان مـولده في قريـة محرم بوادي محرم موطن آبـائه وأجداده منذ أن لنتقـل اليها جده القاضي عبـدالله بن محمد البهلانـي الآنف الذكر، من أزكي.

ويبعد وادي محرم الذي أضيف الى هـذه القرية عن العاصمة مسقـط حوالي مائة وخمين (١٥٠) كيلو مترا ويشتمل على العديـد من القرى أكبرها قرية محرم. وهي القـرية التي فتح فيها المؤلـف عينـيه على هذا الوجـود .. وهناك نشأ وتـرعرع .. ودرج أيام الطفولـة البريئة الناعمة. ومـرح في شعابها وشراجها وتفيأ ظـلال نخيلها وأشجارها. وكـان لهوه زمن الصبا بمياهها الجارية الرقراقة. وتركت حيـاة الطفولة وبعدها حياة الشبيبة في وادي محرم صورا لازمته طوال حياته وظلت تداعب خياله وتسكن ذاكرته عبر عنها في نونـيته الشـهيرة :

يـا برق هـل والحنـايـا من ضعـاضـع	فــالاثــام فــالطــفّ حيــاهـن هتــان
وهـل ذرى القفــص فـالمقــراة معشبـة	وهــل قطين بعليـا قــاعــر بــانــوا
عهـدي بها ونضير العيـش يصحبهـا	والــدهــر في غفلـة والشهـب أخـوان
نشـأت فيهـا وروضـاتي ومــرتبعـي	روح الفضيلـــة لا رنـــد وريحان[٥]

وعندمـا كان أبـوه قاضيا على نـزوى في عهد الامـام عزان بن قيـس، كان بمعيـة أبيه في نزوى، ويقـال انه أجريـت له عملية الختـان في حصن نزوى وهـذا القول إن صح فهـو من مرجحـات رواية ابن أخيه سـالم بن سليمان البهلانـي بأن تـاريخ مولده سنـة ١٢٧٣ هـ وكان زميله في محرم أيام شبيبته الشيخ أحمد بن سعيد بن خلفان الخليلي حيث كانا زميلين متلازمين في الدراسة لدى الشيخ محمد بن سليم الـرواحي الذي كان يدرس في قرية السيح بوادي محرم في أحد المساجد هنالك. كما كانا زميلين في الخلوة الروحانـية التي اختلياها معا صفاء للروح، ونقاوة للضمير، وطهارة للقلب، وشفافية للوجدان، وتقوية للصلة بالله ـ تعالى ـ والذي أشار اليه في نونـيته بقوله :

ارتـــاح فيهـــا الى خـــل فيبهرنـــي	صــدق وقصـد ومعــروف وعـرفــان
فحـــال حكـم النــوى بينـــي وبينهــم	هنـــا تيقنـــت أن الـــدهـــر خـــوان[٦]

---

(٥) أبو مسلم البهلانـي ، ديوان.

(٦) نفس المصدر.

وبعد أن رحل أبوه الشيخ سالم بن عديم إلى زنجبار درة الشرق الافريقي وحاضرته التي كانت زاهية بجمال الحكم العربي العُماني في عهد السلطان برغش بن سعيد بن سلطان، سافر هو اليها أيضا ملتحقاً بأبيه وكان ذلك في سنة ١٢٩٥ هـ. وأقام بها مدة خمس سنوات حيث رجع الى عُمان وأقام بموطنه محرم وظل بها خمس سنين حتى أخذ الحنين يشده والشوق يجره الى زنجبار. فامتطى أديم البحر راحلاً اليها مرة ثانية وكانت هذه رحلته الأخيرة اليها حيث أقام فيها وألقى بها عصا الترحال وقضى حياته بها ليعيش في كنف حكامها الذين أحاطوه بالرعاية التامة وأولوه العناية الكاملة لاسيما في عهدي السلطانين حمد بن ثويني وحمود بن محمد بن سعيد ومن بعدهما من سلاطين زنجبار حيث تقلد منصب القضاء ومن ثم أسندت اليه رئاسته فيها.

لقد كان لذلك الجو الذي ساده مناخ من التقدير والاحترام من قبل سلاطين زنجبار كما كان لتلك البيئة التي عاش في ربوعها الوادعة أثر في نفس الشيخ أبي مسلم فأكب على المطالعة وقراءة نفائس الكتب الفقهية والأدبية على اختلاف أنواعها، فكان الكتاب أستاذه الثاني وجليسه المفضل حتى نبغ في العربية والشعر والأدب والعلوم الشرعية وصارت له مكانة رفيعة ومنزلة عالية في زنجبار لدى الحكام والمحكومين اعترافاً بعلمه وشاعريته حتى أطلق عليه في الشعر لقب «شاعر العرب» و «شاعر العصر» وعبر عن تلك المكانة والمنزلة بقوله في قصيدة له :

عزة العلم أمجدتني مقاماً	فتبينت كل رأي سخيف[٧]

نعم طاب له المقام في زنجبار، وسعدت بها أيامه وصفت لياليه، فنستمع اليه وهو يصور لنا تلك الحياة السعيدة التي قضاها حيث يقول :

خليلي إن الدهر جمع وفرقة	وطي ونشر لا يقر على آن
تمتعت منه بانبساط وبهجة	ورائع حسن من لياليه فتان
ليال سقتنا صفوها ونظامنا	كواكب أصحاب وأقمار اخوان
لدن سعدت أيامنا بمليندة	اجر بافريقية الشرق أرداني
لعاصمة ترفض نبلا جباهها	وتهفو بها البشرى لعرف وعرفان
افات البلاد الفضل ادنى فصولها	وأبهجت القاصي وأسعدت الداني
بها من رجالي هصبة يمنية	طوال الأيادي من ذوائب قحطان
هم القوم لا يشقى جليسهم بهم	صنائعهم في الدهر كالفلق الثاني

(٧) أبو مسلم البهلاني ، ديوان.

في ذلك المناخ وفي تلك البيئة نمت مواهبه وتفتقت قريحته وسال يراعه فكان قاضياً بل رئيس القضاء ومفتيا ومدرساً ومؤلفاً محققا وشاعراف مبدعاً.

فقد نظم الفريض وألف في الفقه والعقيدة والسيرة النبوية وأنشأ جريدة النجاح التي كانت نافذته الواسعة التي يطل منها على العالم الخارجي أخذاً وعطاء وافادة واستفادة.

وعاش على تلك الحال الجميلة حتى وافته المنية في الثانى من شهر صفر ١٣٣٩ هـ ـ ١٩١٩م، تلكم كانت حياته طفلاً يافعاً، وشبابا وشيبا، علما وعملا.

فمن هم شيوخه وهل كان له تلاميذ ؟

شيوخه وتلاميذه :

حامل العلم لابد أن يكون متلقيا ومؤديا، فالتلقي والأداء أمران ضروريان للعالم ولحامل العلم. فلابد من أن يكون له شيوخ يتلقى عنهم فنون العلم والمعرفة كما أنه لابد من أن يكون له طلبة يؤدي اليهم ما حمله من علم ومعرفة.

ومما لاشك فيه أن أبا مسلم كان له شيوخ أخذ عنهم ما أخذ من علم وقد جرت العادة أن يتعلم الناشىء أول شيء في حياته قراءة القرآن الكريم وهذه عادة اسلامية عامة في جميع البلدان الإسلامية واذا كان الأمر كذلك فان أبا مسلم تعلم القرآن على يدي معلم القرآن في بلدة محرم.

أما علوم اللغة العربية وعلوم الشريعة من عقيدة وفقه وغير ذلك فيبدو أنه أخذ شيئاً من ذلك عن والده الشيخ سالم بن عديم فقد كان والده على درجة من العلم والمعرفة حيث عمل قاضياً في عُمان وزنجبار. كما حمل العلم عن الشيخ محمد بن سليم الرواحي الذي كان يقوم بالتدريس في مسجد بقرية السيح بوادي محرم أما تلاميذه فكانوا في زنجبار فهناك نضجت مداركه وتفتحت مواهبه وأبرز من أخذ عنه العلم لغة وفقهاً وعقيدة وأدباً.

١ ـ الشيخ / سالم بن محمد الرواحي.

٢ ـ الشيخ / عبدالرحمن بن محمد الرواحي.

٣ ـ الشيخ / سالم بن سعيد الحبيشي.

٤ ـ الشيخ / برهان بن مكلا القمري.

٥ ـ الشيخ / سالم بن سليمان البهلاني (ابن أخيه).

٦ ـ مهنا بن ناصر بن سالم البهلاني (ولده).

وقد وقفت على كلام للشيخ برهان القمري قاله في حق شيخه وأستاذه أبي مسلم أحببت أن أثبته في هذا البحث حيث يقول :

«لقد طلبت أنا وزملائي من المرحوم العلامة القاضي ناصر بن سالم بن عديم الرواحي في الأيام التي كنا نتلقى منه الدروس النحوية أن ينظم لنا أنواع المبنيات في بيت وذلك عندما وصل درسنا اليها ولم يكن في حافظتنا ضابط يضبطها لنا، فتفضل علينا المرحوم بنظمها فنظمها في بيت واحد أثناء الدرس – رحمه الله تعالى رحمة – واسعة والبيت هو :

واضمر بشرط واشر مستفهمًا وصل وكاسم الفعل للبنا أنتما

ولاستحساني لهذا البيت وكونه من الفوائد التي ظفرت بها أيام تعلمي رأيت من الواجب علي أن أدرجه في هذا الكتاب لأنه مما أجاد به المرحوم الذي كان أحد أساتذتي في علوم العربية، فجزاه الله عني خير الجزاء في دار الجنان[8]».

تلكم كانت حاله من أشياخه وتلاميذه فما هي سلوكياته في المجتمع؟

سلوكياته :

الإنسان في طبعه مركب من فكر وسلوك، فالفكر يوجه الإنسان في سلوكه ليكون السلوك مترجماً عن ذلك الفكر، وبقدر ما يحمل الإنسان من فكر يكون السلوك مترجماً له، وإذا كنا قد تعرفنا على فكر أبي مسلم من بعض ملامح حياته وعلميته، وما تحلى به من علم غزير في مختلف فنون العلم الشرعية والأدبية واللغوية، وما واكب ذلك من أصيل إنتماء وعراقة حسب وسمو شرف لأسرة اتسمت بالعلم والفضل والخلق والمسئولية.

فانه لابد الا أن يتكون من ذلك فكر نير مستنير يحمل صاحبه ويوجهه الى الخلق الكريم والسلوك الحسن القويم.

ذلكم السلوك الذي دفع بأبي مسلم الى أن يكون عضواً فاعلاً في مجتمعه حيث انه كان اجتماعيا الى حد كبير فهو يشارك أحبابه وأصحابه في مناسباتهم وأفراحهم وأتراحهم .. فتجده مواصلاً وزائراً ومعاتباً على التقصير الذي يقابل به من بعض أولئك الأصدقاء والأخلاء، كما كان حريصاً على الاجتماع بالناس ولا يترك الفرصة تفوته عن تلك الاجتماعات العلمية والأدبية والاجتماعية لأنه يرى في الاجتماع تأثيراً روحيا له فاعليته في النفوس وفي القلوب سعادة وابتهاجاً، ففي الاجتماع تقتنص الحكم وتكتسب ويرقى الى الكمال،

---

(٨) برهان بن مكلا القمري ، الالفية الواضحة ، ص ١١

وبالاجتماع يستفيد الانسان علوماً شتى منقولة ومعقولة فيكون غرس العقول بالاجتماع لا بالانفراد والانزواء والانطواء فانفراد الانسان بنفسه دون مجتمعه وانعزاله عن حياة الأصحاب؛ أهل العلم والأدب والثقافة والفضل لايفيده ذلك شيئاً فهو يقول :

إن للاجتماع روحا لطيفا	فاعلا في النفوس كل جميل
قلما يكسب انفرادك فضلا	ومع الاجتماع غرس العقول
أدب حكمة كمال دعاء	واقتناص المنقول المعقول

ويصور لنا شيئا أو نماذج من تلك المناسبات الاجتماعية التي كانت تزهو بها الحياة في زنجبار، حيث يصور لنا مجالس الأنس هناك بقوله مذيلا على بيت شعري يقول :

اذا حرم الله المدام فانه	أتى ذلك التحريم من حكمة الله

فقال أبو مسلم :

وقام شراب الشاي عنها خليفة	على عالم الأرواح كالآمر الناهي
لعه الفضل في لون وريح ولذة	وقل فيه ما قد شئت من جانب الجاه
ذؤاب من الياقوت في وسط كوكب	به فرج المهموم بل متعة اللاهي
اذا صففت أكوابه وسط مجلس	رأيت نجوم الزهر تهوي لأفواه
أرى كل ما تحوي مجالس أنسنا	جنوداً لدفع الهم سلطانها الشاهي

ففي هذه الأبيات تصوير للحياة الاجتماعية التي كان يعيشها أهل زنجبار وعاشها معهم أبو مسلم وشاركهم أنسها ونعيمها فليست هذه الأبيات مقصورة على وصف الشاي المشروب العالمي المعروف أو كيفية احتسائه فقط.

وكان تواقاً الى حضور الأمسيات الجميلة التي تطرح فيها القضايا الأدبية، وتقتطف فيها ثمار الأدب وتجتنى فيها أزهاره فيصف تلك الليالي المؤنسة الجميلة :

رعى الله ليلة أنس جلت	بهاء وحسنا كبدر التمام
فكانت لنا غرة في الزمان	وكانت على صورة كالوسام
من الأدب الغض أجني بها	زهورا سقاها نمير الغمام
أطارح فيها كما أشتهي	كرام السراة سراة الكلام

الى أن يقول :

تـذكـرت مـا بيننـا قـد مضـى … وليـس بعيـش سعيـد دوام
فـلا زال نـاديكـمُ ناعمـا … مـن السعـد في نظـرة وابتسـام
فيـا ليلـة الـوصـل دومـي لنـا … فـانـت السـلام عليـك السـلام(٩)

كما انه كـان يتخذ من شعـره وسيلة للتعبير عما تكنه نفسه مـن مشاعر الـود والصفاء والتهاني تجاه اخـوانه وأخلائه وأصفيائه، يقـول في الشيخ محمد بـن جمعة المغيري وقصره المشيد :

الا ا نعـم أيهـا القصـر المشيـد … ودامـت في نـواديـك السعـود
ودام عـلاك ممـدودا بنعمـي … زمـانـك كلـه زمـن جـديـد
تحف بـك اللطـائف والتهـاني … ريـاض الأنـس والعيـش الـرغيـد
لنعـم القصر منبـع كـل فضـل … لأن قطينـه الشيـخ العميـد
محمـد بـن جمعـة ذو المعـالي … نبيـل زانـه كـرم وجـود
كـان جبينـه قمـر وكلتـا … يـديـه سحـابتـان اذا يجود
قـدم في روضـة النعمـى مليـاً … بسعـد لا يـزول ولا يبيـد(١٠)

وكان كثيرا ما يزور الأصحاب والأصدقاء، فقد زار مرة صديقه أبا الحارث الشيخ الأديب محمد بن علي بن خميس البرواني صاحب مقامات أبي الحارث.

وحدثت له قصة ظريفة ذكرها في قصيدة له يقول فيها :

أبـا الحارث اسمـع حـديثـا جـرى … على قصـة راق اعجـابها
تشـوقـت يـومـا للقيـاكـمُ … كـذا يجذب النفـس أحبـابها
فسرت أنـص تـاى بـابكـم … وقـد أرهقـق النفـس أتعـابها
ولما حللـت بـدار المزور … ومـن عـادة الـدار تـرحـابها
اذا نحـن بـالبـاب زنجبـة … تقـض الشيـاطين أنيـابها
فقلنـا لها ابلغـي أمـرنـا … فقـالـت مقـابـركـم بـابها

---

(٩) ديوان أبي مسلم.

(١٠) سعيد المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٣٤٦.

الى أن قال بعد أن ذكر طول وقوفه وانتظاره وما شاهده أثناء ذلك ثم رجوعه.

واضللـــت داري الى أن بـــدت رســوم حــوتهن أعتـــابها
والفيـــت ذريتـــي كلهـــا لطـــول المدى شـــاب أعقـــابها
والفيـــت كُتُبـــي محشـــورة فقيـــل بنـــو الفـــار تنتابهـــا
فهـــذا أبـــا الحارث المنتهـــى لاعجـــوبـــة طـــال اغـــرابها
فكـــان بـــلايـــا أبي مسلـــم عليـــك ونـــومـــك أسبـــابها[11]

إن هذا التوجه الاجتماعي الراقي لدى أبي مسلم جعل منه رجلاً جواداً سمحاً كريمًا منفاقاً للمال لا يبالي آخذاً بقول الرسول ﷺ لبلال «أنفق ولا تخش من ذي العرش املاقاً» لقد أكرمه سلاطين زنجبار وساداتها، وأغدقوا عليه من العطاء جزيلاً ومن العطف جليلاً، تقديراً لمقامه واستئهالاً لحقه حتى ظن بعض أولئك السلاطين أن أبا مسلم قد تأثل أموالاً جزيلة بعُمان. ولكن سرعان ما انكشف الحال وبان الواقع بأنه كان ينفق تلك الأموال في مستحقيها فهو كما كان يأخذها من حلها ينفقها في محلها – إن شاء الله – بل انه كان أحياناً تضطره الظروف وتجبره المتطلبات الى الاقتراض والاستدانة من أهل الخير والاحسان والمعروف فقد ذهب ذات مرة الى زميله الشيخ العالم راشد بن سليم الغيثي لاستقراض بعض المال، وقال في بيتين :

أتيتـك لما أجـدب الـربـع عـانيـا كـذاك غيـوث اللـه في الجدب تقصـد
ففـــرج رعـــاك اللـــه هما ألمّ بي كـأنّ سعيراً في الجوانـح تـوقـد[12]

وبعد أن تعرفنا على سلوكياته اجتماعاً وكرماً وتواضعاً فما هي المدرسة التي ينتمي اليها؟

المدرسة التي ينتمي اليها :

ينتمي أبو مسلم في توجهه الفكري الى المدرسة الجاعدية أو البونبهانية ـ اذا جاز لنا أن نسميها بذلك ـ وهذه المدرسة صاحب فكرها العلامة الرئيس أبو نبهان جاعد بن خميس الخروصي ـ رضي الله عنه ـ وتقوم معالم هذه المدرسة على :

---

(١١) ديوان أبي مسلم.

١ ـ عمق التأمل في الوجود.

٢ ـ التعمق في علم الكلام والفلسفة والمنطق.

٣ ـ الخلـــوة.

٤ ـ كثرة الأوراد.

وعلى العموم فان عليها مسحة صوفية فقد كانـت متأثرة ببعض التوجهات التصوفية نت خـلال المعالم التـي ذكرنـاهـا .. بيد أنها لم تتبنـى التصـوف من حيـث الطرق والطقـوس والتجمعات وغير ذلك من الإمور المتبعة عند الصوفية، وانما أخذت الخلوة الانفرادية واستعمال الأوراد.

حتى ان الاباضية لم يطلقوا على ذلك التوجه اسـم التصوف بل أطلقوا عليه اسم السلوك. فالشعر الذي تكون فيه نزعة صوفيه يسمونه شعر السلوك.

وبعد وفاة أبي نبهان حمل ابنه الشيخ نـاصر بن أبي نبهان الخروصي ـ رحمه الله ـ فكر تلك المدرسة. ثم جاء بعده العلامة الكبير الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي ـ رضوان الله عليه ـ فرفع لواءها وأعلى من شأنها نظراً لمقدرته الأدبيـة والشعرية الفائقة وأسلوبه البيانى الرفيع اضافة الى تعمقـه في علوم الشريعة، فسال يـراعه بذلك التـوجه أو السلوك نثراً، وهـاجت به قريحته نظمًا عبر غرر القصيد وقلائد القريـض، وتبعه على ذلك النهج ابنه الشيخ أحمد بن سـعيد الخليلي ـ رحمـه الله ـ . وصار لهذا التـوجه أو الشلوك شأن وأي شأن في الأوساط العلمية والدينية في عُمان.

وقد تأثر أبو مسلـم ـ رحمه الله تعالى ـ بهذا التوجه مقلداً في ذلك الشيـخ العالم الربانى سعيد بن خلفان الخليلي مترسمًا منهجه متتبعاً خطاه اعجابـاً بذلك القطب الربانـي يدلنا على ذلك ما دبجه مـن كلام بين يدي تخميسه للقصيدة الموسومـة بسموط الثناء للشيخ الخليلي حيث قال « لم يتصل بي كيفية تبتل سيدي القطب الخليلي ـ قدس الله سره ـ بدعوته سموط الثناء إلا مـا ذكره صاحبهـا الشيخ جمعة بـن خصيف ـ رحمه الله ـــ من كون القطـب كان يرتلهـا آناء الليل وأطـراف النهار، وطوراً ينـور بها سدفـة السحر، وتارة يصمـي بها رابعة النهار، حتى خرقت له عوائد التمكين، وفتح الله له بها الفتح المبين، ولما منّ الله عليّ بتخميسها متعرضاً لبركات ذلك القطـب القطب واستمداداً للفتح من نفثاته، لا مباراة لكـلامه فان كلامه وهبي لا يبلغ شأوه مثلي حتـى يقتحم الضالع الجبل الأملس، أو يصعـد بغاث كسير الجناح الى الفلك الأطلسـي، ولكني امـرؤ حالفت خـدمة الأذكار، وأشربـت حب الاغتراف مـن بحار الأسرار، وعلمت أن لهذه الدعوة أثراً ساطعاً وبرهاناً قاطعاً، أشهر من الشمس في كبد السماء

وأغزر من بركة من عيالم الأمّاء، فاستمسكت بعروتها وأخذتها، وجعلتها مع التخميس لرب العزة نداء ولبست لها من أديم السحر رداء»[١٣] وليس الأمر مصادفة».

واذا كان مصادفـة فهو من باب حسن الصـدف ـ كما يعبر عنه ـ أن تكـون خاتمة حياة العلامة أبي مسلم وآخر عهده بالدنيا هي تخميسه «ثمرات المعارف» للقصيدة الميمية للعلامة المحقق الخليلي أيضاً وهي أيضاً في فن السلوك «التصوف» كدليل على الارتباط الروحي الذي يربط الامامين العالمين والشاعرين المبدعين فقد كـان تخميسه لها قبل وفاته بثلاثة أيام فقط والقصيدة الميمية التي للشيخ الخليلي مطلعها :

تقـدم الى بـــاب الكـريـم مقــدمـا ... لــه منــك نفسـا قبـل أن تتقـدمـا

أما مطلع التخميس فهو :

هـو اللـه فـاعرفـه ودع فيـه مـن ومـا ... دعـــاك ولم يترك طـــريقـــك مظلمًا
عـن الحق نحو الخلـق يـدفعك العمـى ... تقـدم الى بـــاب الكـــريـــم مقــدمــا

لــه منـــك نفسـا قبـل أن تتقـــدمـــا

أما سموط الثناء فمطلعها :

سمـــوط ثنـــاء في سمـــوط فـــريـــد ... بكـــل لســـان قـــد يثثـــن وجيـــد

والتخميس مطلعه :

أوجـه بـــاسـم اللـــه وجـــه شهـودي ... لعـــز جـــلال اللـــه رب وجـــودي
تســابيـــح اخـــلاي لـــه وصمـــودي ... سمـــوط ثنـــاء في سمـــوط فـــريـــد

بكـــل لســـان قـــد يثثـــن وجيـــد[١٤]

على أن الشيخ أبا مسلم تعمق في التوجه السلوكـي (التصوفي) وتوغل فيه الى حد المبالغة أحياناً، وسخر له موهبته الفذة وقدراته الابداعية الهائلة، ووظفها لابراز مكنونات هذا التوجه السلوكي شعراً أو نثراً بما لم يسبقه اليه فيه سابق ولعله لم يلحقه لاحق فألف فيه الرسائل الجامعة ونظم فيه القصائد المطولة الرائعة، على أنه لابـد من القول بأن هذا التوجه قد خفت حدته وقل شأنه بظهور المدرسة الساليه[١١٤] بقيادة وريادة الامام نور الـدين السالمي الذي استطاع بما أوتى من نبوغ فائق وملكة علمية وفكريـة أن يؤسس مدرسة فكرية أخرى لها ملامحها ومعالمها. تلك الملامح والمعالم القائمـة على الكتاب والسنة نصاً وظاهراً والرجوع الى

---

(١٣) سعيد المغيري ، جهينة الأخبار، ص ٣٤٦.   (١٤) ديوان أبي مسلم .

(١١٤) وليس معنى هذا ان هنـاك فرقا جوهريا بين المدرستين البونبهـانيه والساليه، وانما هو بعض التـوجهات، وكلتاهما تستمد مفهومها من الكتاب والسنة.

سيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم والأسلاف والأوائل. فقد قال : «ثم ان في الطلسمات حتى ان بعضهم جعلها نوعاً من السحر، ولا أقول فيها شيئاً لكثرة استعمال متأخري أصحابنا لها فلو لم يظهر لهم جوازها ما فعلوها، غير أني أقول أنها مبتدعة قطعاً، لأن السيرة النبوية والطريقة الصحابية خالية منها، وكذلك من بعدهم التابعين باحسان والله أعلم بحالها، ولعل أصلها أخذ من اليهود فإنهم المعروفون بذلك في سالف الزمان، وقد أغنانا الله عن علومهم بالعلم الذي جاء به رسول الله ﷺ من ربه ولعل رجلاً يسمع هذا فيقول :

كالثعلب النازي الى عنقوده   إن لم ينله قال هذا حامض

فلا والله ما عدلت عنه لذلك مع إني معترف بجهلي، لكن رغبة عنه وعدولاً الى السيرة المطهرة على أن نفعه دنيوي قطعاً ويكفيك منه ذلك فاستدل بفرعه على أصله[15]».

وقال في جواب له عن معنى الحديث : «من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه».

«وليس معنى الحديث كما تأوله أهل الرياضات حيث صرفوه الى الخلوة أربعين يوماً، فان ذلك تأويل للحديث على غير وجه، مع ان الخلوة لم تثبت عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة، ولا عن التابعين لهم باحسان، أما ما يروى أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يتعبد الليالي المعدودة في حراء فذلك قبل بعثته ﷺ، واذا ثبت عنه بعد البعثة فذلك قبل استقراء الشريعة فلا دليل فيه، ومن المحال أن ينال العلم بالخلوة، لأن علوم الإسلام سمعية منقولة عن الشارع، وقد انسد باب الوحي فلا يمكن أخذها إلا عن الأشياخ شفاها أو من آثارهم الصحيحة[16]».

وهكذا شاء الله – تعالى – أن تملأ المدرسة السالمية الساحة الفكرية في عُمان بهذه المفاهيم الواضحة الظاهرة الأصيلة ولا تزال آثارها باقية ومستمرة حتى يومنا هذا!(ألا رحم الله أولئك الأئمة الأعلام والسادة العظام ورضي عنهم وأثابهم دار الجنان على ما قدموه من خدمات جلى لةسلام وأهله وللعلم وذويه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

---

(١٥) السالمي، العقد الثمين . ج١ ، ص٥٠

(١٦) نفس المصدر.

القراءة الرابعة

بين أبي مسلم البهلاني الرواحي وأبي البقاء الرندي

«جوانب أدبية وفنية مقارنه»

د. سمير هيكل

جامعة السلطان قابوس

ليست رائعة أبي مسلم النونية المسماة **بالفتح والرضوان في السيف والإيمان** هي المعارضة الوحيدة في ديوانه، وانما تبرز هذه المطولة كمعارضة مميزة لرائعة الشاعر الأندلسي أبي البقاء صالح بن شريف الرندي الذائعة الصيت :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان(١)

هذه الأندلسية التي لابد أن تأثر بها شاعرنا العُمانى وتمثلت أمام ناظريه مثالا حيا ينطق بما كان يشعر به من حزن وأسى حينما نظم رائعته :

تلك البوارق حاديهن مرنان فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان(٢)

واذا كان موضوع قصيدة أبي البقاء يدور حول محور واحد هو رثاء الأندلس الضائعة والبكاء على القواعد الإسلامية والمدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الأسبان النصارى من مثل بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية مبيناً ما آل اليه حالها وحال أهلها الذين سقطوا قتلى وأسرى دون أن يهتز إنسان، فإن موضوع نونية أبي مسلم يدور حول عدة محاور، ولذلك يحسن وضعها في إطار عام وتقسيمها إلى مقاطع حسب الأفكار التي وردت فيها .

ذلك أن قصيدة أبي مسلم هذه تبلغ ثلاثمائة وثلاثة وثمانين بيتاً في حين لا يتجاوز عدد أبيات نونية أبي البقاء ثلاثة وأربعين بيتاً، وهذا يعلل تعدد الموضوعات عند أبي مسلم . فمن

(١) نفح الطيب ٦ / ٢٧٩

(٢) ديوان أبي مسلم ٢٩٩ ـ تحقيق عبدالرحمن الخزندار.

شوق وحنين إلى الديار ومعاهد الصبا في الوطن الأم انتقالاً إلى ذكر بيضة الإسلام نزوى عاصمة الإمامة وإلى ذكر الأئمة ورسم لوحة لهم تشع بألوان التقوى والهدى، ثم الانتقال إلى الاستصراخ والاستنهاض في معرض ذكر الأحياء والقبائل التي كان يناديها من بعيد وقد مثل هذا القسم أكبر مساحة في القصيدة قبل أن ينتقل في النهاية إلى ذكر موقفه وطلب الدعم والتأييد.

هذا هو الإطار العام للقصيدة التي تدخل في باب الشعر الوطني الذي كان معنيا بتمجيد الوطن وحث المواطنين على التجاوب معه والالتفاف حوله.

ويشترك أبو مسلم البهلانى مع أبي البقاء الرندي في الدعوة إلى وحدة المسلمين وتآلفهم واجتماعهم على الحق والإيمان ليتحقق للأمة ما تصبو اليه من عز ومنعة لتكون قادرة على دفع الأذى عنها ورد كيد المعتدين والخلاص من نير الأجنبي مهما كانت الصورة التي يظهر فيها.

ويتمثل موقف أبي البقاء من دعوته إلى الوحدة ودرء الشقاق ونبذ الخلافات والقطيعة في بيته التالي الذي يخاطب فيه المسلمين :

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	**وأنتم يا عباد الله إخوان**

بينما يتمثل موقف أبي مسلم في أماكن عديدة من قصيدته منها :

يا للرجال احفظوا أوطان ملتكم	**فما لكم بعد خذل الدين أوطان**
يا للرجال اندبوا لله غيرتكم	**فالوقت قد ضاق والتثبيط خسران**
يا للرجال ألا لله منتصر	**فناصر الله لا يعلوه خذلان**
يا للرجال أروني من شهامتكم	**إن الحوادث آساد وسيدان**
يا للرجال اجعلوا لله نجدتكم	**فالغاية الفتح أو موت ورضوان**

ولم يكن أبو البقاء ولا أبو مسلم متميزين في دعوتهما هذه ، فقد شاركا غيرهما من الشعراء الذين هبوا لاستصراخ المسلمين واندفعوا يطالبون بوحدة الصف والتخلي عن الفرقة والقطيعة.

وفي العصر الحديث عندما سقط العالم العربي والإسلامي فريسة في أفواه القوى الكبرى وتفككت أجزاؤه وذل سكانه ورسمت على أراضيه خطوط وهمية سميت بالحدود وأصبحت

مقدراتها لأطماع الطامعين من المستعمرين، عند ذلك تحركت الغيرة العربية والروح الإسلامية فهب الشعراء في عُمان كما في بقية أرجاء الوطن العربي يدعون الى مناصرة القضايا العربية والإسلامية منادين بالوحدة ورد كيد المستعمرين المعتدين.

وتتضح هذه الروح الوطنية لدى أبي مسلم البهلانى في مواقف عديدة إضافة إلى ما ورد في قصيدته النونية دون أن يمنعه وجوده في المهجر العُمانى في شرق أفريقيا من المشاركات القومية والوطنية.

لقد عرف أثناء وجوده في زنجبار الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورياض باشا، وكان هؤلاء زعماء دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي في ذلك الحين، وبقيت المراسلات والصلات قائمة بينه وبينهم[3] ثم عقد المؤتمر الإسلامي بالقاهرة على يد رياض باشا (١٨٣٤ ـ ١٩١١) فاستغل أبو مسلم هذه المناسبة فأرسل قصيدة الى المؤتمر يعتب فيها على أقباط مصر الذين استجابوا في ذلك الحين لدعاة التحريض فعملوا على إذكاء نار الفتنة ضد المسلمين مما تمخض عنه إزهاق للأرواح وقتل للأبرياء. يقول أبو مسلم في قصيدته[4] :

يا بني الأقباط تلكم مصرنا	**أنتم البنك ونحن المقتهر**
إن هذا النيل أم حافل	**كلنا يرضع منها ويذر**
فغدت حافلنا ترضعها	**حية أشبه شيء بسقر**
رضعتها لبنا ثم دما	**واغتبطنا بمشاش ووبر**
وهي لا يقنعها ما ترتمي	**لا ولا يقنعها بلع الحجر**
ذكرتنا بعصا موسى على	**أن ذي تلقف أرواح البشر**
ان يكن جيش احتلال غركم	**فهي أمنية من لايفتكر**
ما يريد الجيش باستقلالكم	**بعدما ألقى عصاه واستقر؟!**
نيلنا في الغرب يجري ذهباً	**وبقينا نترامى في الحفر**

كما يتضح اتجاه أبي مسلم الوطني وبخاصة تجاه وطنه العربي الكبير في أماكن أخرى من ديوانه حيث نسمعه في قصيدة أخرى يفتخر فيه بوطنه عُمان ويعد بأن يحمل على

---

(٣) شعراء عمانيون ٣٢٨.

(٤) انظر القصيدة في ديوانه ٣٥٣ ـ ٣٥٦

الاستعمار حتى القيامة وبالتعاون مع الأحرار، واذا بعُمان تصبح عنده معقد الأمل وبؤرة الاندفاع نحو حرية العرب والمسلمين وأنها ستقوم بحقهم لتعيد إليهم مجدهم وترد اليهم حقوقهم(٥).

تفضل بالزيارة في عُمان ... تجد أفعال أحرار الرجال
تجد ما شئت من مجد وفضل ... وأحساب عزيزات المثال
تجد من هيبة الإسلام شأنا ... عليه الكفر مبيض القذال
تجد همم الرجال مصممات ... بثأر الدين ترخص كل غال

الى أن يقول مخاطباً شعوب العالم العربي :

سنأخذ حقكم ونذود عنكم ... ذيادا باليمين وبالشمال

واذا كانت صورة المأساة الأندلسية التي أتقن تصويرها أبو البقاء الرندي مبيناً هول الفاجعة التي تعرض لها المسلمون في الأندلس والفظائع التي ارتكبها الإسبان بحقهم فإن أبا مسلم البهلانى قد أتقن بدوره تصوير ما فعله الاستعمار بالعرب وبالمسلمين. يقول أبو البقاء في الحث غلى نجدة المسلمين في الأندلس وفي بيان المحنة الأندلسية :

ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب اسلام وإيمان

---

(٥) الديوان .

أما أبو مسلم فقد بين في رائعة أخرى غير النونية ، وهى المقصورة[٦]. ما فعله المستعمرون بأبناء وطنه وبأبناء ملته من المسلمين فقال :

تحكموا في ملككم ورزقكم　　　وكبسوا البئر وقطعوا الرشا
منوا عليكم بغذاء طفلكم　　　وحسوة الماء ونفحة الصبا
وأزعجوكم عن ظلال ريفكم　　　وليتكم لم تزعجوا عن الفلا
وضايقوكم في بلاد ربكم　　　حتى على مدفن في الثرى

إلى أن يقول مبيناً الحالة المخزية التي وصلت اليها الأمة العربية والإسلامية :

أليس عاراً أن تعيش أمة　　　مثل اللقى أو غرضاً لمن رمى
يلفنا الخزي إلى أوتاره　　　ويحكم النذل علينا ما يرى

أما الحل عند أبي مسلم للخلاص من هذه المأساة فيصوره كما يلي :

ليس لها إلا التفاف قوة　　　بقوة ومقتدي بمقتدي
ليس لها إلا نفوس أطفأت　　　أضغانها واشتعلت فيها التقى
يلمها الإيمان قلبا واحداً　　　وهيبة الله وسورة الهدى
إذا رمت بقوسها واحدة　　　وما رمت وإنما الله رمى

وهكذا نرى أن أبا مسلم البهلانى شاعر وطنية صادقة من الطراز البديع وشاعر استنهاض من المستوى الرفيع[٧]، وهو كما قال فيه الشاعر سعيد الصقلاوي في كتابه «شعراء عمانيون»[٨]:

(وأبو مسلم بلا منازع شاعر استنهاض وهو عصب شعره، ويعتبر الشاعر الوحيد في عُمان الذي كان همه الاستنهاض والدعوة اليه انطلاقاً من مبادئه الإصلاحية وكان يحث أبناء عُمان على نبذ خلافاتهم والترفع عن المهاترات وكان شديد الحرص على مستقبل بلاده، يعذبه واقعها الأليم الذي كانت تحرق فيه، وتتجرح أحاسيسه ومشاعره الأحداث التي

---

(٦) أنظرها في ديوانه ٣٣٦ ـ ٣٥٢

(٧) الشعر العُمانى مقوماته ولتجاهاته وخصائصه الفنية ٥١ ، ٥٣

(٨) ص ٣٣٤

فرضت نفسها على وحدة عُمان، وكان يبكيه ذلك الانقسام الاجتماعي والفرقة والشقاق بين أبناء الشعب الواحد، وعدم الانسجام في كيان الأسرة العُمانية الواحدة، وكان الدين دافعه القوي الذي يحرك كامن مشاعره ويشغل فكره بالدعوة إلى الاتحاد والنهوض من السبات العميق الذي كانت تغط فيه).

من هذا المنطلق نستطيع أن ندرك العامل النفسي الكامن وراء تلك المقدمة الطويلة في قصيدته النونية التي تدل على انتمائه الوطني الصادق لوطنه الأم وإيمانه العميق بدينه الحنيف.

إن الشاعر الجيد هو الذي يوجد علاقات وطيدة بين مقدمات قصائده والموضوعات التي يتناولها في هذه القصائد. ويندرج اسم أبي مسلم في لائحة هذا الصنف من الشعراء حيث نجد مقدمات قصائده قد جاءت نابضة بالحياة زاخرة بها. ومن هنا يمكن أن يحكم على القصيدة من مقدمتها لأن صناعة الشعر ليست أمراً هيناً وإنما هي عملية صنعبة تحتاج الى الدربة والدراية والجهد والمكابدة[٩]، وقد ذكر ابن رشيق القيروانى : (أن عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، وإن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل، أهول ما يكون على العالم، وأن أتعب أصحابه قلباً من عرفه حق معرفته)[١٠].

العلاقة بين المقدمة وموضوع القصيدة عند أبي مسلم وأبي البقاء :

١ ـ بين المقدمة والموضوع عند أبي مسلم :

إن الدارس لنونية أبي مسلم يكاد يسمع من خلال مقدمتها نبضات قلب الشاعر الذي كان يخفق بالشوق والحنين إلى ديار الوطن الأم ومعاهد الصبا في نغمة أسى على أيام وديار، ومن هنا جاءت مقدمة قصيدته معبرة عن ذاته أجمل تعبير ومصورة للحالة النفسية المؤلمة التي كان يعاني منها في ذلك الحين حينما استثار لواعجه وأشواقه بعده عن وطنه عُمان وتذكره لأهله وأحبته وعشيرته وحنينه إلىمعاهده ودياره،وقد صرح بذلك منذ البداية :

إني أشح بدمعي أن يسح على	**أرض وما هي لي يا برق أوطان**
هبك استطرت فؤادي فاستطر رمقي	**إلى معاهد لي فيهن أشجان**
تلك المعاهد ما عهدي بها انتقلت	**وهن وسط ضميري الآن سكان**
نأيت عنها ولكن لا أفارقها	**بلى ؛ كم تفترقت روح وجثمان ؟!**

---

(٩) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ١٨٠.

(١٠) العمدة ١ / ١١٧

وهو في بيته الأخير هذا كأنما يتمثل بيت ابن عبد ربه(١١).

الجسم في بلد والروح في بلد	يا وحشة الروح، بل يا غربة الجسد !!

إن عاطفة الشوق والحنين عامل مشترك يجمع بين كل الشعراء الذين عانوا من الغربة واكتووا بنارها، ومن هنا كانت المعاناة دافعاً من دوافع التفوق والإجادة في نظم هذا الموضوع الذي يتخذ من الألم لحمته ومن المعاناة سداه. وهكذا جاءت مشاركة شاعرنا أبي مسلم لغيره من الشعراء الذين جمعتهم رابطة الأسى وألفت بينهم وحدة الموضوع مشاركة تمتاز بالصدق والإخلاص. ومن بين هؤلاء الشعراء الذين شاركهم أبو مسلم في البكاء على الأوطان والديار نذكر الشاعر الصقلي ابن حمديس الذي ناح على وطنه بعد ضياعه فخرج منه وظل يبكيه حتى وافاه الأجل المحتوم فكان من جميل ما قاله في هذا المضمار(١٢) :

ذكرت صقلية والأسى	يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت	وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة	فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء	حسبت دموعي أنهارها

وهناك شاعر أندلسي آخر يكاد يشترك معه أبو مسلم في تذوق معنى الغربة والبعد عن الأوطان وفي المعاناة مما سببه الحرمان فكأنما نطق الاثنان بلسان واحد. هذا الشاعر الأندلسي هو ابن عميرة، وانما ذكرناه في هذا المقام لنبين التشابه الكبير بين بعض أبياته وأبيات أبي مسلم الرواحي في الحنين إلى الوطن.

لقد قضى ابن عميرة معظم حياته خارج مسقط رأسه جزيرةشقر، تماماً كما فعل أبو مسلم، وتنقل بين مراكش وتونس وما حواليهما، لكن ظل يحن إلى مسقط رأسه ومرابع صباه فكان يتنسم الأخبار عن الوطن والأحبة وهو مقيم في المغرب، لكن هذه الأخبار أكدت له استحالة رجوعه الى وطنه الذي سقط في أيدي الإسبان الذين نكلوا بأهله وعبثوا بجماله وأفسدوا خيراته(١٣) فجاء حنينه ناراً مستعرة تتأجج بلهيب البعد والحنين والحرمان. ومما قاله هذا الشاعر في التذكر والحنين إلى مسقط رأسه شقر، وبلدته بلنسيه وكل المدن في شرقي الأندلس(١٤) :

---

(١١) المطرب ١٥٣ (١٢) ديوانه ١٨٣

(١٣) رثاء المدن في الشعر الأندلسي (١٤) المرجع السابق .

تــذكـر عهــد الشرق والشرق شـاسـع	وذاب أســــى للبرق والبرق لامـــع
وأتبـع ذكـــر الجزع أنـــة مــوجـع	لـــه أبـــداً قلـب على الجزع جـــازع
كفى حـــزنـاً نـأي عن الأهـل بعـد مـا	نـأينـا عـن الأوطـــان فهـي بـــلاقـع
نـــوى غـربــة حتـى بمنــزل غـربــة	لقــد صنـع البين الـذي هــو صــانـع
أحـن إلى أرض تقـــادم عهــــدهــــا	ومـن دونها أيــدي الخطـوب الموانـع
وكيـف بشقـــر أو بـــزرقـــة مـــائه	وفيـــه لشقــر، أو لـــزرق مشـــارع

وهكذا يصرح هذا الشاعر ـــ ومثله فعل أبو مسلم الرواحي من بعد ـ أنـه يشعر بالغربة حتى وان كـان في أوطان عـربية وديـار إسـلامية طـالما كان بعيـداً عن الـوطن الأم والأهل والأحباب. وهكذا جمع بين هؤلاء الشعراء نسب الغربة وشكوى البعد والحنين.

وكما نعرف فإن كـل غريب للغريـب نسيبه. وقد وصل الحال بـأحدهم وهو أسـامة بن منـقذ أن ألف كتاباً كاملاً في موضوع الغربة والحنين وسماه (المنازل والديار) إذ لم يكتف بنظم قصيدة أو قصائد كما فعل غيره من الشعراء، ولذلك كان هذا الكتاب أهم ما وصل الينا عن موضوع الغـربة والحنين دون أن يخالطه موضـوع آخر، فكأنما هاج ألم الغـربة بالمؤلف فأنساه كل الموضوعات الأخرى، فهو يصرح بذلك في مقدمة كتابه قائلا (١٥) :

(وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت مـن زماني، وانفرادي من أهلي وإخواني، واغترابي عن بلادي وأوطاني).

لقد ذكـرت كل تلـك الأمثلة لأبين مـدى تأثير حـالة الحزن والأسـى التي سيطـرت على شاعرنا أبي مسلم من جراء الغربة والحنين، فجاءت مقـدمة قصيدته خير شاهد على ما كان يشعر به ويحسه في قلبه وروحه.

لقد صرح أبـو مسلم في مقدمة قصيـدته كما صرح ابن عميرة في أبياتـه السابقة بشـوقه لربـوعه وتـذكره لمعـاهده التي تحيـا في قلبه وتعيـش في وجدانـه رافضا السلـوان ومنكراً النسيان يعيش في غربته عيش السليم الذي لايجد الترياق فهو دائم الألم متصل الآهات حتى لقد شف جسمـه فصار كالخيـال. إنها النوى التي حكم بها القدر، ولا يغلب القـدر المحتوم.

تلـك المعـاهــد مــا عهـدي بها انتقلـت	وهـــن وســـط ضميري الآن سكـــــان
نــأيــت عنهــا ولكـــن لا أفــارقهــا	بلى؛كــــم افترقـــــت روح وجثمان

(١٥) فعاليات ومناشط المنتدى الادبي، اصدار يونيو ١٩٩١ ، ص ٢٥٩

وكيف أنسى عهودي في مسارحها ... وهن بين جنان الخلد بطنان ؟!
أم كيف يمكن سلواني فضائلها ... نعم لدي لذا السلوان سلوان ؟
معاهد شاقني منها محاسنها ... إن شاق غيري آرام وغزلان
لها على القلب ميثاق يبوء به ... إن باء بالحب في الأوطان إيمان
كأنني واغترابي والغرام بها ... حي قضى خلفته بعد أحزان
هي النوى جعلتني في محاجرها ... مثل الخيال وروحي ثم جثمان
أعيش في غربة عيش السليم على ... رغمي وليس إلى الترياق إمكان
يا برق حرك همومي إن تكن سكنت ... فكل حظي تحريك واسكان

إن هذا الحزن المتمخض عن الغربة والحنين ما هو إلا مرآة تعكس حزن الشاعر العميق لحالة الفرقة التي كانت سائدة في بلاده في ذلك الحين كما تعكس ألمه وأساه لما شاهده في بلده من خلاف، وهو الوطني الذي صرح بانتمائه وبغيرته وحماسه لجمع شمل الأمة بل الأمة العربية جميعاً. وعندما لم يتمكن من الانتقال بجسمه الى ربوع وطنه الأم ؛ قام برحلة طار فيها من خلال روحه[١٦] ليتحسس بها تلك الأماكن الحبيبة ويزور من خلالها دياره البعيدة القريبة بعد أن برح به الوجد وطار به الحنين، والهوى ضرب من الطيران. لقد حلق به حزنه في أجواء معاهده وفوق ربوع أوطانه، وهذا يفسر قوة الحركة التي بدأ بها قصيدته حين رسم لوحة رائعة للبرق والمطر واندفاع الماء في السهول والأوعار. إنها الحركة المتوثبة الكامنة في ضلوعه وفي أحشائه :

إن هيج البرق ذا شجو فقد سهرت ... عيني وشبت لشجو النفس نيران
وصير البرق جفني من سحائبه ... يا برق حسبك ما في الأرض ظمآن
وهل ذرى القفص فالمقراة معشبة ... وهل قطين بعليا قاعر بانوا
عهدي بها وَنَضير العيش يصحبها ... والدهر في غفلة والشهب إخوان

---

(١٦) المرجع السابق

نشـــأت فيهـــا وروضـــاتي ومـــربعـــي روح الفضيلــــــة لا رنـــــد وريحان

ويتابع بعد عدة ابيات قائلا :

يـا ناقـل العيس مـن عليا بـدية حيـث م اليحمـــــد الحائزون المجـــد فطـــان

خلّـــف وراءك عـــزا والمضيرب والــــ ـــدريز والقـــائل الـــراسي بها الشـــان

وخـــل (ابـــراء أعـــلاهـــا وأسفلهـــا) حيـث القطين ملـــوك النـــاس قحطـــان

و(خـذ) بأوجهها عن ساحتيْ (سمـد) ميـاسر (الفتـــح حيـث الحي كهـــلان)

ودع مـا وراءك إن غـــرّبـت (أخشبـــة) تجري المجـــرة فيهـا وهْـــي (ســـدران)

ويـــامِـنِ (الـــدوح والحظـراء منتحيـــا أفنـاء حلفين حيـــث الســـوح جـــرنـــان

واعمـد إلى (الجوف) واستظهر أسـافلهـا أرض لعـــامـــر أهـل الفضـــل أوطـــان

وافـــرق بها البيـــد حتـــى يستبين لها (فـــرق) على بيضـة الإســـلام عنـــوان

فـــان تيـــامنـــت الحوراء شـــاخصــة لها مـــع السحـــب أكنـــاف وأحضـــان

فحـــطّ رحلـــك عنهـــا انها بلغـــت نـــزوى وطـــافـت بها للمجـــد أركـــان

وهكذا نجد أن نـزوى كانت خاتمة المطاف في رحلة الشاعر الوطنية، كما كـانت الأماكن التي سبقتها جســوراً للوصول اليها، فهي بيضـة الإسلام، ومقر الإمامــة وهذا يعلل النفس الطويل في مقـدمة القصيدة ويبرر حزن الشـاعر وألمه النفسي. ولما كان ذكر المكـان يستدعي ذكر ســاكنيه، فإننا نجد الشـاعر ينتقل بعد ذلك إلى ذكـر الأئمة ومدحهم وإظهـار مناقبهم، وبيان الصبغة الدينية التي كانوا يتحلون بها من عدل وفضل، وإنصاف وإحسان :

إنـــزل فـــديتـك عنهـــا ان حـــاجتهـــا عـــدل وفضـل وإنصـــاف وإحســـان

إنـــزل فـــديتك عنهـــا إن وجهتهـــا تخت الأئمـة مـــذ كـانت ومـذ كـــانـوا

إنـــزل على عـــرصـــات كلهـــا قـــدس للحـــق فبهـــن أزهـــار وأفنـــان

إنـــزل على عـذبـات النـور حيـث حـوت أئمـــة الـــديـن بطنـــان وظهـــران

حيـث الملائكــة احتلـت مشـــاهــدهـم لها على الحل والتعـــريـــج إدمـــان

الى أن يقول مبيناً مكانة نزوى في الإسلام :

رست بها هضبة الإسلام من حقب — وإن قضت باستتار العدل أحيان

قديمة الذكر عاذ الدين عائذها — من يوم أصبح توحيد وقرآن

قامت بها قبة الإسلام شامخة — حتى تواضع بهرام وكيوان

ولم تزل عرصة للعدل عاصمة — للاستقامة فيها الدهر سلطان

كم أشهر الله فيها من حسام هدى — كأنها لسيوف الله أجفان

وتتضح أهمية مقدمة النونية عند أبي مسلم إذا ماعرضنا لنونية أبي البقاء الرندي لنرى كيف يشترك الاثنان في التمهيد للوصول الى الغرض والغاية.

٢ ـ بين المقدمة والموضوع عند أبي البقاء :

إذا كان أبو مسلم البهلاني قد عبر عن حزنه العميق وألمه الدفين بالسهر الدائم وبصورة عينه وهي تسح الدموع التي انهمرت كالمطر الذي أهاج البرق سحائبه، في مقدمة طويلة تعكس مساحة حزن الشاعر الكبيرة الممتدة من بلاد الغربة إلى الوطن الأم، فعبر عن ذلك بقوله :

إن هيج البرق ذا شجو فقد سهرت — عيني وشبت لشجو النفس نيران

وصير البرق جفني من سحائبه — يا برق حسبك ما في الأرض ظمآن

إذا كان هذا حال أبي مسلم في مقدمته، فان أبا البقاء الرندي قد لجأ إلى أسلوب آخر للتعبير عن حزنه العميق وألمه الدفين للتخفيف عن نفسه الملتاعة المكتظة بمشاعر الحسرة والأسى على ديار من الإسلام خالية، حينما حلت الحالقة فأتت على كل شيء فلم تبق أركان وخلت من الدين أقطار وبلدان.

لقد ضاعت الأندلس وأصبحت دياراً غريبة عن الجسم الإسلامي فلم يعد يرتفع في أرجائها صوت أذان وتحولت مساجدها إلى كنائس فيها نواقيس وصلبان، وأي مصيبة بل أي فجيعة أكبر من ضياع الإسلام وديار المسلمين ومع استحالة العزاء والسلون لهذا المصاب العظيم، فقد لجأ أبو البقاء الرندي في مقدمة نونيته إلى استخلاص العبرة والعظة من أحداث التاريخ فضرب المثل بالممالك الزائلة والملوك العظام الذين بادوا متسائلاً عن مصيرهم ومصير ممالكهم وما آل اليه حالهم ليخلص في النهاية إلى حقيقة مؤداها أن الكل الى زوال وأن الجميع سيرحلون مهما امتد بهم الأجل وطالت أعمارهم وعظمت سطوتهم واتسع

ملكهم، فكأن أبا البقاء يحاول أن يجد العزاء لنفسه وللمسلمين بقوله إن كل أمر اذا ما تم سيصيبه النقصان لأن الأيام دول، ومن سره زمن ساءته أزمان. هذا هو التاريخ يشهد على ذلك وهاهي أحداثه تقدم البراهين، واذا كان هذا هو حال الأيام التي لا تديم سروراً، وهذا هو الدهر الذي لايبالي برضى أحد فان ما حل بالأندلس هو أمر حتمي ونتيجة طبيعية للإيذان بالزوال بعد البلوغ والكمال. ومن هنا كانت مقدمة أبي البقاء في نونيته صورة منطقية لدوران عجلة التاريخ وحوادث الأيام. ويصرح الشاعر بذلك في مقدمته بدءاً من أول بيت فيها(١٧) :

لكل شيء اذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان

هكذا جاء مطلع القصيدة حكمة عامة أو مجموعة من أشعار الحكمة استخلصها من عبر التاريخ فكان الإطار اطاراً عاماً انتقل بعده الشاعر من العام الى الخاص(١٨) ليحدد الزمان والمكان. أما في اطاره العام فيسير أبو البقاء مع أحداث التاريخ ليتخذها مجالاً لاستخلاص العبرة والعظات :

أين الملوك ذوي التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان؟!
وأين ما شاده شداد في إرم	وأين ما ساسه الفرس ساسان؟!
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان؟!
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك	كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله	وأم كسرى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب	يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة	وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها	وما لما حل بالإسلام سلوان

(١٧) نفح الطيب ٦/ ٢٧٩

(١٨) ملامح الشعر الأندلسي ٣١٢

وهكذا نـرى أن هذا التمهيد مرتبط ارتبـاطاً عضويـا بموضوع القصيدة والغـرض الذي نظمت من أجله، وقد رأينا كيف أتى أبو مسلم البهلانى بمقدمة وتمهيد للوصول إلى الغرض الرئيس من نـونيته، فكانت مقـدمته أيضاً مـرتبطة ارتباطاً عضـوياً ومنطقياً بما تـلاها من أغراض.

بعد ذلك ينتقل أبو البقاء من العام إلى الخاص فحدد الـزمان والمكان واصفاً ما حل ببلاد الأندلس من محنة وبلاء ذاكراً البلاد المنكوبة التي سقطت في أيدي الفرنجة (فيعددها واحدة واحدة شأن من يفقـد أعزة عليه فيسميهم بأعينهم ويعرب عن فجيعتـه بهم. وأبو البقاء يحرص حرص أمثاله من الشعراء في هذا الصدد على إبـراز التضاد بين ما كانت البلاد عليه وما آلت اليه)[19] :

دهـى الجزيـرة أمـر لا عـزاء لـه	هـوى لـه أحـد وانهد ثهـلان
أصـابها العين في الإسـلام فـارتـزأت	حتـى خلـت منـه أقطـار وبلـدان
فـاسأل بلنسيـة ما شـأن مـرسيـة	وأيـن شـاطبـة أم أيـن جيـان ؟
وأيـن قـرطبـة دار العلـوم فكـم	مـن عـالم قـد سما فيهـا لـه شـان ؟
وأيـن حمص ومـا تحويـه مـن نـزه	ونهرهـا العـذب فيـاض ومـلآن ؟
قـواعـد كـن أركـان البـلاد فما	عسـى البقـاء اذا لم تبـق أركـان

كما يلجأ أبـو البقاء الى الاستنفار والاستنهـاض عله يحرك نخـوة المسلمين فيستغضبهم ويستنهضـهم لعلهم يصحون مـن سباتهم ويتخلون عن تقاعسهم وهـو في كل ذلك يلجأ الى تذكيرهم بالرابطة الإسلامية التي تربطهم بإخوانهم الأندلسيين وبالأخوة الدينية التي تؤلف بين قلوبهم مصوراً الحالـة التي آل اليها الإسـلام والمسلمون في تلك الـديار فلجأ كي يحقق هذا الغـرض إلى رسم لوحة معبرة للمصيبة التـي لا تنسى لقد نجح الشاعـر في عمله الفني فجاءت الصورة مجسمة لهول الفجيعة وفداحة الخطب واذا بالمصيبة تبدو شاكية باكية :

تبكـي الحنيفيـة البيضـاء من أسـف	كمـا بكـى لفـراق الإلـف هيمان
على ديـار من الاسـلام خـاليـة	قـد أقفـرت ولها بـالكفـر عمـران

(١٩) المرجع السابق ٣١٣– ٣١٤

حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة	إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه	أبعد حمص[20] تغر المرء أوطان ؟!
تلك المصيبة أنست ما تقدمها	وما لها مع طول الدهر نسيان

أما صورة الإستنهاض عند أبي البقاء فتظهر بطريقة أوضح عند بيان صورة الاستنهاض عند أبي مسلم من خلال الحديث عن بعض الجوانب الفنية في نونيته

جوانب فنية في نونية أبي مسلم :

مما لاشك فيه أن أبا مسلم قد جمع لقصيدته النونية كل عوامل النجاح والتفوق من عناصر الفن ومقومات الصناعة الشعرية فجاءت متكاملة الجوانب حينما صيغت بقوالب الشاعرية المتدفقة التي اتخذت من الإدراك والمهارة مجالاً خصباً للإجادة والامتياز. وقد كان نجاح الشاعر عظيماً في عمله وأدائه، ولا أدل على ذلك من تلك الشهرة التي حظيت بها هذه النونية والمكانة المرموقة التي نالتها في ديوانه حتى ليمكن تسميتها بـ «يتيمة أبي مسلم» . وقد تناقلتها الألسنة فطربت لها الآذان وسارت بها الركبان إلى خارج أرض عُمان مما جعل صاحب شقائق النعمان يقول عنه[21] (كما انه نبغ في الشعر وفاق فيه على أقرانه، وهذا الشيخ هو ثالث الثلاثة المترجم عنهم أنهم أعلم الشعراء وأشعر العلماء، وقد سار الصيت بقصائده مسير الشمس ولو لم يكن من شعره إلا النونية والمقصورة لكانت بهما كفاية وغنى).

إن أول ما يميز نونية أبي مسلم هو الصدق الفني حيث عبر عن عواطفه ومشاعره بصورة هي أصدق ما تكون، ومرد ذلك يرجع إلى إحساس الشاعر وإيمانه بما يقول وبما تمليه عليه التزاماته الوطنية والدينية. فأبو مسلم شاعر وطني مسلم رفع لواء الوطنية عالياً وحمل مشعل الإسلام ونادى بوحدة المسلمين وطالب بنبذ الفرقة والخلاف. وإذا كان الصدق والإخلاص نابعين من نفس الشاعر الذي يؤمن بقضية ومبدأ، كان عمله الشعري أكثر نجاحاً وأشد تأثيراً، وهذا ما نجده في شعر شاعرنا أبي مسلم الذي آمن بوحدة الأمتين العربية والإسلامية واتخذها قضية حشد لها كل الزخم الفني الذي انعكس في قصائده

(٢٠) المقصود بحمص هنا مدينة إشبيلية.

(٢١) ٢ / ٣٤٧

الوطنية ومنها النونية التي نحن بصددها.

لقد كان أبو مسلم ينتمي إلى جماعة الشعر الديني والوطني ممن نادوا بتحرير الوطن العربي والأمة العربية من النفوذ الاستعماري.

ومن هنا جاءت قصائده الوطنية والدينية تحمل طابع الاستنهاض وكان لها وقع بالغ الأثر على النفوس. ولتحقيق هذا الهدف، كان لابد من الالتفات إلى المصائب الوطنية والدينية التي ابتلي بها العالمان العربي والإسلامي وأخذ العبرة منها ومحاولة (محاكاة النماذج الأصيلة في الأدب العربي)[٢٢] . ومن هنا جاءت هذه النونية محاكاة لنونية أبي البقاء الرندي.

لقد نجح الشاعر منذ البداية في حشد كل العناصر الفنية اللازمة لنجاح عمله من جزالة في الأسلوب وقوة في اللغة إلى إيقاع ورنين في القافية ثم طول نفس من غير ضعف أو تقصير.حيثلجأ أبو مسلم الى توظيف كل هذه الأمور الفنية بدءاً من مطلع القصيدة حينما قام بتوظيف المعاني والمفردات توظيفاً فنياً دقيقاً ليرسم لنا صورة متحركة تعكس الحركة الثائرة في داخل نفسه :

تلك البوارق حاديهن مرنان	**فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان**
شجت صوارمها الأرجاء واهتزعت	**تزجي خميساً له في الجو ميدان**
تبجست بهزيم الودق منبثقاً	**حتى تساوت به أكم وقيعان**
سقى الشواجن من رضوى وغص به	**سر وجوف وغصت منه جرنان**
وجلل السهل والأوعار معتمداً	**ربوع ما ضم عندام وجعلان**

إن هذه الصورة الجميلة التي رسمها الشاعر تفيض بالحركة النابضة التي تعكس الحركة الداخلية في نفس الشاعر، ونلاحظ هذه الحركة في البروق التي تصبح ركباً متحركاً يسوقه حاد يغني بصوت كله زنين، والبرق يتبعه الرعد فإذا أرجاء الكون تهتز ويصبح الجو ميداناً فسيحاً لجيوش البروق والرعود المتمثلة بالأمطار الغزيرة التي لا تلبث أن تداهم الأرض فتغمرها وتغطيها في السهول والأوغار.

لقد عمد الشاعر إلى أن يفجأ سامعيه بصورة متحركة تشع قوة وتمتلىء حيوية فتتحرك حواسهم ونفوسهم للمتابعة والاستمرار ليتمكن من نقلهم إلى صورة أخرى من مشاهد

---

(٢٢) الشعر العُماني ـ مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية.

قصيدته. ويلاحظ أن مقدمة أبي مسلم هذه هي أشبه ما تكون بمقدمات القصائد الجاهلية من حيث الأسلوب واستخدام المفردات. وليست هذه هي المقدمة الوحيدة في ديوانه التي يأتى فيها الشاعر بمقدمة تشبه من حيث الشكل مقدمات الجاهليين، وانما نلحظ ذلك في مقدمة ميميته المشهورة[٢٣] :

معاهد تذكاري سقتك الغمائم	ملثاً متى يقلع تلته سواجم

فالمطلع هنا شبيه بمطالع الجاهليين في الوقوف على الأطلال والدعاء بالسقيا للأحبة والديار. ويتضح هذا الأسلوب في الأبيات التالية للمطلع :

تعاهدك الأنواء سح بعاقه	فسوحك خضر والوهاد خضارم
إذا أجفلت وطفاء حن حنينها	على فنن الأوعار وطف روازم
ولا برحت تلك الرياض نواضراً	تضمخها طيب السلام النسائم
تصافحها بالزاكيات أكفها	فيحسب فيها والرياض تراجم
معاهد شط البعد بيني وبينها	وحل بقلبي برحها المتقادم
تزاحم في روعي لها شوق واله	وصبر وآن الصبر أن لا يزاحموا
اذا لاح برق سابقته مدامعي	وليت انطفاء البرق للغرب عاصم
لئن خانني دهري بشحط معاهدي	فقلبي برغم الشحط فيهن هائم
وإن هيام القلب فيها وقد نأت	وسائل في شرع الهوى ولوازم
فيالفؤادي ما التباريح والجوى	فعلن إذا ازدادت عليه اللوائم
على أن ذكر النفس عهداً ومعهداً	أمض بها مما تمج الأراقم

ويلاحظ في هذه الأبيات أن أبا مسلم قد رسم لوحة أخرى تنبض بالحيوية شبيهة بتلك التي رسمها في مقدمة نونيته مع ذكر الجزئيات نفسها المتعلقة بحركة البرق في السماء وما تؤذن به هذه الحركة من انهمار للمطر فتسبقه مآقي الشاعر لتذرف الدموع حزناً على اغترابه عن معاهده وتعبيراً عن هيامه بالديار وساكنيها، لأن ذكر العهد الجميل في المعهد الجميل بعد نأي وانقطاع يخلف وراءه ألماً وأسى أمض مما تمجه الأفاعي من سموم.

(٢٣) ديوانه ٣١٦.

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الشاعر في مدح الأئمة وما أسبغه عليهم من صفات دينية تتمثل في التقوى والتهجد في الليل وفي عدلهم واستقامتهم وغناهم بالتعفف عن كل ما هو دنيوي زائل شبيه بأسلوب أبي حمزة الشاري في خطبته بأهل المدينة حينما ذكر أصحابه فأثنى عليهم وامتدحهم بما يتصفون به من ابتعاد عن الشر وإحجام عن الباطل فقد باعوا الدنيا الفانية واشتروا بها الآخرة الباقية فقد كانت صلتهم بالله -تعالى- هي شغلهم الشاغل فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا موفين بعهده منجزين لوعده فقال فيهم مصوراً ايمانهم وتقواهم(٢٤) :

(شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهر، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، قد نظر الله اليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وأيديهم ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، مستقلون لذلك في جنب الله موفون بعهد الله منجزون لوعد الله). هذه هي صورة أصحاب أبي حمزة التي تعتبر صورة مثالية لشباب الإسلام.

أما أبو مسلم فقد سار على المنهج نفسه في بيان صفات الأئمة الذين وصفهم بأنهم أواهون زهاد وهم هداة همهم حفظ الدين يتسابقون إلى الباقيات الصالحات يسيرون بسيرة العمرين، وقد جردوا أنفسهم لنصرة الله وقدموا أرواحهم ثمناً لهذا النصر، وهم يتسابقون إلى الخيرات تهديهم اليها السنة الشريفة، لم تشغلهم الدنيا بمتاعها فباعوها لأنها فانية طلباً للدار الباقية، ثم ذكر أنهم يقيمون حدود الله في حكمهم قبل أن يقول فيهم ما قاله أبو حمزة الشاري في أصحابه حين ذكر قيامهم في الليل وتهجدهم حتى أنحلهم هذا القيام فأصبحوا مثل الخيال. حيث جاءت الصورة معبرة عن التفاصيل(٢٥) :

أئمة حفظ الدين الحنيف بهم ... من يوم قيل لدين الله أديان

صيد سراة أباة الضيم أسد شرى ... شمس العزائم أواهون رهبان

سفن النجاة هداة الناس قادتهم ... طهر السرائر للإسلام حيطان

---

(٢٤) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٧٥,

(٢٥) الديوان ٣٠٢ ـ ٣٠٣

تقيلــوا مــدح القـــرآن أجمعهـــا ... اذا استحـــق مــــــديـــح الله إيمان

على الحنيفيـــة الــــزهـــراء سيرهـم ... والــوجــه والقصــد إيمان وإحســان

بسيرة العمــرين استــلأمـوا وسطــوا ... لشربـــة النهــر وان الكـل عطشـــان

مســـــــومين لنصر الله أنفسهـــم ... أرواحهـم في سبيـل الله قـــربـــان

سيماهـُم النـــور في خلــق وفي خلـق ... وهـــديهم سنـــة بيضـــاء تبيـــان

لم تلههـم زهـرة الـدنيـا وزخـرفهـا ... إذ همهـم صـالـح يتلــوه رضـوان

بـاعـوا ببـاقيـة الـرضـوان فـانيهم ... كـأن لـــذة هـــذا العيش أوثـــان

مـا زايلت خطـوة المختـار خطـوتهم ... ولا تثنــى عــزمهـم نفـس وشيطــان

فجـاهـدوا واستقـامــوا في طـريقتـه ... عــزومهــم لصروح الـــديـــن أركــان

وسلطـــوا بحــــدود الله حكمهـــمُ ... حتــى استقـامــوا لحكـم الله سلطــان

للـــه مــا جمعــوا للـــه مــا تــركــوا ... للـــه إن قـــربـــوا للـــه إن بـــانـــوا

وهكـذا نرى التشـابه في الصـورتين عنـد أبي حمزة الشاري وأبي مسلم البهـلانى، ولا غرابة في هـذا فقد كان كل منهما ينطق بلســان العقيدة والإيمان ويحمل لواء التأييـد للدعوة التي ينادي بها.

إن الصورة التي رسمها أبـو مسلم لأئمة عُمان تحمل أطيافاً من صورة الصحـابة الذين امتدحهم كعب بن زهير في لاميته المشهورة(٦٢) :

بـــانـت سعـــاد فقلبـي اليـــوم متبـــول ... متيـم إثـــرهـــا لم يفـــد مكبـــول

وقد استلم ابومسلم هذه الأطياف وقام بصبغ لوحته ببعض ألوانها . يقول كعب:

إن الـــرســـول لنـــور يستضـــاء بـــه ... مهنــــد مـن سيـــوف الله مسلـــول

في عصبــة مــن قــريـش قــال قــائلهـم ... ببطــن مكـــة لما أسلمـــوا زولـــوا

زالـــوا فما زال أنكـــاس ولاكشـــف ... عنـــد اللقـــاء ولا ميـــل معـــازيـــل

لا يفــرحـــون اذا نـــالـــت رمـــاحهـــم ... قـــومـــاً وليســـوا مجازيها اذا نيلـــوا

---

(٦٢) أنظر القصيدة في ديوانه ٦ وفي مجالي الأدب ٢/١١-١٦

أما صورة تأييد أبي مسلم للإمامة وإظهار حبه لأئمته فقد جاءت بأسلوب صريح أعلن فيه حبه وتأييده للأئمة والإمامة في عُمان مصرحاً بقوة بهذا التأييد معلناً أنهم أنوار الهدى وأن محبتهم فرض واجب يعقبها عفو وغفران من الله -تعالى- وهم المستغاث بهم في الضيق والضياع، كما لايصح إيمان امرىء إلا باتباعهم ولا يستقيم هداه إلا أن يدين بما دانوا به [٢٧]:

أولئك القوم أنواري هديت بهم	عقبى محبتهم عفو وغفران
أئمتي عمدتي ديني محجتهم	غوثي إذا ضاق بي في الكون إمكان
لايقبل الله ديناً غير دينهمُ	ولايصح الهدى إلا بما دانوا
من عهد بدر وأحد لاتزعزهم	عن موقف الحق أزمات وأزمان
حقيقة الحق مادانوا به وأتوا	وما عداه أخاليط وخقان
إن يشرف الناس في الدنيا بثروتهم	فثروة القوم إخلاص وإيقان
هم الإباضية الزهر الكرام لهم	بعزة الله فوق الخلق سلطان

إن هذا الإعلان المؤيد للإمامة والتصريح العلني بإظهار الحب والتأييد للأئمة في عمان يحمل في طياته نغمة هي أقرب ماتكون من نغمة الشعر الذي قيل في حب آل البيت، وكأنما أعجب أبومسلم بأسلوب الفرزدق في مديحه لآل البيت وحبه لهم، فقد صرح الفرزدق من قبل بحبه وتأييده لآل النبي -عليه الصلاة والسلام- في قصيدة أنشدها أمام هشام بن عبد الملك ومطلعها [٢٨] :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم

إن الذي يجعل الدارس يقرب من مرحلة تأكيد تأثر أبي مسلم بالفرزدق هو تشابه الصورتين عند كل منهما، فقد جاء أبومسلم بصورة قريبة جداً من صورة الفرزدق التي أعلن فيها حبه وتأييده لآل البيت حتى أننا نجد مفردات بعينها وردت عند أبي مسلم كان الفرزدق قد وظفها في قصيدته؛ ناهيك عن المعاني التي اشتملت عليها الأبيات والتي يتضح من خلالها تأثر ابي مسلم بأبيات الفرزدق التالية في مدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ومدح آل البيت (٢٩)

(٢٧) الديوان ٣٠٣

(٢٨) انظر القصيدة في ديوانه ٢/١٧٨ - ١٨١

(٢٩) المرجع السابق

هــــذا ابـن خير عبــــاد الله كلهــم	هــذا التقـي النقـي الطــاهــر العلـم
سهـل الخليقـــة لا تخشــي بـــوادره	يـزينـه اثنــان : حسن الخلـق والشيم
حمالِ أثقـــال أقــوام إذا افتــدِحـــوا	حلــو الشـــمائل تحلــو عنــده نعـم
إذا رأتـــه قــريـش قـــال قـــائلهـــا	إلى مكـــارم هـــذا ينتهـي الكــــرم
يغضي حيــاء ويغضـى من مهــابتــه	فما يكلـــــم إلا حين يبتســـــم
اللـــه شرفـــه قـــدمـــا وعظمـــه	جــرى بـذاك لـــه في لــوحــه القلـم
مـن يشكــر اللـــه يشكـر أوليّـــة ذا	فـــالـديـن من بيـت هـذا نــالـه الأمـم
مشتقـــة من رســـول اللــه نبعتـــه	طــابـت مغــارســه والخيـم والشيـم

بعد هذا المديـح الذي زين به الفرزدق جيـد زين العابدين ينتقل إلى ذكر آل البيـت مادحاً إياهم منادياً بحبهم معلناً تأييده لهم، ونلحظ التشابه بين مـديح الفرزدق لآل البيت ومديح أبي مسلم البهلاني للأئمة الإباضيين الذين أعلن ولاءه وتأييده لهم . يقول الفرزدق :

مــن معشر حبهــم ديــن، وبغضهــمُ	كفـــر ، وقــــربهمُ منجـى ومعتصـم
مقـــدم بعـــد ذكـــر الله ذكـــرهـمُ	في كـل بـــدء ومختــــوم بــــه الكَلِـم
إن عُـدَّ أهـل التقـى كــانـوا أئمتهـم	أو قيل: «من خير أهل الأرض؟» قيل: هم
هـم الغيـــوث إذا مـــا أزمـــة أزمـت	والأسـد أســد الشرى والبأس محتــدم
يستــــدفـع الشر والبلـــوى بحبهـُم	ويسترّب بــــه الإحســـان والنعـــم

إن أسلوب ابي مسلم في هذا المجال والذي يشبه أسلوب الفرزوق إلى حد ما يدل على أن أبا مسلم قد أوتى حظاً كبيراً من الاطلاع على التراث الأدبي لكبار الشعراء في مختلف عصورهم فتمثله ووظفه توظيفاً فنياً رائعاً في سبيل نجاح عمله الشعري.

أما أسلوب أبي مسلم في النداء الوطني والاستنهـاض، فشبيه بأسلوب أبي البقاء الرندي الذي لجأ إلى مناداة المسلمين واستنفار فرسانهم المسلحين بـالسيوف المرهفة لكنهم يرتعون في أوطـانهم في دعة وأمـان لا تحركهم نخـوة إسلاميـة ولا رابطـة دينية وكأن القضيـة لا تعنيهم من قريب ولا من بعيد.

والرندي عندما يجسم ويشخص المصيبة الهائلة التي حلت بالأندلس المسلمة وبأهلها من المسلمين إنما يحاول أن يثير في المسلمين روح الجهاد مؤكداً حقيقة الرابطة الدينية التي تؤلف بين المسلمين والتي هي أقوى من أية رابطة أخرى ولذلك جاءت أبياته في نونيته تحمل نغماً من التقريع والسخرية من أولئك المتقاعسين الذين لم يهبوا لنجدة إخوانهم الأندلسيين الذين عظمت مصيبتهم في دينهم وأوطانهم؛ هذه المصيبة التي سارت بحديثها الركبان. ونلحظ هذا الأسلوب المتضمن للتقريع والتوبيخ عند أبي مسلم حينما يستنهض المسلمين للدفاع عن الحق والذود عن حمى الإسلام. يقول أبو البقاء[٣٠] :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ عن أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟!
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان !!
ماذا التقاطع في الإسلام بينكمُ	وأنتمُ يا عباد الله إخوان
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

ويستمر أبو البقاء في محاولته الاستنهاضية لذلك يلجأ إلى تصوير جوانب من الفاجعة التي حلت بالمسلمين الأندلسيين الذين ذلوا بعد عز وهانوا بعد رفعة فأصبحوا رقيقاً يباعون في سوق النخاسة، كما تفرق شملهم فحيل بين الابن وأبيه وبين الطفل وأمه، وانتهكت أعراضهم واغتصبت نساؤهم، وهم في كل هذا لا حول لهم ولا قوة؛عاجزون عن رد الأذى عن أنفسهم وأوطانهم؛وأما الطامة الكبرى فتمثلت في اكراههم على التنصر بعد أن كانوا مسلمين، وهكذا كانت المصيبة حالقة للدين لم تبق ولم تذر.

وأبو البقاء في تصويره هذا يحاول في صرخة استغاثة أخيرة أن يستنهض المسلمين ويحرك نخوتهم الإسلامة وروح الجهاد في نفوسهم إن كانت هناك نخوة اسلامية أو روح جهاد، يقول أبو البقاء مصوراً واقع المأساة الأندلسية :

---

(٣٠) نفح الطيب ٦ / ٢٨٠ ـ ٨١

يــا مــن لــذلــة قــوم بعــد عــزهــمُ	أحـــال حـــالهمُ كفـــر وطغيــان !!
بـالأمس كـانـــوا ملـوكــاً في منــازلهم	واليـــوم هــم في بـــلاد الكفـــر عبـــدان
فلـــو تـــراهــم حيـــارى لا دليـل لهم	عليهــم مــن ثيـــاب الـــذل ألـــوان
ولـــو رأيت بكـــاهــم عنـــد بيعهــمُ	لهالـك الأمـــر واستهــوتـك أحـــزان
يـــــارب أم وطفــل حيـــل بينهما	كمـــــا تفـــــرق أرواح وأبـــــدان
وطفلـــة مثل حســن الشمس اذ طلعـت	كانمـــا هـــي يـــاقـــوت ومـــرجـــان
يقــودهــا العلج للمكـــروه مكـــرهـــة	والعين بـــــاكيـــــة والقلـــب حيران
لمثـل هـــذا يـــذوب القلـب مـن كمـــد	إن كــــان في القلـــب إســـلام وإيمان

لاشك أن هذه الصورة الحية المؤلمة للمــأساة الأندلسية قد كانت في خواطـر شاعرنا أبي مسلم البهلانــي حينما نظم نونيتــه، فأضافت إلى نفسه الحزينة بعداً جـديداً من أبعاد الألم النفسي عبر عنه خير تعبير بأساليب شتى امتدت على مساحة قصيدته الطويلة.

إن هذا الأسلوب من أســاليب الاستنهاض الذي استخدمه أبــو البقار قد راق لأبي مسلم فنهج الطريقــة نفسها لما تفيده مــن قوة وتأثير ولما تفيده يــاء النداء في هذا المقــام من معنى الاستغاثــةوطلب النجــدة والتلبية.

وأبو مسلــم كأبي البقاء يحاول في أسلوبــه هذا أن يحث الرجال على الجهــاد وأن يحفظوا أوطانهم ودينهم حيــث لا وطن يبقى بعد ضياع الــدين; وهذا معنى مستمــد من معانى أبي البقــاء الرنــدي. كما يطلــب أبو مسلــم في استنهــاضه للقــوم أن يحفظــوا مجدهم ويحركـوا شهامتهم وغيرتهم على الــدين فينتصروا لله ويهبوا بعد سبات وتخاذل، كما حــاول أن يرسم لهم صورة مؤثرة لونها بأصوات الأرامل والأيتــام متخذاً من دماء المسلمين أساساً لها، وهي صــورة قريبــة من صــورة أبي البقاء التــي رســم فيها حــال المسلمين الأندلسيين والمأســاة الأندلسية. يقول أبو مسلم :

يــا للـــــرجـــال وداعــي اللـــه بينكـمُ	لبـــوا الــدعـــاء فـــان الصــوت قـــرآن
يـــا للـــرجـــال ألم يـأن الجهـــاد لكـم	بلى لقـــــد فـــــات إبـــــان وإبـــــان
يـــا للــــرجـــال أقيمـــواً وزن قسطكـمُ	فما لكـم قبـــل وزن القســط ميـــــزان
يـا للـــرجـال احفظـــوا أوطـان ملتكـم	فما لكــم بعـــد خــذل الــديـن أوطــان
يـا للـرجـال احفظـوا أحســاب مجدكمُ	إن لم تكــن فيكـم للـــــديـن أشجـــان

يا للرجال اندبوا لله غيرتكم فالوقت قد ضاق والتثبيط خسران !

يا للرجال ألا لله منتصر فناصر الله لا يعروه خذلان !

يا للرجال أروني من شهامتكم إن الحوادث آساد وسيدان !

يا للرجال اجعلوا لله نجدتكم فالغاية الفتح أو موت ورضوان !

يا للرجال ألم يحزنكمُ زمن طار البغاث به وانحط عقبان !

يا للرجال ألم يدهش عقولكمُ صوت الأرامل والأيتامُ إذ هانوا !

هذا اليتيم قد انحازت مفاصله من جلبة الجوع والظلامُ تُخْمان

يا للرجال بيوت الله قد هدمت وممالها للعدا نهب وحلوان !

يا للرجال دماء المسلمين غدت هدراً كما عبثت بالماء صبيان !

إن هذا الأسلوب من أساليب الاستثارة والاستنهاض المتمثل باستخدام (الياء) كأداة للنداء، قد كرره أبو مسلم في نونيته ولكن باستخدام أداة الاستفهام (أين) التي استخدمها أبو البقاء الرندي في نونيته كاستفهام يفيد العبرة والعظة في قسم من قصيدته بينما يفيد التحسر والتفجع في قسم آخر. ففي استخدام هذه الأداة للإفادة من العظات والصبر يقول أبو البقاء(٣١) :

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهمَ أكاليل وتيجان ؟!

وأين ما شاده شداد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان ؟!

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان ؟!

أما استخدامها لتفيد الحسرة والتوجع والتفجع فنجدها في أبياته التي يرثي فيها مدن الأندلس الضائعة بنغمة باكية كلها ألم وأنين(٣٢) :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان ؟!

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان ؟!

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن ؟!

---

(٣١) نفح الطيب ٦ / ٢٧٩ (٣٢) المرجع السابق ٦ / ٢٨٠

وهكذا نجد أن الشاعر قد أفاد باستخدامه هذا من معنى الآية القرآنية الكريمة ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾(٣٣) .

أما عند أبي مسلم فقد جاء استخدام (أين) بمعنى مختلف تماماً حيث أفادت استثارة همم الرجال واستنهاض القبائل والدعوة للذود عن حمى الإسلام ونصرة الدين. يقول أبو مسلم(٣٤) .

فأين أين ذئاب العدو حمتها	بنو تمام ومن ربته جعلان ؟!
وأين عنها الجنيبيون إنهمُ	سعد العشيرة عليا مذحج كانوا ؟!
وأين راسب سيف الأزد إنهمُ	سارت بصيتهمُ في الأرض ركبان ؟!
وأين أهل الذمار الهشم بحرهم	بالمجد والفضل فياض وملآن ؟!
وأين أولاد عيسى والحفاظ لهم	نُجُدٌ ضراغمُ أوّاهون رهبان ؟!
وأين يحمدها الحرث الكرام ففي	عزائم القوم جنات ونيران ؟!

ويستمر أبو مسلم في هذا الأسلوب من أساليب الاستنهاض ليصل عدد أبيات قصيدته التي استثار فيها القبائل والأحياء إلى ثمانية وثلاثين بيتاً وهي نسبة تقرب من عشرة في المائة من مجموع أبيات القصيدة، وهذا يدل على مدى تغلغل الروح الوطنية والدينية في نفس الشاعر.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه الأبيات من القصيدة تعتبر سجلاً خالداً لأسماء القبائل والأحياء العمانية ببطونها وأفخاذها.

وإذا كان أبو البقاء الرندي قد لجأ الى أسلوب تعنيف المسلمين لتخاذلهم وتقصيرهم تجاه اخوانهم في الأندلس واتخذ من أسلوب تصوير المأساة الأندلسية وسيلة لتحريك الهمم وبث روح الجهاد، فان أبا مسلم قد لجأ الى الأسلوب المباشر في المناداة واستثارة الهمم للدفاع عن دين الله وديار الإسلام والذود عن الحنيفية البيضاء(٣٥) :

كتائب الله ذودوا عنه حياضكمُ	كي لا يهدمها بغي وكفران
كتائب الله حاموا عن حنيفتكم	قد لوثتها خنازير وصلبان
كتائب الله دين الله في طلق	والمشرفيات في الإيمان طلقان
كتائب الله أدعوكم الى شرف	عقباه إن تصدق النيات رضوان

(٣٣) القرآن الكريم ، الحاقة ٨ (٣٤) الديوان ٣٠٨ ـ ٣١١ (٣٥) الديوان ٢١٢

ويلاحظ أن أبا مسلم قد وظف في استثارته للحمية الدينية عبارات نجد مثيلاً لها في نونية أبي البقاء. فعلى سبيل المثال يقول أبو البقاء في تقريع المسلمين وتذكيرهم بالمصاب الإسلامي الأندلسي :

أعنـــدكم نبأ من أهل أنـــدلس فقـد سرى بحـديث القـوم ركبـان ؟!

أما أبو مسلم فيقول :

وأيـن راسب سيـف الأزد إنهـــمُ ســـارت بصيتهم في الأرض ركبـان ؟!

وفي بيت آخر يقول أبو البقاء في الحسرة على ضياع مدينة إشبيلية :

وأيـن حمص ومـا تحويـه مـن نـزه ونهرهـا العـذب فيـاض ومـلآن ؟!

أما أبو مسلم فيقول :

أيـن أهل الـذمـار الهشم بحـرهـمُ بـالمجـد والفضـل فيـاض ومـلآن ؟!

لقد جـاء أسلوب أبي مسلم في نونيته متسماً بـالقوة التى تغلب على كل أشعاره الـوطنية وبالفخامة والجزالة في الألفاظ التي كانت تنقاد له بيسر وسهولة دون عناء ولا أدل على هذه الجزالة والفخامة من استخدامه لألفاظ تتنـاسب مع المعنى الذي يضمنه أبياته حتى نجح في نقل سامعيه إلى جوه الذي حلق فيه وصب في آذانهم ايقاعات موسيقية مؤثرة تعكس الحالة النفسية للشاعر وتصور مدى الانفعال النفسي الذي كان يعتمل بداخله من حزن على ما كان بين المسلمين من فرقة وتنافر.

أما **القـافية** في هذه القصيدة والتي تنتهي بالألف والنـون، فقد اتخذ أبو مسلم من نونية أبي البقاء مثالاً حياً انتهجه كجانب مؤثر وفعال من جوانب القصيدة الفنية التي جمعت بين الحركة والإيقاع والعناصر الموسيقية الداخلية التـي تعكس المشاعر المتأججة في نفس الشاعر القلقة المتألمة.

إن العلاقة بين بحر القصيدة التي نظمت وبين موضوعها علاقة وطيدة ذات صلة حميمة بالموضوع وأعني بذلك أن يتوافق الإيقاع الداخلي في نفس الشاعر مع الإيقاع الخارجي الذي يظهر بشكل موجات صوتية متناغمة وذبذبات موسيقية في أرجاء القصيدة. لقد استخدم أبو

مسلم لنونيته ـ وقبله أبو البقاء ـ بحر البسيط وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وموسيقى هذا البحر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوع القصيدة عند الاثنين، فاذا عرفنا أن النغمة الموسيقية لهذا البحر توحي بالخطاب الموجه بلهجة عنيفة فيها شدة تارة وتحضيض تارة أخرى أدركنا مدى عمق الشاعرية في نفس الشاعر ومدى رهافة الحس الفني لديه ليتمكن من توظسف اللحن الموسيقي والرنين الايقاعي بصورة مؤثرة وفعالة.

إن الخطاب الشعري في قصيدتي أبي مسلم وأبي البقاء يتسم بالنداء والاستصراخ، ولذلك جاءت موسيقى هذا البحر لتواكب هذا النداء وذاك الاستصراخ بمعزوفات ايقاعية تترك أثراً كبيراً وصدى عميقاً في نفوس الذين يصغون اليها.

أما استخدام حرف النون وقبله الألف في قافية الشاعرين فله دلالة كبيرة ذات صلة وطيدة بموضوع القصيدتين. وحرف النون كما نعلم حرف جهري ذلقي أي مجهور متوسط أنفي يتسرب الهواء معه من الأنف من اللثة العليا مع امتداد النفس من الأنف، ومن هنا جاءت مراعاة الشاعر لقافية القصيدة، حيث وفق في اختياره لحروف الروي ليكون الحرف الأخير وليكون له موسيقى فيها ذبذبة صوتية متناسبة مع نغمات الحرف الطويل، ومن هنا كان أفضل هذه الحروف لموضوع القصيدة هو حرف النون الذي يتردد بأنفاس الأنف والحلق. ولا ننسى أن هناك أصواتاً تعبر عن الشجن في النفس ويبدو أن الشاعر قد تنبه الى ما في الألف والنون من تأثير موسيقي سماعي فوظفهما التوظيف المثالي في نونيته.

إن علاقة الصوت بالحالة النفسية عند المتكلم العادي هي علاقة احتمالية واعتباطية، أما عند المتكلم المبدع الواعي فتتسم بالعمق ولها دلالة نفسية وفنية.

إن وجود حرف الألف قبل الحرف الأخير في نهاية القافية قد مكن الشاعر من مد صوته بها وفي هذا راحة نفسية له من ذلك الألم النفسي المسبب عن احساسه بالغربة وشعوره بالأسى لما حل بأمته الإسلامية من فرقة وهوان.

إن طول القصيدة عند أبي مسلم لم يضعف من تأثير القافية كما أن مفردات قافيته تدل على غزارته اللغوية حيث تحتشد المفردات غزيرة بين يديه وتأتيه طواعية يختار منها ما يشاء مما يحتاجه موضوعه الذي ينظم فيه.

الصــــور الفنيـــــة :

إذا كانت المفردات اللغـوية المنتقاة تنقاد بيسر وسهولة لأبي مسلـم لينظم من لآلئها عقد روائعه الشعريـة، فإن الصور الفنية ما كـانت لتتأخر عن التدافع إلى خيالـه الشعري ليربط بينها وبين موضـوع القصيدة في وحدة وانسجام ويأتي بنـاء القصيدة نتيجة لذلك مـرتدياً ثوباً قشيباً من الجمال الفني والكمال البياني.

لقد برع أبو مسلم في دقة التصوير وتناسق الصـور الفنية فكان فناناً ماهراً يعرف كيف يرسم اللوحات الأدبية التي تعبر عن أحاسيسه وأفكاره.

لقد جـاءت نونيـة أبي مسلم مليئة بـالصور البيانيـة والمحسنات البـديعية. أمـا الصور البيـانية فأكثـر مـا تتضح بالاستعـارات التي وردت في بعض أبيـات القصيدة بينما تظهـر المحسنات البـديعية في توظيـف الطباق والمقابلـة والجناس وحسن التقسيم ومـراعاة النظير توظيفاً له أبعاد نفسية ودلالات معنويـة. ولا تكاد عين المرء تطالع البيت الأول حتى يبهرها جمال الصورة البيـانية فيه المتمثلـة بالاستعـارة البديعة حينما شبـه البروق بركب تسـوقه الحداة المنشدون فكان موفقاً غاية التوفيق فيما يسمى ببراعة الاستهلال :

تلك البــوارق حـــاديهن مرنـــان فمـــا لطــرفك يا ذا الشجو وسنان ؟!

ويتضح البعد النفسي في هذه الصـورة من خلال الأرق الذي أصاب الشـاعر ، هذا الأرق الذي كان نتيجة للمعـاناة النفسية بسبب البعد عن الأحبة والأوطان، والنأي عـن الديار فهو يبحث عن وسيلة للوصول فكان الخيال الشعري حافـزاً لرسم هذه الصورة المتحركة بركب المرتحلين وصـوت الحادي الذي يسير في مقـدمـة القافلـة. كما نلمح الاستعـارة وإيحاءاتها النفسية في البيت التالي :

إن هيج البرق ذا شجو فقد سهرت عيني وشبت لشـــجو النفس نيـران

لقـد أهـاج البرق وما سببه من أمطار أشجـان الشاعر فاشتعلت في نفســه نيران الشوق والحنين لـلأحبة والأوطـان. إنها صـورة معبرة عن لظى الحنين المضطـرم في نفسه والـذي تمخض عن سهر دائم وأنى لمشتاق أن يغمض له جفن أو أن ينام قرير العين.!!

كما نلمح بلاغة الاستعارة في إطار فني جميل حينما ذكر مدينة نزوى :

ما طــــار طــائرها لله محتسباً لــه جنــاحان إيقـــان وعرفـــــان

إنها صورة فنية معبرة عن مركز نزوى الديني وما تحتله من قدسية بين سائر المدن، فقد جعل لها طائراً يطير بجناحي اليقين والعرفان.

وكما برع أبو مسلم في استخدام الصور البيانية، فقد برع أيضاً في استخدام المحسنات البديعية التي أضفت ظلالاً بهيجة على اللوحة الفنية للقصيدة وأضافت بعداً آخر عميقاً لمعاني القصيدة وإيحاءاتها. فعلى سبيل المثال نجد أن أبا مسلم يلجأ الى استخدام الطباق والمقابلة لزيادة الإيضاح وتأكيد المعنى. والمعروف أن الطباق هو الجمع بين ضدين[٣٦]، والضد يظهر حسنه الضد، ومن أمثلته في نونية أبي مسلم:

يا برق حرك همومي إن تكن سكنت　　　فكل حظي تحريك وإسكان

حيث جاء الطباق في «حرك» و «سكنت» في الشطر الأول بينما بدا واضحاً في لفظتي «تحريك» و «إسكان». ولابد من التأكيد على أن هذا الأسلوب البديعي لم يرد هنا كحلية لفظية لا معنى لها، وانما عمد الشاعر الى تصوير الحالة التي كان يعانى منها فهو متململ لايقر له قرار، ولذلك أتى بلفظتي «تحريك» و «إسكان» في الموقع المناسب للتعبير عن حالة نفسية معينة.

وما يقال عن توظيف الطباق، يمكن أن يقال عن توظيف المقابلة وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب[٣٧] كما في البيت السابق.

أما الجناس فنجده في أبيات متفرقة من القصيدة وقد استخدمه الشاعر بهدف التوضيح ووظفه توظيفاً فنياً جميلاً لأن الجناس يعني التماثل بين لفظتين في معنيين مختلفين، ومن أمثلته مما قاله أبو مسلم :

مقيدون بحكم الله حكمتهم　　　وهمهم حيثما كان الهدى كانوا

فهناك جناس ناقص بين لفظتي «حكم» و «حكمة».

كما أجاد أبو مسلم في استخدام لون بديعي آخر وهو حسن التقسيم او الترصيع حسبما ذهب إليه بعض البلاغيين، والمراد به في القصيدة تقطيع ألفاظ البيت الواحد من الشعر إلى أقسام تمثل تفعيلاته العروضية أو إلى مقاطع متساوية في الوزن[٣٨] ومثاله عند أبي مسلم قوله :

---

(٣٦) علم البديع ٧٦　　(٣٧) المرجع السابق ٨٦

(٣٨) المرجع السابق ١٣٩

لله ما جمعوا ، لله ما تركوا   لله إن قربوا ، لله إن بانوا

فالشاعر هنا يحاول استيفاء أقسام المعنى. ولايضاح هذا الجانب عند أبي مسلم يحسن ذكر مثالين معروفين : نجد الأول منهما عند أبي تمام في بائيته المشهورة في فتح عمورية حيث يقول في الخليفة المعتصم(٣٩) :

تدبير معتصم ، بالله منتقم   لله مرتقب ، بالله مرتغب

بينما نجد الثانى عند الخنساء في رائيتها المشهورة التي ترثي فيها أخاها صخراً وتذكر فيها مناقبه(٤٠) :

حمال ألوية، هباط أودية   شهاد أندية ، للجيش جرار

نحار راغية ، ملجاء طاغية   فكاك عانية ، للعظم جبار

ومن شواهد حسن التقسيم الأخرى التي وردت عند أبي مسلم :

صعب شكائمهم، سحب مكارمهم   إن حاربوا صعبوا ، أو أكرموا هانوا

شم إذا حزموا، نار إذا عزموا   شهب إذا رجموا ، للفضل هتان

وكما أحسن شاعرنا في استخدام هذا اللون البديعي، فقد برع في استخدام لون بديعي مختلف وهو مراعاة النظير الذي يفيد التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة، أي أن يجمع الشاعر بين أمر وما يناسبه(٤١) . ومثاله في نونية أبي مسلم :

صيد ، سراة ، أباة الضيم ، أسد شرى   شمس العزائم، أواهون ، رهبان

كما لم يفت أبا مسلم أن يستمد من القرآن الكريم معيناً لا ينضب يقتبس منه آيات كريمة ليضمنها في أبياته بهدف تقوية المعنى وإلباسه ثوباً زاهياً من الفخامة البلاغية التي يعتبر القرآن الكريم مصدرها الرئيس. ومن أمثلة أقتباسه لبعض معانى القرآن الكريم ما

---

(٣٩) الديوان ١٥   (٤٠) الديوان ٤٩

(٤١) علم البديع ١٧٩

نجده في الأبيات التالية :

جـدوا إلى البـاقيـات الصـالحات فلـم يَفتَهَـمَ في التقـى سر وإعـلان

حيث نجد في الشطـر الأول اقتباساً من الآية الكـريمة ﴿والباقيات الصـالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾[٤٢] . أما في بيته التالي :

مضـوا وآثـارهـم نـور وذكـرهـمُ رحمى ومضجعهم روح وريحـان

فنجد في نهايـة الشطر الثانى اقتباسـاً من الآية القرآنيـة ﴿فأما إن كان من المقـربين. فروح وريحان وجنة نعيم﴾[٤٣] . كما تتضمن الأبيات التاليـة معـانى قـرآنية مقتبسـة من آيات كريمة :

يختص مـن شاء بـالـرحمى ويصرفهـا عمـن يشـاء وفي الحكمين رحمن
يـا للـرجـال أقيمـوا وزن قسطكـمُ فما لكـم قبـل وزن القسـط ميـزان
إن تنصروا اللـه ينصركـم فـلا تهنـوا فـالكفـر في المقـت والإسـلام رضـوان

ففي البيت الأول نجد اقتباساً من الآية القرآنيـة الكريمة ﴿يختص برحمته من يشاء﴾[٤٤] . بينما نجد في البيت الثـانى اقتباساً من الآيـة الكريمة ﴿وأقيموا الـوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾[٤٥] .
أما في البيت الثـالث فالاقتبـاس كان من الآية الكـريمة ﴿يا أيها الـذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[٤٦] .
لقد أضفت الصور البيـانية والمحسنات البديعية والاقتباسات القـرآنية جمالاً وروعة وتأثيراً على هذا العمل الرائع وتضافرت كل عوامل النجاح لتجعل من نونية شاعرنا الكبير عملاً فنياً مميزاً يستحق البقاء والخلود .

---

(٤٢) سورة الكهف ، ٢٦ (٤٣) سورة الواقعة ، ٨٨ ـ ٨٩ (٤٤) سورة البقرة ١٠٥ ، سورة آل عمران ٧٤
(٤٥) سورة الرحمن ٩٠ (٤٦) سورة محمد ، ٧

بقي أن أشير إلى أن أمير الشعراء أحمد شـوقي قد عـارض بدوره أيضاً أبـا البقاء الـرندي بقصيدته(٤٧) :

قم نـاج جلـق وانشد رسـم من بـانـوا مشـت على الـرسـم أحـداث وأزمـان

لكن معارضته هذه كـانت من باب المشاركة القومية فقد كان أميراً للشعـراء العرب ويدعوه الواجب إلى النهوض بالمسئوليات الملقاة على عاتقه كأمير للشعر العربي .
أما أبو مسلم فقد جاءت معارضته لأبي البقاء الرندي نابعة من حقيقة تجربة عاشها الرجل فجاءت نـابضة بالحياة ومعبرة عن أصـدق مشاعر الـوطنية والروح الإسلاميـة، حيث كان شاعرنا يحمل هموم أمته يفرح لفـرحها ويأسى لمصابها وآلامها ويشير إلى طريق الخلاص من هذه المصائب والآلام فكان كالطبيب الذي يجد العلاج لمرضاه ليبرأوا مما هم فيه.
وإذا كانت نونية أبي البقاء هي أشهر قصيدة أندلسية في رثاء الممالك الزائلة في الأندلس، فإن نونيـة أبي مسلم هي من أشهر قصائد الـوطنيات المشبعة بروح الاستشـارة والاستنهاض ولاغرابة في ذلك فقد كان الرجل يمتاز بشاعرية فذة انقادت له فيها أسرار الفصاحة والبيان إذ مـا كان يفـرغ من نظم قصيـدة حتى تتلقفهـا الآذان وتسير بها الركبـان فكان كما قـال المتنبي عن نفسه(٤٨) :

ومـا الـدهـر الا من رواة قصـائدي إذا قلت شعـراً أصبح الـدهـر منشـداً
فســار بـــه مـن لايسير مشمـــراً وغنـى بـــه مـن لا يغنـي مغـــرداً

---

(٤٧)الشوقيات ٢ / ١٠٠
(٤٨) الديوان ١ / ٢٩٠ ـ ٢٩١

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ البستانـي ، فؤاد أفرام : **المجاني الحديثة (عن مجاني الأب شيخو)** ، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٢

٣ ـ البهلانـي ، أبو مسلم نـاصر بن عديم الـرواحي : **الديوان** ، تحقيق عبدالـرحمن الخزندار، سلطنة عُمان، ١٩٨٦.

٤ ـ أبو تمام ، حبيب بن أوس : الديوان ، شرح وتعليق شاهين عطية، دار صعب، بيروت، (ب.ت).

٥ ـ الجروان ، محمد راشد : **رسالة إلى ولدي** ، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة، ١٩٨٥.

٦ ـ ابن حمديس ، عبدالجبار : **الديوان** ، صححه وقدم له : احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.

٧ ـ الخصيبي ، محمد بن راشد : **شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عُمان** ، الجزء الثانى، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٨٩.

٨ ـ الخنساء ، تماضر بنت عمرو : **الديوان** ، دار صادر ، بيروت ، (ب.ت).

٩ ـ درويش ، أحمد : **مدخل إلى دراسة الأدب في عُمان** ، دار الأسرة، دار المعارف ، ١٩٩٢.

١٠ ـ دعبيس ، سعد : **دراسات في الشعر العُماني** ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢.

١١ ـ الدقاق ، عمر : **ملامح الشعر الأندلسي** ، دار الشرق ، بيروت، ١٩٧٣.

١٢ ـ ابن دحيـة ، عمر بـن الحسن : **المطرب من أشعـار أهل المغرب** ، تحقيق ابراهيـم الأبياري وآخرين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤.

١٣ ـ ابن رشيق القيرواني ، الحسن : **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٥.

١٤ ـ الزيات ، عبدالله محمد : **رثاء المدن في الشعر الأندلسي**، جامعة قاريونس، ١٩٩٠

١٥ ـ الشكعـة ، مصطفى : **الأدب الأندلسي ـ موضوعـاته وفنونه**، دار العلم للمـلايين، بيروت ، ١٩٧٩.

١٦ ـ شوقي ، أحمد : **الشوقيات** ـ الجز الثانى ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (ب.ت).

١٧ ـ صفوت ، أحمد زكي : **جمهرة خطب العرب** ، المكتبة العلمية، بيروت ، (ب.ت).

١٨ ـ الصقلاوي ، سعيد : **شعراء عمانيون** ، مسقط ، ١٩٩٢.

١٩ ـ ضيف ، شوقي : **تاريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والإمارات (الأندلس)** ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩

٢٠ ـ الطائي ، عبدالله : **الأدب المعاصر في الخليج العربي** ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

٢١ ـ الطائي ، عبدالله : **شعراء معاصرون** ، مطبعة الألوان الحديثة ، مسقط، ط أولى، ١٩٨٧.

٢٢ ـ عباس ، إحسان : **تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين** ، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السابعة، (الطبعة الأولى ١٩٦٢).

٢٣ ـ عتيق ، عبدالعزيز : **علم البديع**دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥.

٢٤ ـ عطوان ، حسين : **مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي** ، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.

٢٥ ـ علي ، علي عبد الخالق : **الشعر العُماني ـ مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية** ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٤.

٢٦ ـ الفرزدق ، همام بن غالب : **الديوان** ـ الجزء الثانى ، دار صادر، بيروت، (ب.ت).

٢٧ ـ المتنبي ، أحمد بن الحسين : **الديوان** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١.

٢٨ ـ محمد ، عبدالرحمن حسين : **رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي حتى سقوط غرناطة**، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة، ١٩٨٣.

٢٩ ـ المقري ، أحمد بن محمد : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ـ الجزء السادس، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦.

٣٠ ـ ابن منقذ ، أسامة : **المنازل والديار** ، تحقيق مصطفى حجازي ، القاهرة، ١٩٦٨.

٣١ ـ وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان ١٩٦٨ : **فعاليات ومناشط المنتدى الأدبي** ـ حصاد أنشطة المنتدى لعام ٩١ ـ ١٩٩٢، اصدار يونيو ١٩٩١، مسقط ـ سلطنة عُمان.

القــراءة الخامســة

أبومســلم البهــلاني الرواحـــي في شــعره الابتهــالي

د. محـمد صالح ناصر

معهـد القضـاء الشـرعي

أبو مسلم في شعره الإبتهالي

د/ محمد صالح ناصر

تمهيد :

عندما يتوجه الدارس الى شعر أبي مسلم، انما يفعل ذلك لأن أبا مسلم يمثل الشاعر المسلم بكل مواصفاته الأصيلة، عقيدة دينية راسخة وسلوكاً محمدياً ثابتاً، ورؤية اسلامية للكون، والحياة والناس، لا تذبذب فيها ولا اهتزاز، وهو الى جانب هذه الخصائص السلوكية العقدية يتميز بشاعرية فياضة تجمع الجماليات الفنية الرائعة التي تجعل التجربة الشعرية تنتفض ، وتتحرك، وتؤثر.

وعندما يختار الدارس من بين هذا الشعر موضوعاً محدد الأطراف مثل شعر الإبتهالات، فانما يتوجه اليه بدافع موضوعي، لأن الأغلبية الساحقة من قصائد أبي مسلم انما تنحو هذا المنحى، فقد استحوذت قصائد الإبتهال عنده على الحيز الأكبر من ديوانه. قد تبلغ ثلثي شعره أو تزيد.

على أن أبا مسلم لم ينظم قصائده الأخرى بموضوعاتها المختلفة، حنيناً واستنهاضاً، مدحاً ورثاء، الا تحت هذا الإلحاح الديني الذي يمثل الشاعر أبا مسلم أحسن تمثيل، ويعبر عن شخصيته أبلغ تعبير.

فوطنياته ومدائحه ومراثيه كلها لا تخرج عن اطار هذا النهج المستقيم، ولينظر المتأمل ملاحمه الوطنية : المقصورة، والنونية، والميمية، والعينية، ثم لينظر تخميساته لقصائد الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، ولينظر بعد ذلك مراثيه في العلماء الأجلاء، يجدها قد صيغت كلها بقالب سلوكي رفيع، لأن شعره كله في الغالب متمحور حول الإستقامة، منبثق عنها داع اليها(١).

البحث تقدم للمشاركة في ندوة المرحوم ابي مسلم ناصر بن سالم بن عديم الرواحي التي أقامها المنتدى الادبي تحت رعاية معالي السيد حمد بن حمود البوسعيدي المستشار الخاص لحضرة صاحب الجلالة السلطان المعظم في الفترة من ١٧-١٩/١٢/٩٤

(١) ينظر. احمد بن سليمان الكندي، قصائد السلوك في شعر أبي مسلم، اصدار المنتدى الأدبي، فعاليات ومناشط ١٩٩١ ص ٢٠٢. عد أحد الدارسين عدد أبياته الدينية فبلغ بها (٥٢٨٠) بيتاً من مجموع (٩٠٠٠) بيتا وان كنا لا نوافق على هذا التحديد المفتعل. ينظر ديوان أبي مسلم د/ صلاح رزق (مخطوط) ص ١٣.

لذا فإننا عندما نجرؤ على الدخول الى هـذا البحر الزاخر، نكون قد تجرأنا على أنفسنا أولاً وبالذات، والجرأة هنا لا تأتي من عمق أمـواج شعر أبي مسلم وحسب، وانما تأتى من كون المركب الذي اخترناه لشق هذا الخضم ليس مأمون العواقب، فليس أخطر على المرء من تناول موضوع يتعلق بالنفس البشرية التي مهما قال العلماء فيها وعنها، فانهم لن يصلوا الى حدود تفسير الآية الكريمـة التي تتحدانا : ﴿وفي أنفسكـم أفلا تبصرون﴾[٢] . ﴿سنريهم آيـاتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[٣] . فنحن اذا حين ندخل هذا البحر المتلاطم، فاننا ندخله على وجل وخوف، للأسباب السابق ذكرها :

ـ صعوبة النفاذ الى أبعاد هذا النوع من الشعر لأنه يتعلق بالروحانيات، وهي أمر صعب الإحتواء والفهم.

ـ وسعة أطراف الموضوع لأن جل ما كتبه أبو مسلم إنما يدور حول هذا المحور، لذا فان بحثنا هذا لا يـدعي الاحاطة أو النفـاذ إلى الأعماق، وانما هو محاولة للتقرب مـن هذا البحر الخضم، والتأمل في عالمه العجيب تأمل استفادة وتجريب.

وسنحاول أن نقف مع قصيدة الإبتهال عند أبي مسلم من خلال المحاور التالية :

* قصيدة الابتهال تعريفها وأبعادها.
* مكانة هذا الفن عند أبي مسلم ولماذا اهتم به؟.
* محاور هذه القصيدة عنده من جانبها الموضوعي.
* محاورها من جانبها الفني.
* قصيدة الابتهال بين الزهد والتصوف.

---

(٢) سورة السجـدة ، الآيـة : ٢٧ .

قصـــــيدة الإبتهــــــال

تعريفهــــــا ـ أبعـــــادها

جـاء في لسان العـرب لابن منظـور : ابتهـل في الدعـاء اذا اجتهد، .. والابتهـال، التضرع، والإبتهال الإجتهاد في الدعاء، واخلاص لله عز وجل.

وفي التنزيل العزيز ﴿ثـم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[٤] أي يخلص ويجتهد كل منا في الدعاء، واللعنة على الكاذب معاً .

قال أبـو بكر ابن الأنباري : قـال قوم : المبتهل معنـاه في كلام العرب المسبح الـذاكر لله، واحتجوا بقول نابغة شيبان :

أقطـع الليل آهــــة وانتحـــــاباً   وابتهـــــــالاً للــــه أي ابتهـــــــال

وفي حديث الدعاء : الإبتهال أن تمد يديك جميعاً .. وأصله التضرع والمبالغة في السؤال.

من هنا نرى أن معنى الإبتهال؛ هو التضرع في الدعاء والإجتهاد فيه. وأما الدعاء فقد ورد في القرآن بمعنى العبادة، كما جـاء في سورة الأعراف : ﴿إن الذين تدعـون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾[٥]. وفي سورة الرعد : ﴿له دعوة الحق والذين تدعـون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى المـاء ليبلـغ فاه وما هو ببالغه، ومـا دعاء الكافريـن الا في ضلال﴾[٦] . وقـد ورددت اللفظة في آيـات كثيرة أخـرى، وعندما نتنـاول تلك الشواهد كلها نجد الـدعاء حين يرد بمعنى العبادة يتضمـن أيضاً معنى النداء ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[٧] .

والدعـاء مما يوصي بـه القرآن عبادة المؤمنين لأنه حفـظ الصلة التي لا تنقطـع بين العبد وربه ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾[٨] . ﴿واذا سألك عبادي عني فـاني قريب أجيب

---

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٦١

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٤

(٦) سورة الرعد ، الآية : ١٤

(٧) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٠

(٨) سورة غافر، الآية : ٦٠

دعوة الداعي اذا دعاني﴾[٩] .

وقد قص علينا القرآن نماذج من أدعية الأنبياء مما لايزال المؤمنون يرددونها في صلواتهم وخلواتهم تأسياً، واقتداء بهم. وقد وردت على لسان أنبياء الله آدم ونوح، وابراهيم وموسى وعيسى، ومحمد وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد رغب الرسول الكريم - ﷺ - أمته في الدعاء في حالتي الخير والشر، وفي مواضيع الشكر والضر، لأن الدعاء بالنسبة للمؤمن هو علامة استسلامه لله خالق كل شيء، ومدبر كل شيء . فالدعاء بالشكر عند النعماء يزيده عطاءاً وانعاماً والدعاء بالصبر عند الضراء يزيده أجراً وثواباً، وعند الإنابة والإستغفار يزيده من الله قرباً وملاذاً.

وقد جاء عن الرسول - ﷺ - : «إن الدعاء ينفع بما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء» . وقال : « إن الله حيي كريم يستحي اذا بسط الرجل اليه يديه أن يردها صفراً ليس فيها شيء». الى آخر ما جاء في هذا الموضوع من أحاديث كلها تحض على الدعاء، وتدعو المؤمن على ملازمته سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً، في المكره والمنشط.

واذا عدنا الى التراث الإسلامي، فإننا نجد في أبيات المتصوفة اهتماماً بالدعاء والأذكار وضعوا لها آداباً وشروطاً ينبغي أن يكون المرء عليها في حالة الدعاء، حتى يستجيب الله لدعائه.

ولهذه الآداب تفاصيل توجد في الجزء الأول من [احياء علوم الدين للغزالي] والجزء الخامس من [غاية ًإرب للنويري] ، كما تكتظ بها كتب المتصوفة، والرقائق.

وجملة هذه الآداب تبين كيف يحرص الصوفية على صفاء النفس حين تراض على هذه الآداب، فوصل النفس بالله، واستحضار فقرها اليه، ورهبتها منه، ورغبتها فيه، وانتظارها لفضله في ثقة ويقين، كل أولئك من العوامل المهمة في صقل النفس، وتطهير القلب، وتربية الوجدان، وانتظار الخير كله من الله، وتهيئة النفس لذلك لذلك باب أصيل في بناء الملكات الأخلاقية ولاسيما اذا لاحظنا مخلصين أن الأمر بيد الله وأن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، هذه الأسباب تجعلنا نفهم موقنين لماذا يصف الرسول ﷺ الدعاء بأنه «مخ العبادة».

---

(٩) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦

من هذا المنطلق الإيماني نفهم لماذا يتجه شاعـر مثل أبي مسلم الى هذا النوع من الشعر، ولماذا يكرس لـه من ديوانـه كل هذه القصـائد بحيث تصبح الجزء الغـالب عليه، بـل تصبح الروح الذي طبع أغلب أعماله الشعرية، وسنعود الى هذه النقطة بالذات بالشرح والتوضيح.

لمـاذا اهتم أبو مسلم بقصيدة الإبتهال ؟

يبدو لي ـــ والله أعلم ـ أن أبـا مسلم حين كتب الشعـر كان أول مـا كتب منه هـو الشعر الديني الخالص، أي شعر الإبتهال والذكر، آية ذلك اننا عندما نعود الى ديوانه المخطوط نجده عبارة عـن مجموعة من الأذكـار الدينية، أعطـاها هو بنفسـه عنواناً دلالياً مقصـوداً : النفس الرحماني* في أذكار أبي مسلم البهـلاني) ويشمل أغلب قصائده كما ذكرنا آنفـاً، وهو الذي يعنينا من هذه الدراسة المتواضعة.

وقد قسم الديوان نفسه الى عناوين تنطوي كلها تحت عنوان واحد هو **(الأذكار)** فلم يميز بين قصائده إلا بأعدادها حسب الترتيب، فكان منها :

الذكر الأول، وعنوانه **(الوحي المقدس)** . ومقدمـة في شروط الذكر، ثـم فاتحة الـدعوة المباركة لأسماء الله الحسنى، وعدد أبياته ١٥٦٧ بيتاً.

الذكر الثاني، وعنوانه **الناموس الأسنى في أسماء الله الحسنى** . وعدد أبياته ٢٦٢ بيتاً.

الذكر الثالث، وعنوانه : **المعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى** . وعدد أبياته ١١٤ بيتاً.

الذكر الرابع، وعنوانه : **النفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة**. وعدد أبياته ٢٠٢ بيت.

الذكر الخامس، وعنوانه : **درك المنى في تخميس سموط الثنا**. وعدد أبياته ٢٥٢ شطراً. لأن القصيدة يخمسها بقصيـدة هي في الأصل للعالم الربـانى الشيخ سعيد ابن خلفان الخليلي.

الذكر السادس، وعنوانه : **مقدس النفوس** ٧٩٥ بيتاً.

---

(١٠) زكي مبارك ، التصوف في الأدب والأخلاق، ج٣ ، ص ٤٥

(*) في رواية أخرى (النفس الرباني) والمعنى واحد.

(١١) أحمد بن سليمان الكندي ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢.

الذكر السابع، وعنوانه : **الكلـــم الطيب ، وعدد أبياته ٨٥٥ بيتاً.**

الذكر الثامن، وعنوانه : الباقيات الصالحات ، وعدد أبيـاته (٦٠٠) بيت سقط منها حوالي ثلاثون بيتاً لم ترد في الديوان المطبوع ولا المخطوط، وتلحق بهذه القصائد.

هذه هي القصائد التي يمكن أن يشملها جميعها الإتجاه الإبتهالي لأنها انما نظمت أساساً لهذا الغرض، كما تـدل على ذلك مقدمة الشـاعر نفسه، حيـث يضع لها سلوكية معينـة قبل الذكر وأثناءه.

وقد دلت المقدمات التي يفتتح بها تلك القصـائد على احتفاله بأدائها، اذ كان يهيىء نفسه بالطهـارة والوضـوء والتبتل والخشوع والصــلاة في جوف الليـل، فتنساب تلـك الأبيات على لسانه دعـاء يناجي بها ربه في تلك اللحظـات الروحية الرفيعة تجيـش بها عتطفته، وينتفض بها وجدانه، ويمتلىء بها قلبه، وتخفق بها جوانحه(١١).

بعد هذا الإستعراض السريع الذي يقدم أمامنا انطباعاً على اهتمام الشاعر أبي مسلم بهذا الفن الشعري، الذي يكاد يتفرد به من بين الشعراء المعاصرين له، لا في عمان وحسب، بل في العالم العربي على ما نعلم ندرك أن أبا مسلم قد اتخذ الشعر وسيلة يتقرب بها الى ربه، كما يتقرب اليه بـأي عمل صالح آخر، إنه المعـاناة التفسية، والخلوة الروحيـة التي اختار للتعبير عنها الفن الشعري، وما في ذلك غضاضة.

وبعيداً عن استنطاق الظروف السياسية والإجتماعية، وهي دوافع موضوعية ولا شك نود أن نبدأ من دافع ذاتي، نابـع بكل قوة من حنايا الشاعر٧ لأن الدافـع الذاتى في كتابة الشعر يكون أقوى ولا ريب من الدافع الخارجي، وكأن الشاعر توقع تساؤل الناس عن اختياره هذا فقال :

بـأسمائك الحسنى تقـربـت سيــدي	**اليـــك مجداً في هتـــافي وقـــربتـــي**
جعلـت سمير الطبـع تـرتيــل ذكـرهـا	**لــوجهــك ربي خلـــوة بعـــد خلـــوة**
بحقـــك أمطــرني سحـــائل سرهـــا	**بما خـــص كــــلا مــــن كمال وقـــوة**

(١٢) ديوان أبي مسلم ط الحارثي. ص. ١٢٧

وصــــب لي بها مـــن كـــل خير آتـــــه الهي في الـــدنيـــا وفي الأخـــرويــــة[١٢]

ولعل احســـاس الشـاعر بـأنه انما يدعـو الله ويـرفع اليه أكـف الضراعة وهو ينشـد تلك القصـائد، هو الذي أضفى عليها جواً حميمًا من الصدق والتجلي الروحي.

والقارىء عنـدما يردد تلك القصـائد بتمعن يخيل اليه أن الشـاعر لا ينشد شعراً عـادياً، وانما هو يدعو خاشعاً متبتلاً في محراب الشعر، وهو موقف طالما طالعنا من شعره، ولاسيما في خواتم تلك المطولات التي يخصصها لأسماء الله الحسنى، حيث يتكرر لفظ الدعاء أكثر من مرة تعبيراً من الشاعر عن معاناته النفسية الصدقة، واحساسه الإيماني الفياض.

إلهي هـــذا مـــوقـف الخوف والـــرجـــا وهــــــذا مقـــام العـــــائذ المتثبـــــت

إلهي مـــا أوقفتنــــي مـوقـــف الـــدعـــا لطـــرد، وابـــــلاس، ويــــأس وخيبـــة

إلهي لا يشقـــى دعــــاتـــك بـــالـــدعـــا ولا بـــاء بـــالحرمـــان اخبـات مخبـــت

إلهي لـــــــولا نظــــــــرة أزليـــــــة الى لما أنهضتنـــــــي نحــــو دعــــوتي

إلهي بشيري بـــــالاجـــــابـــــة دعـــوة أرتلهـــــــا والله حــــــــاضر حضرتي

إلهي دعــــائي مـــا لـــــه عنـــك حـــاجـــز وعـــــزم إراداتي وثبـــــت عـــــزيمـــي

إلهيَ أبـــــواب الـــــدعـــــاء لمن دعــــا مفتحـة فـاسمع دعـائي وصرختـي[١٣]

هكذا يتجلى صــدق الشاعر وخشــوعه وخضوعه، واتخاذه الشعــر وسيلة يدعـو بها ربه ويناجيه ممـا يجعله يردد لفظة الدعاء ومـا أشتق منها في هذه الأبيات أكثـر من ثماني مرات والابتهال بالشعر عنده وسيلة من وسائل التقرب الى الله، لاتختلف عنده عن دعائه بالنثر، أو بالأدعية المحفـوظة المأثورة الأخرى. وقد قـال عن نفسه في مقدمة تخميســه لقصيدة شيخه وامامه في هذا الإتجاه الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي : «ولكنــي امرؤ حالفت خدمة الأذكار، وأشربت حب الاغتراف من بحار الأسرار، وعلمت أن لهذه الدعوة (سموط الثناء) أثراً ساطعاً، وبـرهـاناً قـاطعـاً أشهـر مـن الشمس في كبـد السماء، وأغـزر بـركـة مـن عيالم الـدأمـاء (البحار) فـاستمسكت بعـروتها وأخذت بحجـزتها وجعلت مـع التخميس لـرب العزة نـداء،

(١٣) ديوان أبي مسلم الرواحي. طبع ونشر صالح بن عيسى الحارثي. (د.ت) ص، ١٢٥، وفي نفس الطبعة (جلوة بعد خلوة)
(١٤) الديوان المخطوط . ص ٩٣.

ولبست لها من أديم السحر رداء»[١٤].

فأبو مسلم يرتقي بهذا الفن الشعري رتبة في السمو الروحي أرقى من أن يكون شعراً يحفظ أو ينشد، وانما يتخذ هذه القصائد أوراداً يقسمها بين اليوم والليلة، فتصبح عنده عبادة قارة، ورياضة روحية يصفي بها نفسه من أدران المادة وأوضار الدنيا كلما أصابه شيء من غبارها.

سيدي سائل بأسمائك الحسـ — نى على بابك العظيم الأجل
سيدي عائذ بأسمائك الحسـ — نى دؤوب بحبلها متدلي
سيدي مخبت بأسمائك الحسـ — نى وأذكارها حديثي وشغلي

فهو سائل عائذ مخبت، حتى أصبح الذكر حديثه وشغله فيما يقول، والدافع الى ذلك طمأنينة يجدها قرب الله إذا استبد به القلق، وأمن في حمى الله إذا نزل به خوف. ذلك ما يقرره بنفسه حيث يقول :

سيدي عز في الوجود ملاذاً — ونعمت أمام وجهي سُبْلي
سيدي من يحلل حماك يصادف — كرماً منزلاً برحب وأهل
سيدي أي قاصد طوحته — في حماك الخطوب باء بحظل(*)

الى أن يقول :

سيدي من يصرف هواه إلى غيـ — ـرك لم يلق(*)منك غير التولي[١٥]

إن قصيدة الابتهال عند أبي مسلم حاجة نفسية، واستجابة ملحة لخواء روحي يشعر به عندما تدلهم أمامه الحوادث، وتتحكم حوله حلقات الأزمات النفسية فلا يجد سلاحاً لدفعها

---

(١٥) الديوان ، ط التراث، ص، ١٣٠
★ الحظل : المنع والحرمان.
طبعة الحارثي (ص ١٣٩) وردت (يلف)

الا الإبتهال المتضرع الى الله، لأنه يشعر - لا محالة - بالضعف البشري، ويعترف بقلة حيلته وهوانه عند الناس، فيغدوا والدعاء عندئذ سلاح المستضعف الذي لا يجد النصير إلا عند الله قاهر المستبدين والجبابرة والطغاة، فأسماء الله الحسنى تغدو عنده الجنود، والحصون، والسيوف والنبال التي يقاتل بها بل انها البروق التي تخطف أبصارهم كلما أرادوا به سوءاً.

رب سلطانك النصير نصيري وخلوص الدعاء سيوفي ونبلي
وجنود الأسماء أنصار قهري وكنوز الأسماء كنزي وطَوْلي
وحصون الأسماء معقل أمني وغيوث الأسماء غيثي لمحلي
وبروق الأسماء تخطف أبصا ر المريدين سوء حالي وذلي
وفيوض الأسماء قوة تصريفي وفصلي في الكائنات ووصلي
فاكسني من لألاء أسرارها نو راً، وهب لي بفيضها كل سؤلي
وأغثني متيمًا، مولع القلب بأذكارها نهاري وليلي
لست أخشى من الحوادث إن كنت بأنوار سرها متجلي

إن المتتبع لتلك الابتهالات الدافقة من أعماق القلب؛ يشعر بحق إلى أي حد كان أبو مسلم وهو يسبح في ملكوتها كما قال حقاً، متيمًا، مولع القلب بأذكارها ليله ونهاره، وما ذلك إلا لثقته العظيمة في الله، فإن الذكر والدعاء طاقة روحية هائلة تفيض على جنبات نفسه، فتملؤها الطمأنينة والرضى واليقين، فهي اذا عبادة، وحاجة وأمان:

«الهيَ أكرمني بقرب اجابتي فاني مضطر عظيم البلية
وعدت بقرب واستجابة دعوتي اذا عرجت عن ذلة وضرورة»☆

☆ الديوان ص١٠٦

قصيدة الإبتهال من جانبها الموضوعي

إن قصيدة الإبتهـال عند أبي مسلم تسير وفـق مخطط فكـري مرسوم، ومنهـج رؤيوي معلوم، يقسمها الى محاور وعناصر، و ما يزال يتبعها في خطـى ثابتة موزونة حتى يصل إلى خاتمتها، بل تشعر وأنت تقرأ تلك الإبتهالات أن خيطاً نفسياً رفيعاً يسلكها في عقدواحد، يبدأ من الجزئي الى الكلي، أو من الكلي إلى الجزئي.

ولأن هذه القصائد هي في حقيقـة أمرها أدعية تصعد من أعماق قلـب الشاعر، اتسمت في الأغلب الأعم بالتكرار اللفظي والمعنوي، إنها ترجمة صـادقة لحاجات الشاعر النفسية، يطلب من الله أن يستجيب لها، على النحو الذي أوضحناه، لذا جاءت محاورها على كثرتها متشابهة، وعناصرها متماثلة، فلا يكاد المرء يجد فرقاً بينها من ناحية الأفكار والمعانى والمواقف، وليس المهم أن تتسم بالتكرار المعنوي ما دامت استجابة صادقة لأحاسيس الشاعر، وأدعية خالصة لهمومه وغمـومه، ولئن لوحظ تشابـه موضوعاتها. بما عرف في الشعـر الصوفي من اهتمام بالسلوك، والأخلاق، والحب الإلهي، والمدائح النبوية، والتأمل الـروحي، فإن الشاعر أبا مسلم قـد وفق في عـرضهـا بطريقـة منهجيـة تتـداح في دوائر نفسية تبـدأ مـن همومه الخاصـة الشخصية، ثم تتسع شيئاً فشيئاً لتشمل هموم وانشغـالات أمته الإسلامية. وهذه الرؤية في حد ذاتها تسم هذه القصائد بسمة الخصوصية، وتفردها بنكهة شعرية محببة.

وقصائد الإبتهال عند أبي مسلم تسير وفق المحاور التالية في الأغلب الأعم :

- افتتاحية في تقديس ا سمه -تعالى-
- تمجيد الذات الإلهية بذكر صفاته التي وصف بها نفسه.
- الاعتراف بالذنب والتقصير في جنب الله.
- التوبة وطلب الغفران.
- مطالبه وحاجاته الدنيوية والأخروية وهي :

تزكية نفسـه ، العلم اللدنى، القبول والرضـى، الغنى الذي يغنيه عن ذل السـؤال، الدعاء على أعدائه بطلب الانتقام منهم، طلب نصرة الأمة الإسـلامية على الكافرين والمشركين والطغاة ثم الخاتمة بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

وبما أنه من الصعـب على الدارس أن يقف عند هـذا العدد الضخم من الأبيـات فقد رأينا الوقوف عند الذكر الثالث الـذي عنوانه : المعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى، اذ خيل لنا ـ والله أعلم ـ أنها القصيـدة الإبتهالية النموذج، التي أفـردها للدعاء الخالـص من أول بيت الى آخر بيت، وقد نظمها قصداً للدعاء بها عند الحاجة كما أوضح ذلك في مقدمتها.

وقد افتتحها أبو مسلم بمقدمة نثرية يقول فيها :

«وبعد فهـذه نفثات عرشية، وكلمات قـدسية، عبق عبيرهـا من رياض الأسرار الفرقـانية، وأشرق ضوءها عن مشكـاة الأنوار الاسمائية، أجراها الله على لسان عبـده المفتقر الى رحمته، ولقد بلوتها عند الشدائد، فوجدتها غياثاً جميلاً، وركناً جليلاً، والحمد لله حد النهاية، وهاكها حسبما جادت به العناية».

ثم يقسم الذكر شعراً على النحو التالي :

ـ مقدمة في شوط الذكر :

ـ اللطيفة الأولـى : في سؤال تزكية النفس.

ـ اللطيفة الثانية : في امداد الأنوار العلمية والأسرار الحكمية.

ـ اللطيفة الثالثة : في الدعاء لرفع الآفات والكلاءة من طوارق المخافات.

ـ اللطيفة الرابعة : في تطهير النفس بالاستغفار من الأوزار.

ـ اللطيفة الخامسة : لفتح خزائن النعم، وانبساط فيوض الكرم.

ـ اللطيفة السادسة: في كسر شوكة الفساد، ووصم العباد.

الخاتمــة :

إن الدارس عندما يقرأ هذه العناوين أو هذه اللطائف الست يتذكر ولاشك مقامات وأحوال

المتصوفة التي وضعوها للسالك في هذا الطريق، والمقام عندهم معناه : مقام العبد بين يدي الله -عز وجل- فيما يقام من العبادات والمجاهـدات الرياضية، والانقطاع الى الله تباركت أسماؤه[16].

والمقام الأول عنـدهم، هـو التوبـة النصوح، وهـي ندم القلـب، واستغفار اللسـان، وترك الجوارح، وإضمار ألا يعود التائب إلى الذني، وقـد وصفوا عشر خصال، ينبغي أن يتحلى بها العبد في مقام التوبة، قبل أن يتجاوزها الى المقامات الثابتة، وهي مقام الصبر، ومقام الرجاء، ومقام الرضى، ومقام الرفعة، ومقام الفقر، ومقام الورع، ويكون العبد في كل مقامٍ على حال خاصة من أحوال يعرفونها وهي متداولة في كتب التصوف.

وقد وضـع أبو مسلم لمن يريد الابتهال بها شروطـاً، تتعلق بالإعداد النفسي بطهارة الظاهر والباطن، والتفرد بعيداً عن ضوضاء الدنيا، وبهرجها، وزخارفها.

أيكون أبو مسلم متأثراً بمثل هذه السلوكات التي وضعها الصوفية في كتبهم ؟

الواقع أن هذه الشروط التي وضعها قبل الذكر هي من آداب الدعاء قبل أن تكون طقوساً صوفية، لأنها لاتخرج عـن اطار الإعداد الروحي، للسمـو بالنفس البشرية مـن دنيا المـادة، وأوضار الحياة اليومية، وهي كما ذكرنا شعراً :

أولهـــا : تطهير القلب .

وثانيها : التفرد في الخلاء.

وثالثها : الاخلاص لله وحده.

ورابعها : استقبال القبلة عند الدعاء.

وخامسها : الوضوء..

ويضيف اليهـا شروطاً أخرى يقـول عنها ، انها مستحبـة، مثل صوم يـوم الخميس وأن

(١٦) ينظر د/ زكي مبارك . التصوف في الأدب والأخلاق. ج٢. ص ١١٧ ، ١١٨.

تكون تلاوة اذكر ليلة الجمعة سحراً، لما للصـوم من كسر غلواء الجسم ومطالبه المـادية، ولما للسحر مـن صفاء ونقـاء وسكون وهدوء يـؤثران على النفس، ويعـدانها اعداداً طيبـاً لتلقي الفيوضـات الإلهية. وتحديـده ليلة الجمعـة بالـذات لأن الله فضل ليلـة الجمعة ضمـن ليالي الأسبوع، لحكمة لا يعلمها الا هو.

ثم يقول : « إن من اســتكمل تلك الشروط ثم دعا ربه منيباً متضرعاً وجـد الإجابة يقيناً

ويختم نصيحته قائلاً :

فعُوّل عليه في المهمات داعيـــــاً   بيـــاء النداء مستهـــديا متوكــــلاً

والواقع أن أبـا مسلم لم يبتدع طريقة جـديدة للذكر حين وضـع هـذه الشروط، ويبدو أنه نقلها عـن كتاب شيخه وإمامـه سعيد بن خلفـان الخروصي الموسوم «النواميس الـرحمانية» حيـث نجد الشيـخ يذكـر الشروط نفسها : الخلـوة، والطهـارة، واستقبال القبلـة، واستدامـة الصيام، والتقليل من الأكل والشرب، والصبر، والإخلاص. وهو يـذكر أنه نقل ذلك عن الإمام الحجة أبي حامد الغزالي.

ويضيف الشيـخ سعيد : «وفي قول الإمـام الحجة أنّ الحصن من قـواطع الطريـق أربعة أمور : الخلـوة، والصمت، والجوع، والسهر. فقـد قيل صفة الأبدال : أكلهـم مأقة، ونـومهم مغلبة، وكـلامهم ضرورة. فـالصمت يسهل بـالعزلة، والسهـر بالجوع، ومنهـا ينجلي القلب، ويصفـو، ويتنـور، ويكـون كـالمرآة المجلوة، فيلـوح منهـا جمال الحق، وتشرق فيهـا أنـوار الآخرة»[١٨].

على أننا لا يمكن أن ننفي الصلة بين ابتهالات أبي مسلم وشعر التصوف، لأننا لاحظنا في هذه القصـائد استمداداً واضحاً مـن عالم التصـوف لغة وتعبيراً، وتوظيـف مصطلحات لها دلالات معينة عندهم. وسنعود الى هذه القضية بالتفصيل في مكانها.

---

(١٧) الديوان، طبع التراث، ص ١٣٨.

(١٨) النواميس الرحمانية. طبعة حجرية. د.ت ص، ٨٩ ، ٩٠

وبما أن المجال لايسمح بأن نأتي بأمثلة شعرية لكل ما ذكرناه، فانه من الضروري الوقوف عند بعض المحاور التي رأينا الشاعر يقف عندها طويلاً، ويردد الطواف حولها متبتلاً.

والحاح الشاعر على هذه المحاور بالذات استجابة نفسية طبيعية لما يشعر به؛ ودعاء من الله ليستجيب له حاجاته تلك إذ تغدو أسماء الله الحسنى عند الشاعر وسيلة للدعاء وطلب الإجابة.

ـ من هذه المحاور التي يفتتح بها تلك المقاطع عادة؛ التوبة النصوح، والندم مما بدر منه في جنب الله، والندم والتوبة أو المقامات التي يشترطها الصوفية في تنقية النفس، وتطهيرها، لتلقي المعارف اللدنية :

إلهي قد اشتدت الى الله فاقتي	**وشدت الى معروف جودك نُجعتي**
إلهي من حاجات نفسي توبة	**علي وغفران وعفو لزلتي**
وأكبرها الرضوان عني بجنة	**أجاور فيها خاتم الرُّسُلِيَّةِ**
إلهي ان كانت ندامة من عصى	**متاباً فإني نادم من خطيئتي**
ندامة مضطر ندامة متق	**ندامة مغروربدنيا دنيه**
ندامة عبد فارق الكون كله	**اليك ، ولم يعبأ بكثرٍ وقلة**

وقد يكون محور الذكر فرصة ليعرض نفسه على ربه دون مواربة أو تكلف، لأن مقام الدعاء هو مقام استغفار من الذنب فعلا، كما جاء ذلك عنده في المقطع الذي عنوانه : (غافر الذنب جل جلاله).

يقول :

وياغافر الذنب اغتفر لي قبائحا	**تجشمتها في جهرتي وسريرتي**
تعودتها لا عذر لي في اقترافها	**سوى خستي طبعاً وشدة شهوتي**

إلهي اكتسبت الإثم عمداً كأنه لكثرة ما آتيه أعظم قربة
ينبهني القرآن في غفلة الهوى فأصدف عنه مستمراً بغفلتي
وما صَدفتي جحدٌ، ولكنها هوى دهاني الى أن صار وصفي وحيلتي
أقل عثرتي يا غافر الذنب إن لي يقيناً بغفران وجود ورحمة
إن انتابك المستغفرون بحُجّة فجودُك ربي حُجّتي ووسيلتي

ـ ومن المحاور التي يقف عندها أيضاً، وترددت في أذكاره وأدعيته، طلب العلم اللدني، وهو ما يسميه الحكمة، أو علم الأسرار، فقد كان فيما يبدو شغوفاً بهذا العلم الذي جاهد نفسه من أجل الوصول إليه، وقيل إنه كان ممن يعلمونه تأسياً واقتداء بشيخه الخليلي.

يقول :

عالم الغيب والشهادة علا م الغيوب العليم علمك هب لي
واهب الفيض ادع قلبي بالحكمة والعلم يا حكيم وحل
يا مفيض الأنوار نور السماو وات، والأرض أجل رين ظلمة جهلي
منعتني عن الحقائق حجب مزق الحجب يا مبين وجَلِّ
يا بديع اكشف لي البدائع واقذف شُعَل الفهم والذكاء بعقلي
يا سميع اكشف لي ستائر أسرا ر الأسامي، واسمع دعائي ووهلي

يشكو الى الله إملاقه وعسرته :

ـ ومن مطالبه التي طالما رددها أن يوسع الله له في الرزق ليكفيه ذل السؤال والحاجة، ويسأله متضرعاً ألا تلجئه الافاقه إلى أن يذل نفسه، ويكسر خاطره أمام الخلق ببسط يد السؤال، فان موقف الذل لا يرضاه لنفسه سوى أن يكون كذلك لمولاه :

بطــولــك ملكنــي غنــى غير نــافــد — وهــب لي ملكــاً مـدة العمــر كــافيــاً

ووفــر لي النعماء وافتــح خــزائن الـــ — مــواهــب وابسـط ووسّــع ثــرائيــا

وصن بالغنــى يا مــالك الملــك والرضــا — صحيفـة وجهــي مـن ذليـل مثــاليــا

ولا تلـــق حـــاجـــاتي الى غير قـــادر — على النـزع والإيتــاء مــا دمـت بــاقيـا

فــلا خير الا مـــن يـــديــك ولا غنـــى — لــك الملك تـؤتي الفضل تـولي الأيــاديـا

وهو كلما دعا الله أن يوسع له في الرزق والثراء، يذكـر أن طلبه ليس من أجل نعيم الدنيا وزخرفها، أو حبـاً في المـال لذاته، وانما ليصـونه ذلك عن التـذلل للناس، جميعاً بمـن فيهم الأهل والأقارب مشيراً الى ذلك بالتصريح لا بالتلميح :

عسى نفحـات اسم الـرحيم تكـون لـي — على خطــة أعيـــت لحـــالي وقـــوتي

عســى نفحــات اســم الـرحيـم تنيلنــي — بـوســع نـدى يجتـاج فقـري وعسرتي

عســى نفحــات اسم الـرحيـم تقـوم بي — وقــد قعــدت عنـــي رجــالي وأسرتي

وقد تنـزل به فيما يبـدو عسرة، وتكثر حـوله المطـالب، فـلا يجد سبيلاً لـدفعها سـوى الوقوف ببـاب الوهاب الذي لا تنفد خـزائنه، وهو طالما أطـال الدعاء طالباً أن يـرفع الله عنه الحاجة والفقر، مستجيراً متضرعاً شاكياً.

ببـــابــك يــا وهـــاب أملقــت مخفقــا — وأقـــويـــت مجهـــوداً بـــأسر البليـــة

ببــابــك يــا وهـــاب أخلصـت رغبتـــي — وأوردت آمـــالي وأنـــزلـــت بغيتـــي

عنـــائي عنــاء المجهـــديـــن وحـــالتـــيَ — بعلمـك، فـاجبر عيلتـي، وإشـف غُلتـي

وأنـــت الجواد الحق لاوهـــب مطلقـــا — مــن الخلــق الا منـك يـــا ذا العطيـــة

إلهيَ هـــب لي مـــن مـــواهبــك الغنـــى — عـــن الخلــق في نفسي وفي واجــديّتـــي

ورب قائل يقول ، كيف ينسجم هذا الخلق الحريص مع الزهد في متاع الدنيا الذي هو الطابع الذي يفترض في شخص مثل أبي مسلم؟

يقول الإمام الغزالي في هذا الصدد :

« ولا بأس أن يحمد المتصوف ما في الحال من الحظوظ الدنيوية، كالخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والوصول الى العز بين الخلق، واكثار الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب»[١٩].

ونحن نعلم من أخبار أبي مسلم أن من صفاته التي شهد بها الجميع، كرمه الحاتمي حتى انه لا يترك في يده درهماً ولا ديناراً كرماً وسخاءً، فما أن يصل يديه متاع من متاع الدنيا، إلا وبدده انفاقاً يميناً وشمالاً. ولذا نعته ابن عمه حين رثاه بأنه أبو اليتامى والفقراء والمساكين. فلا عجب إذاً أن تضيق حاله المادية، من حين الى آخر، بما يدفعه الى طلب المدد من الله لينقذه مما هو فيه من ضيق إلى سعة، ويحوله من عسر الى يسر»[٢٠].

رب أشكو اليك فقراً وذلاً   واحتياجاً لبيّنَ الفقر مثلي
رب أنت الغني ذو الرحمة الوا   سعة املأ كفي رجائي بفضل
رب لم تنفد الخزائنُ والطّو   لُ ، ولا ضاقت الأيادي بنيل

وهذه الحال المعسرة، لم تغير حاله من الرضى إلى السخط، وما كانت شكواه عن احتجاج وضيق، بقدر ما هي طلب للرزق والعطاء، ممن لا تنفد خزائنه.

ر ب تعطعي لحكمة بالمقادير   ر وتعطي بغير وزن وكيل
رب ان تعطني فقد نضب الما   ء ، وجف المرعى، لشدة محلي
رب أشكو اليك طَرقَ الرزا   يا ، جلبت لي حرباً بخيل ورَجْل

---

(١٩) التصوف في الاخلاق والادب. ص ١٤٠ نقلاً عن احياء علوم الدين. ج٣ ص ٥٠

(٢٠) الديوان، نشر وزارة التراث، ص ١٣٣

دعاؤه على الكافرين والمتجبرين :

إن أبا مسلم حين يعبر بـالشعر، يعبر عن واقع أليـم يعيشه هو ويعيشه قـومه، وتعيشه أمته الإسلامية معه، فهو شاعر حساس بآلام وآمال نفسه ومجتمعه من حوله، مما يميزه عن شعـراء الأبراج العـاجية، والكهـوف المنعزلـة، وينفـي عنه كـل سلبيات الـزهد، والتصـوف، فبالإضافة الى ما عرف عنه من أفكار في الإصـلاح الديني والإجتماعي حتى انه ليعد في زمنه أحد الإصـلاحيين الذين حـاولوا معالجة أدواء المجتمـع العُمانى على كل الأصعدة سيـاسياً، ودينياً، وفكرياً.

فقـد عرف أيضـا بمواقفـه السياسيـة ولاسيما قصيـدته التـي يحفظها أغلـب العُمانيين، النونيـة، أو قصيدة الفتح والـرضوان ،وليس هنا مجال الحديـث عنها، فقد تحدثنـا عنها في دراسة سابقة.

إذاً، فـان الاتجاه نحو هـذا الفـن الشعري، لم يحل دون أن ينطلـق الشـاعـر الإسلامـي المتحرك بسجيته التي عرفت عنه، وطبيعته المتفتحة على العالم الإسلامي من حوله، ومعايشة هموم مواطنيه في عُمان، وزنجبار، وشرق افريقيا، والمغرب وغيرها.

من وحـي هذا الإحسـاس نراه يهتبـل كل فرصـة في ابتهالاتـه ليرسل النبـال المحمية الى الظلمة، والكافرين، ومن لف لفهم، فهو يستخدم الدعاء وسيلة، كما استخدمه الرسول ﷺ في حربه مع المشركين والكفار، لذا نجده يتوجـه بكل جوارحه حين يكون الذكر اسمًا من أسماء الله الحسنـى، التي تحرك في نفســه هذه المعـانى مثل : الجبـار، القهار، القـابض، والحافـظ، والمذل، والقـوي، والقادر، والمنتقـم، وسريـع الحسـاب، شـديـد العقـاب، الحضرة القاصمـة، وغيرها..

ولنأخـذ ـ كمثـال ـ هذا الدعاء الذي يـدعو فيه على الظالمين الذين طـالما ذكرهم دون أن يحدد صفاتهم وأسماءهم، ثم هو لايذكر، أهو ظلـم لحق به وحده أم هو ظلم أصاب أمته .. ومن خلال الأبيات نستطيع أن نستشف ذلك من هذه المقطوعة.

تحت عنوان : الحضرة القاصمة يقول :

رب قهر الرجال أشكو ، فيا قا (م) هِرُ هب لي قهراً يُذِلُّ مُذِلّي
يا شديد العقاب ذو البطش والأخذ الأليم الشديد خذهم بعدل

وارث الأرض خذهمُ وأبدهم وانتصر لي منهمٌ وخذ لي بذحلي(*)
كادني الخصم يا حسيب فكده أمتن الكيد لا تدعه بمهل
أرني العدل فيه يا قائمًا بالـ قسط والعدلُ منك ليس بسهل
رب أنت الشهيد والحكم العد ل انتصف لي من ظالمي واشف غِلي

في المقطوعة السابقة أشار الى ظالمه بقوله : قهر الرجال، والخصم، ولم يزد على ذلك، ولكننا نجده أحياناً يشير الى الظالم اشارة واضحة كما جاء في مثل قوله :

دعوت دعاء المستجير وأنت يا قريب ترى ما مس جنبي فأَعْضَلا
ايدركني ضيم نصيري، ومن تكن له ناصراً مولاي كان المبجَّلا
بعزك مجد يا مجيد مهابتي يظل لها خصمي العنيد مذللاً
وكد من رماني يا ودود بكيده فكيدك للأعداء لازال أمثلاً

وقد يكون الظالم طاغية جباراً، وهذا نوع آخر من الظلمة الذين طالما رفع أبو مسلم أكف الضراعة لينزل الله عليهم عذابه وانتقامه.

رب أشكو اليك طاغيه فاكـ بته كبتاً وأبهله أعظم بهل
رب نكل به وشدد عليه وطأة الإنتقام في غير مهل
أعطني قوة عليه وحولاً ليس يقوى بغير حولك حولي
مدني من قوى سطاك(*) بقهر واقتدار يطويه طي السجل

(*) الذحل : الثار.
(*) السطا : جمع سطوة : القهر والغلبة.

والذي ضاعف من محنة أبي مسلم فيما يبدو قلة النصير، وخذلان الأقرباء والأصحاب، لذا فهو يطلب النصرة من ربه مستخدماً في ذلك ألفاظا قوية تزلزل النفوس، وتهز الأفئدة :

غـــارة الله أدركـــي نصرتي إذ عــزني النصر مــن قــريــب وخــل

غــارة الله جــردي صــارم المقــت على مفــرق الظّلــوم المضــل

غــارة الله بيّنــي الكفــر والطغــيــان . أو صبّحيــه منــك بثكــل

غــارة الله قــد ظُلِمــتُ وشكــوايَ إلى مــن يــرى ويسمــع ذلــي

غــارة الله بــالصــواعــق مــن نِقْــمته فــاحصبي(*) العــدا واستهلــي

إلهيّ أشكــو ظالمــاً أنــت حسبــه تــرفــع طغيــانــاً على ضعــف قوتــي

تــراءت لــه الدنيــا كــآكلــةٍ جــائع فســاغــت لــه أكــلاً ويــا شر أكلــة

فيــا خافــض اخفضــه بــأسفل ســافــل وسلــط عليــه الــرجز مــن كــل وجهــة

وادركــه محفــوضــاً على أم رأســه الى دركـــات المهلكـــات الـــوبيلـــة

وأحياناً يعينه بالذات، ويصوب اليه سهم دعائه ليصيبه في مقاتله :

إلهي عبــد مــن عبيــدك ظــالم رماني بسهــم الظلم منــه فأصمت(*)

تخطــى خطــر العــدوان للمكــر آمنــا وعينــك بــالمرصــاد في كــل خطــوة

فيــا عــدل أوبقــه بعــدلــك إنــه تمادى على الطغيــان والأشريــة(*)

تعــاليــت مــا في الملــك إهمال ظــالم ولاردّ مظلــوم ببــابــك مخبــت(*)

(*) احصبي العدا : أي القيهم في نار جهنم ليزداد اشتعالها. (*) اصمت : أصابت.

(*) مخبت : خاشع. (*) الأشرية : البطر.

وتنداح دائرة الدعاء على الظالمين أفراداً لتشملهم جماعات ودولاً. وما كان شاعر مثل أبي مسلم يعيش آلام أمته الإسلامية بكل خلجات قلبه، ويتابع أخبارها بكل جوارحه؛ أن ينساها، وفي هدأة الليل، حين تصفو النفس، وتزال بينها وبين ربها حجب المادة، وأوضار الحياة اليومية، يرفع يديه لاهجاً بالدعاء الى الله ليغير من واقع أمته العربية والإسلامية التي كاد لها المستعمرون، بكسر شوكتهم، ومحق دولتهم.

ويا قاهر اقصم دولة السوء وامحها	وشرد بها وأشدد عليها معجلاً
ويا باعث ابعث راية الحق حولها	جنودك تبلو في رضاك وتبتلى
ويا قائما بالقسط قوم مسدداً	قوياً على اظهار دينك فيصلا
يصول سريعاً يا سريع بنقمة	على كل ضليل عن الحق أجفلا
وياقابض اقبض بسطة الخصم وانتقم	كفعلك في عاد ومدين أولا
واشدد عليهم يا شديداً عقابه	ولا تبق منهم يا وكيل مبدلا
وعجل عليهم يا مقيت بوطأة	وذرهم حصيداً خامدين كمن خلا

وعندما يكون الدعاء على الكافرين فإنه يعني بهم أولئك الذين ظلموا بلاده العربية والإسلامية واستباحوا خيراتها، وفرقوا بين أهلها، وتجبروا على أبنائها بالخبائث والمنكرات.

إلهي مذل الكافرين بكفرهم	بعلمك فعل الكفر في القدمية
إلهي تعدى خصمك الحد واعتدى	على حرمات الله بالأغلبية
فأرسل عليه يا مذل قواصف الـ	نكير ، وسربله بسربال لعنة
وصب عليه الذل قلباً وقالباً	وفي جاهه والمال والتبعية
مصائب ذل تختبطن(*) حياته	ويحطمنه حطم الدريس(*) المفتت

(*) تختبطن حياته : بما يفسد عليها أمرها ويعكرها بالشر والأذى.

(*) الدريس : هو كل ما يدرس ويحطم تحطيمًا، من درس يدرس.

ومن خلال أدعيتـه على الكافرين، ويقصـد بهم الإستعمار الأجنبي، وعملاءه فإنـه. وهو يدعـو على الظالمين المعتـدين ـــ يدعـو لنصرة أهله وقـومه، وبنـي ملته، وعقيـدته مـن أهل الإستقامة، كما جاء في مثـل قوله مسبحاً معظمًا اسم الله القوي، مؤمنـاً بأن العاقبة للمتقين، ولو كانـت القوة الى جانب الأعداء فان قـدرة الله أقوى وأعظم تحيل القوي ضعيفـاً، والغالب مغلوباً في لمح البصر.

قـوي على التغليـب والفتـح عـاجـلاً	**لأهلـك أهـل العـدل في أي بقعـة**
فجــرد لنصر الإستقـامـة قــوة	**تصـول بسيـف من سيـوفـك مصلـت**
فليسـت قـوى الأعدا وإن جـد جـدهـا	**بقـائمـة للقـوة الأزليـة**
ومـا أشر الأحـداث وهـي ضعيفـة	**مـؤشرة للقـوة القـدريـة**

وفي الذكـر الخامس الـذي عنوانـه (درك المنى في تخميـس سموط الثنـاء) وهـي قصيـدة للشيخ سعيـد بن خلفـان الخليلي ـ كما هو معلـوم ـ ، يبلغ أبـو مسلم في هـذا اقتجاه المبلغ الأسنى، ويتناغم صوته مع صوت شيخه في الدعاء، فيصعد الى عنان السماء، دعوات ملتهبة، وصواريخ منقضة على رؤوس الكافرين والظالمين.

وان المرء عندما يقرأ هذه القصيدة لايكاد يميـز بين ما كتبه الشيخ سعيد بن خلفان وبين ما كتبه أبو مسـلم لتوهج العاطفتين والتقـاء الرؤيتين، ونشير بالتعين الى الفصـول الآتية، منها :

فصل في شكاية إضاعة سنن الإسلام برفع حدوده، وتعطيل الأحكام.

وفصل في الدعاء على أعداء الإسلام بقطع دابرهم واستئصال أولهم وآخرهم.

وفصل في المقصد الأسنى، وهو اظهار دين الله على يد قائم مولاه.

وبما أن القصيدة طويلة، فاننا نختار مـن كل فصل مقطعاً نحسبه دالاً على الفصل معبراً عنه ليتضح لنا ذلـك الإنسجام الكامل بين التلميذ وشيخه أي بين أبي مسلـم والشيخ سعيد ابن خلفان :

الديوان – طبعة وزراة التراث القومي والثقافة ص٥٨

ومـن لي وسيـف العــدل بين جفونـه

وللجــور سيــف شــاهــر في يمينــه

ومــن لي وأهــل الله تحت متـــونـــه

ومــن لي بـأن يــرضي الإلــه لـدينــه بتعطيـــل أحكــام ورفـــض حـــدود

الى أن يقول في الفصل نفسه :

ومــن لي بسهــم في يــد الله مــرســلاً يفضفـض حيزوم الأعـادي مجنـدلا(٢١)

إذا نقـض هــز الكـــون وارتعـــد الملا

ومن لي بسيف يقطع الهام والطلى(٢٢) ويفــري مـــن الأعـــداء كـــل وريــد

ومن الفصل المعنون؛ (في الـدعاء على أعدائه بقطع دابرهم واستئصــال أولهم، وآخرهم) ، نورد ما يلي :

ومـــزقهـــمُ اللهـــمّ كـــل ممـــزق

بـــأهلــك غلبــاً فيلقـــاً بعـد فيلــق

ونكـــل بهم وامحقهـــم بـــالتفــرق

ويـــا رب مــزق كـل ســور وخنـدق عليهـم ، وحصـن شـامـخ ووصيـد(٢٣)

لقـد وطئـوا الـدنيا بـرجـس مـرجـس

فعـاثـــوا بظلـم في عبـــادك مضرس(٢٤)

شيـــاطين ملعـــونين مـن كـــل مبلـــس

فطهـــر بقـاع الأرض منهـــم بـأنفـــس مـــن البغـي تجريها بكـــل صعيـــد(٢٥)

---

(٢١) بفضفض : يشق ويوسع . الحيزوم : وسطا الصدر . مجندلاً : مضروبا (٢٢) الطلى : الأعناق .

(٢٣) الوصيد : الجبل والكهف . (٢٤) مضرس : قاطع طاحن (٢٥) صعيد : أرض.

وفي الفصل : في المقصد الأسنى، وهو اظهار دين الله على يد قائم مولاه :

متـــى تخفـق الـــرايــات فــوق مــؤزر

مظفـــــرة تجري بجيـــــش مظفـــــر

إلهي أيـــــد قــــــائم الحق وانصر

وعجـل بنصر منــك للـديــن معظــم وعــن كيــد مـــن عـــاداك غير مكيــد

متـى السمحة البيضـاء تـرقى سماءهـا

متـى غـــزة الإسـلام تحمـــي فنـاءهـــا

متـى فطـرة التـوحيـد تلقـى رجـاءهـا

وتنشر أعـــلام العلـــوم لـــــواءهـــا بـــأسيـــاف عـــدل لم تلـــق بغمـــود

وقال في قصيدة أخرى :

وأيـــــد الإســـــلام بـــــالكـــرامـــــة والمجـــــد والعـــــز والإستقـــــامـــــة

وارفـــــع على أضـــداده أعــــــلامــــــه ونكـــــــس الشرك ومـــــــن والاه

بحـــــــق لا إلــــــــه إلا اللـــــــه

وأكسر قـــوى أعـــدائه معجـــلاً مستـــأصـــلاً شـــأفتهـــم مـــذلـــلاً

حتـــى متـــى الإسـلام منهـم مبتلـــى نصرك يـــا غـــوثـــاه يـــا غـــوثـــاه

بحـــــــق لا إلــــــــه إلا اللـــــــه

وهكذا نجـد الشـاعـر أبا مسلـم في كل قصـائده ينتفض حـزناً وينـزي ألمـاً لمصير أمتـه الإسلاميـة، حزن وألم، شـاعر مؤمـن حساس. يـدفعه إيمانه القـوي المتشبع بـروح القرآن، وتوجيه القـرآن الى أن يكون حتى في أصفى ساعـات التجلي الروحي والسمو الإبتهـالي قريباً

من واقعه الأرضي يعـايش واقعه وواقع وطنه وأمته. ولـذلك يصبح الدعاء سلاحـاً حاداً فيه العبادة، والتجلي والحضـور. وذلك هو سر الإبتهال الصـادق النابع مـن قلب يؤمن بـالله رباً يخلص العبادة له وحده ويتخذ من تلك العبادة الخالصة وسيلة بيتقرب منها الى رب العالمين ليفيض رحماته على العالمين.

المدائح النبويـــة

من المحاور البارزة في قصيدة الإبتهال عند أبي مسلم : المديح النبوي، وهو عنصر هام في الإبتهال عند الشـاعر لأنه في تصوره ركن أساسي لا يتـم الذكر الا به، صرح بذلـك في مقدمة تخميسه لسمـوط الثناء، ودل على ذلك من خـلال قصائد الذكر الكثيرة التـي يختتمها دائمًا بمدح الرسول محمد ﷺ معتبراً ذلك وسيلة ودعاءً وذكراً.

ويقول د/ زكي مبارك«المدائح النبوية من فنـون الشعر، التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب مـن الأدب الرفيع، لأنها لاتصدر إلا من قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص.

وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول ﷺ، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في الرسول يسمى مدحاً، كأنهم لحظوا أن الرسـول موصول الحياة.. في أمته التي ترك فيها سنته وهداه، فهم بهذا يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء.

ولم يكن فناً ظاهراً بين الفنون الشعرية كالرثاء، والوصف، والنسيب، وانما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير الصوفية إلا القليل»[٢٦].

قد يكون انتشار هذا الفن وتخصصه وذيوعـه جاء في أعقاب التصوف كما يقول الدكتور زكي مبـارك، ولكن لا يعنـي ذلك طبعاً أن المتصـوفة وهم أو هـم الأغلبية كما أشـار في هذا الفن.

إذ نلحظ عناية بالمدائح النبوية في الشعر الإسلامي، وإن اختلفت بين الشعراء من جيل الى جيل آخر.

والدارس عندمـا يتتبع المديح النبوي عند شـاعرنا أبي مسلم من خـلال قصائد الابتهال،

(٢٦) د/ زكي مبارك . المدائح النبـوية في الأدب العربي. منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنـان. (ط : ١) ١٩٢٥ القاهرة ص، ١٧ . (بتصرف).

يلحظ أن الشاعر يعتبر المديح ركناً أساسياً في الإبتهال لا يتم الذكر الا به، فمن محاور القصيدة عنده أن تكون مختتمة بالصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد ﷺ، وكان ذلك رأيه وقصده في كل ما كتبه من قصائد الإبتهال اضافة الى قصائد خصصها للمديح النبوي وحده، ومن ثم فقد أشار بأسلوب مهذب، وبطريقة ذكية الى خلو قصيدة «سموط الثناء» لشيخه سعيد بن خلفان من هذا العنصر الأساسي الهام في تصوره، حيث يقول «إن هذه الدعوة لم تتصل بنا مذيلة بصيغة صلاة على رسول الله ﷺ. على أنني أجزم بطريق حسن الظن في حضرته– رضي الله عنه– بأنه لم يترك ذلك احتمالاً للأولى، فان له في سوابق الخير، وأعمال البر، وعلم الأذكار القدح المعلى، فإنه وإن لم يأت بها في متن النظم، فلا نرتاب في إتيانه بها حالة الذكر، تشرعاً بالواجب، وتذرعاً بالأفضل.

ولكن تجاسرت تجاسر العبد على مولاه، بأن نظمت لها صيغة صلاة. وفاء بالواجب عليَّ لا تلافيا لتقصير اعتده على ذلك القطب»[٢٧].

وأول ما يلفت النظر في تلك القصائد هذا الحب الجارف الذي يشعر به الشاعر لرسول الله ﷺ، يستخدم لذلك كل ما عليه من طاقة تعبيرية وتصويرية، صادراً عن ايمان عميق، واعجاب شديد بنبي الإسلام، حتى صار حبه له حباً جِبِلّيّاً كما يقول :

أنوار حبك في قلبي قد انطبعت	**جبلّة كانطباع الشمس في القمر**
ما زال حبك في روحي يخامرها	**حتى تجردت عن عيني وعن أثري**
ما للمحبة مقدار اذا اقتصرت	**الحق حبك حسب غير مقتصر**
تجرداً من هناك كلها حجب	**لا وصل والحب محجوب بذي الستر**
أدعوك خلف حجاب الكون منبسطاً	**في بسط حبك لم أخلص من الأثر**
ذهلت عن كل شيء مذ علقت به	**فلا أفرق بين الصفو والكدر**
لا أحسب الروح إلا أنها خلقت	**من الهوى فاختفت عن عالم الصور**[٢٨]

(٢٧) الديوان . ط التراث. ص. ١٤٥.

(٢٨) الديوان طبعة التراث ص ٢٧٦.

وقال من قصيدة أخرى :

عليــــل ومـــــا بي علـــــة غير أنني — سلوكي حب المصطفى صار علتي
عليـــل غليـــل غـــالنـــي حـــب أحمد — فما حيلتـــي ألا أمـــــوت بغلتـــي
فليت فنـــائي كـان في فيـــىء (طيبـة) — إذا فـــاه فـــوه القبر فهـــت بلهفتـــي
قُتلـــتُ قتيـــل العـــذل في دار حِبَّـــة — وقلـت لقلبيَ أقبل، وكبـدي تفتتـي[29]

ويدلك شعر أبي مسلم في مدح النبي محمـد ﷺ على حب عظيم، واعجاب لا يوصف، تراه يضفي عليه من الصفات العظيمة مصداقاً لوصف الله – سبحانه-لرسول ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[30] ، ولكنه ينساق أحياناً في هذا الاتجاه فيأتي بصفات يحتاج المرء في فهمها الى فهم مصطلحات الصوفية.

يقول في احدى أذكاره وهو يصف الرسول ﷺ :

هــــو الجامــــع الأسماء جمع تحقــــق — ومشكـــاة مصبـاح الصفـــات الجليلـــة
هــــو الجامــــع الأسرار في جيـــب سره — هــــو المشرق الأسرار في أي وجهـــــة
هـو الكـاشـف الأستـار عـن نيّر الهدى — هـــو البـاعـــث المبعـــوث بـالحنفيـــة
هـــو الأول المكنـــون في أبحـــر الخفـــا — هـــو الآخـــر المعقـــود في كـل رتبـــة
هـــو الظـاهـــر المعلـــوم قبـل ظهـــوره — هـــو البـــاطـــن الحاني بكـــل حقيقـــة

ويستمـــر في تتبـــع هـــذه الصفـــات التي يحتـاج المرء في فهمهـــا إلى الـوقـوف على بعـض المصطلحات الصـوفية كما ذكـرت، مثل قـوله :«هــو الجامع الأسرار»وقـولـه:«هــو الكاشـف الأستار. وهو الأول المكنون في أبحر الخفا»إلخ .. إلى أن يقول مخاطباً الله –عز وجل– :

---

(٢٩) الديوان طبعة التراث ص ٢٨٧.

(٣٠) سورة القلم . الآية ٣ .

تـوليتـه واخترتـه ومـلأتـه بنـورك واستخلصتـه للمحبـة

وبـوّأتـه مـن كـل خير أتمه وأذكـاه، والأكـوان في العَـدَمِيَّـةِ

فكـل مـزايا الـرسـل والأنبيـاء في بحـار مـزايـا شـأنـه حكم نقطـة

ومـا طمـع الأمـلاك والـرسـل مطلقـاً بـأن يبلغـوا مقـداره مـع نسبـة

ولا منـح الأبـرار أن يتـزلفـوا اليـك سـوى مـن بـابـه عنـد قـربـة

إن هذه الصفات التي يضفيها أبو مسلم على الرسول الكريم من أفضلية للخلق، بما فيهم الأنبياء والمرسلين واستمدادهم أنوار الهداية ، ـ يذكـرنا ولاشك ـ بقول البوصـيري في بردته ذائعة الصيت :

وكلهـم مـن رسـول الله ملتمـس غـرفـاً مـن البحر أو رشفـاً مـن الـديـم

وواقفـون لـديـه عنـد حـدهـم من نقطـة العلم أو مـن شكلـة الحكـم

وكـل آي أتـى الـرسـل الكـرام بها فـانمـا اتصلـت مـن نـوره بهم

فـإنـه شمـس فضـل هـم كـواكبهـا يُظهـرْنَ أنـوارَهـا للنـاس في الظُّلَـم

وأبو مسلم حين يصف الرسـول الكريم، نراه يوظف كل امكانـاته العقلية والفنية، ليصل بمدحه الى أعلى مستوى، إلى الحد الذي يقف فيه الدارس أحياناً عاجزاً عن فهم بعض الرموز والصفات التي يأتي بها، لأنها مستمدة ـ ولاشك ـ من عوالم الصوفية، مثل قوله :

وآثـرتـه مـن بين خلقـك كلهـم بـأن كـان أصـل الكـائنـات البـديعـة

وآثـرتـه مـن بين خلقـك كلهـم بـأن كـان عنـد الله خير وسيلـة

وآثـرتـه مـن بين رسلـك كلهـم بـأن جـاء مبعـوثـاً الى خير أمـة[٣١]

---

(٣١) الديوان طبعة وزارة التراث القومي والثقافة ص ١٢٩

إن وصفه بـأنه خير الخلـق، وأنه خير وسيلة، وأنـه خير مبعوث إلى خير أمـة فذلـك كله مفهوم ومشروع، ولكن الذي لم نفهمه، ولم نستجل حقيقته وأبعاده هو قوله «بأن كان أصل الكائنات البديعة».

يـا مصطفـى الله يـا مختـار نظـرتـه	يـا أصـل مـا أظهـر الإبـداع في الفطـر
يـــا رحمة الله يـــا مبعـــوث رأفتـــه	يـا مظهـر اللطــف في الأرواح والصـور
يـــا أول الكـل بعـــد الله مبتـدعـــاً	وأول الكـــل عنـــد الله في الخطـــر
يـــا ظـاهـــرًا بكمالات الظهـــور على	كـل الظـواهـــر في سلطـان مقتهـر
يـا بـاطنـاً لم تفتـه البـاطنـات ولم	يـدرك مقـامـاتـه علـم مـن الفطـر
أنـوار حبـك في قلبـي قـد انطبعـت	جبلـة كـانطبـاع الشمـس في القمـر

إلى أن يقول :

فِدًا لـك الكـون لا أسلـو بـزهـرتـه	عـن فـرط حبك يـا مـن حبـه وزري
وكيـف تفـدى بكـون أنـت علتـه	لـولاك مـا أوجـدت مـوجـودة الفطـر

ويقول في قصيدة أخرى :

أهــلا بمـن خلـق الـوجـود لأجلـه	سر الــوجـود وفـاتـح الأقفـال
أهــلا بمغنـي العـالمين بجـوده	دنيـا وأخـرى عتبـة المفضـال
فعلى يـديـه حظـوظهـم مقسـومـة	حتـى السعـادة قسمـة الأنفـال[٣٢]

والواقع اني عاجز عن فهم قوله : أنت علة الكون، ولولاك ما أوجدت موجودة الفطر، إلا بعرضها على ما جاء عن محيي الدين بن عربي، حيث يقول :

« إعلم أن الله لما خلق الخلق جعلهم أصنافاً، وجعل في كل صنف خياراً ، واختار من

---

(٣٢) الديوان ، ص ٢٨٣.

الخيار خواص، وهم المؤمنـون، واختار من المؤمنين خواص، وهم الأولياء واختـار من هؤلاء الخواص خلاصـة وهم الأنبياء، واختـار من الخلاصـة نقاوة، وهم أنبيـاء الشرائع المقصورة عليهم، واختار من النقاوة شرذمة قليلين هم صفـاء النقاوة، وهم الرسل أجمعهم، واصطفى واحداً من خلقه هـو منهم وليس منهم، هو المهيمن على جميـع الخلائق، جعله الله عمداً، أقام عليه قبة الوجود، وجعله الله أعلى المظاهر تعيينا وتعريفاً، فعلمه قبل وجود طينة البشر، وهو محمد ﷺ، لا يكاثر ولا يقاوم»[٣٣].

ويشرح الدكتور زكي مبارك هذه النظرية بقوله :

..«إن الصوفية يتصورون ذاتاً أحدية، لا تتكثر الا بالتعينات، والتعين الأول هو محمد ﷺ، وهو الحكمـة الفردية، وعنه نشـأت جميع التعينات حتى الأنبيـاء، ومن أجل ذلك كـان سيد جميع الناس، وكان خاتم الأنبياء، وقد حام حول هذه النظرية كثير من أقطاب الصوفية»[٣٤].

« إن أثر التصـوف الفلسفي واضـح في هذه النظريـات الغريبة عـن الإسلام وبسـاطته، ووضوحه، إنها نظرية متأثرة بالفلسفة القائلة بوحدة الوجود، وهي الفلسفة التي أقام عليها ابن عربي تصوفه، بل نقول مدرسته الصـوفية، حتى قيل إنه لايمكن أن يفهم ابن عربي في أي موقف مـن مواقفه الفكرية، إلا بفهم نظـريته في وحدة الوجود، وإيمانـه بوحدة «الحق» (الله) والخلق .. (الكائنات) لأنها القاسم المشترك الأعظم الذي يظل كافة آرائه ووجهات نظره. فوحدة الوجود هي المنظار الذي أبصر من خـلاله ابن عربي كل شيء سواء أكان ذلك في عالم الفكر، أم في عالم السلوك »[٣٥].

وأبو مسلم عندما يتوسل بالرسـول ﷺ ، يضفي عليه صفات ما تعودنا اضفاءها الا على الله –سبحانـه وتعالى– مثل غوث الـوجود، ونور الوجـود، وروح الوجود، وأنس الـوجود، وأصل الوجود، وعين الوجود، وعز الوجود، ويتوجه اليه في دعوته كما يتوجه بها إلى الله.

---

(٣٣) الفتوحات المكية، ج٢ ـ ص ٩٧.

(٣٤) د/ زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج١ ، ص ، ٢٣١.

(٣٥) د/ محمد عمارة . نظرة جديدة الى التراث ، دار قتيبة ، ط٢ (لا مكان للطبع) ١٩٨٨ ص ١٣٢.

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري | سر الوجود استلمني من يد الخطر
نور الوجود تداركني فقد عميت | بصيرتي في ظلام العين والأثر
روح الوجود حياتي انها ذهبت | من جعلها بين سمع الكون والبصر
أنس الوجود قد استوحشت من زللي | وأنت أنسي في وردي وفي صدري
عين الوجود ترى بؤسي ونازلتي | وفي محالك انقاذي من الصور(٣٦)

ويتمادى أبو مسلم في هذا الاتجاه حيث يقول :

وجهت نحو رسول الله نازلتي | وقلت يا نفس عم النصر فانتظري
أمنية الفوز منه غير خائبة | ومطمع النجح منه غير منحسر
ونائل الخير منه غير منقطع | وفائض البر منه غير منحصر
بسطت كفي إلى فياض رحمته | على يقين بدرك السؤل والظفر(٣٧)

الواقع اننا لم نتعود من الزهاد الأوائل، والذاكرين الأولياء في عصر الصفاء والنقاء أن نسمع هذا الوصف منهم لغير الله، ولكنها مفاهيم فلسفية داخلت الإسلام مع ما داخلها من فلسفات أخرى، وإلا كيف يمكن أن يطلب الغوث في الخطر، والنور للبصيرة. والأنس من وحشة الذنب، والانقاذ من الضرر، كيف يطلب المؤمن هذه الصفات من غير الله، وهو يسمع ربه يقول : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾(٣٨)، ﴿وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له﴾(٣٩).

فهل نقول في الأخير، مادام الشاعر يعتقد في الرسول أنه وسيلة لاغير، فإنه يجوز له ذلك، وإن الذي جرأ الصوفية على هذا المنحى استنادهم إلى التكريم الألهي الذي كرم به رسوله، شفيعاً للمؤمنين، وذلك ما جعله يرفع أكف الدعاء متوسلاً برسول الله قائلاً :

---

(٣٦) الديوان . ط الحارثي ، ص ، ٢٧٥
(٣٧) مرجع سابق ، ص ، ٢٧٥
(٣٨) الآية (٦٠) من سورة غافر
(٣٩) جزء الآية (٥٤) من سورة الزمر

يا سيدي يا رسول الله قد وصلت — اليك حالي فصلها منك بالنظر
فنظرة منك في حالي يكون بها — فوزي بربي وانقاذي من الضرر
يا سيد الرسل ضاقت كل كائنة — «بناصر» فلتكن لي خير منتصر
وإن يضق بي أمري فهو متسع — بوسع جاهك في وردي وفي صدري(٤٠)

وأحسب أن الأغلبية من علماء الإستقامة وأئمتهم مازالوا متشددين متورعين في اخلاص الدعاء لرب العالمين، اللهم الا بعض من شذ في ذلك متأثراً بعصره وقراءاته.

وما على المؤمن الا الرجوع الى القرآن وموقفه من هذا، صريح حيث يقول :

﴿قل انما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾(٤١).

هذه الآية تقرر حقائق منها :

* **بشرية الرسول وتفضيله بالوحي الإلهي .**
* **وأن الله واحد لاشريك له.**
* **وأن لقاء الله ورضاه لا يكون الا بالعمل الصالح وحده وعدم الإشراك به أحداً من خلقه.**

وفي هذا تلميح خفي إلى خلوص التوجه إلى الله وحده بدون واسطة أو وسيلة، والله أعلم.

وقبل أبي مسلم نجد شعراء آخرين يغالون في مدح الرسول ﷺ، الى حد قولهم، إنه لولا محمد ما ظهر شمس ولا قمر، ولا نجوم ولا أعفار، ولا بحار، ولا شجر ولا مدر، ولا جبال، كما جاء ذلك عن ابن نباتة المصري حيث يقول :

لولاه ما كان أرض لا ولا أفق — ولا زمان ولا خلق ولا جيل
ولا مناسك فيها للهدى شهب — ولا ديار بها للوحي تنزيل(٤٢)

---

(٤٠) الديوان . ط الحارثي ، ص ، ٢٨٢. (٤١) الكهف: الآية.(١١٠)
(٤٢) التصوف في الأدب والأخلاق . د/ زكي مبارك . ج١ ، ص ٢٢٩

فهل يعد هذا من مبالغات الشعراء التي هـي من وحي العاطفة المتأججة، فنحمل قول أبي مسلم عليها ؟ أم أنه بلل أصابه من مذهـب المتصوفة وآرائهم التي لا تخلو من تطرف وغلو على النحو الذي أوضحناه عند ابن عربي؟

أن محبة الرسول ﷺ صفة المؤمن الحقيقي، صفة أوحى بها القرآن الكريم قبل أن تكون سمة لتأثر بفلسفة ما.

ومحبة الرسول ﷺ يتخذها أبو مسلم في دعواته، وأذكاره وابتهالاته وسيلة يتقرب بها الى الله ليتقبل دعاءه، أو قربـة يتفيأ تحت ظلالها رحمته، ومن ثم جـاءت في الأغلب الأعم خاتمة لتلك الأدعية والإبتهالات وهو يصرح بذلك قائلاً :

إلهي بجـــاه السيـــد الأكـــرم الـــذي	هـو الـرحمة العظمى لكـل الخليقـة
محمـد البر الـــرحيـم الـــذي أتـــى	حـريصـا علينـــا بين بـــر ورأفــة
تــوسلــت ملتــاذاً بسلطـــان قـــربــه	إليك ، وحسبـي أن يكـون وسيلتـي
ومــن يتـوســل بــالــرسـول محمـد	يـلاق المنـى مـن عين كـل رغيبـة(٤٣)

من الواضح هنا كيف نظر أبو مسلم إلى شخصية الرسول ﷺ ، من خلال منظار القرآن، لا من خلال منظار ابن عربي، ففي البيت الثاني إشارة واضحة للآية الكريمة : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾(٤٤).

ويقول ، متوسلاً بالرسول الكريم :

بحـــق ذكـــر نـــورك المحمـــدي	ببركـــات النفـــس المحمـــدي
بسر فيـــض المدد المحمـــدي	بنفحـــات روحـــك المحمـــدي

يــا حبــذا مــن نفحــات وبشـــر(*)

---

(٤٣) الديوان ، ط التراث، ص، ١١٧

(٤٤) التوبة الآية : (١٢٨)

★ الديوان ص١٩١

بقـــربـــات المصطفـــى المحمـــد بسبحـــاتـــه مـــن التهجـــد
بما لـــه في مصـــدر ومـــورد مـــن رتبـــة ومشهـــد ومـــدد

بنـــور مـــا أبطنـــه ومـــا ظهـــر

بـــالمعنـــويـــات التـــي بها انطـــوى وبـــالخصـــوصـــات التـــي بها احتـــوى
بعـــرش زلفـــاه الـــذي فيـــه استـــوى يـــا فـــالـــق الحب وفـــالـــق النـــوى

صـــل عليـــه مـــدداً لاينحصر(٤٥)

ويقول من الذكر السابع تحت عنوان الكلم الطيب :

بجـــاه نـــور الله مـــولانـــا الشفيـــع مـــن لم يـــزاحـــم في مقـــامـــه الـــرفيـــع
محمـــد خير مطـــاع ومطيـــع مـــن استمـــد النـــور مـــن هـــداه

بحـــق لا إلـــه إلا اللـــه(٤٦)

والذي ننتهي اليه من هذا العرض هو أن التوسـل بالرسول في حد ذاته أمر لايمكن البت فيه جوازاً أو حـرمة لأنه على حد تعبير الشيخ سعيـد بن خلفان مما اختلـف حوله العـلماء والفقهاء. وقد أجازه الشيـخ القطب اطفيش محمد بن يوسف معتمـداً في ذلك على أدلة عقلية ونقلية :

ولكن الذي نخالف فيـه مع هذا الاتجاه هو التوسل بالصـالحين، أو كـل من هم أقل رتبة من الرسول الكريم ﷺ .

وقد يتجاوز الأمـر إلىٰ حد التوسل بـالابدال، والأقطاب، والأحباب والنقبـاء، وغير ذلك مما هو معروف عند المتصوفة، وقد أشار أبو مسلم إلى هذا صراحة حيث يقول :

---

(٤٥) الديوان ، ط التراث، ص، ١٩٢
(٤٦) المرجع السابق ص٢٣٥

الى أن يقول :

بـــالســـــادة الأبـــدال والأقطــــاب   بـــالســـــادة الأفـــراد بـــالأحبـــاب

وبـــرجـــال الغيـــب بـــالأنجـــاب   بـــالنقبـــاء الطهـــر الأطيـــاب

بـــالســادة الأوتـــاد بـــالغـــوث الأبـــر

بـــدرجـــات الأزكيـــاء الســـالكين   وبمقـــامـــات نفـــوس العـــارفين

وبقلـــوب الأوليـــاء الـــواصلين   بـــالخلفـــاء منهـــم والمرشـــديـــن

حقيقـــة العين ابتغـــوا دون الأثـــر(٤٧)

إن أثر التصوف في هذه المواقـف، واضح دون أن نحدد هذا الأثر وأبعاده أهـو أثر ينتمي إلى مـدرسة الإمـام الحجة الغـزالي، كما صرح بذلـك الشيخ سعيـد بن خلفـان في النواميـس الرحمانية أم هو أثر يذهب الى أبعد من ذلك؟ إن الذي يستطيع الإجابة عن هذا السؤال، عالم متخصص في هذا المجال، ونحن أبعد ما نكون عن ذلك.

من خلال هذا العرض الذي اعتمدنا فيه النصوص الشعرية نستطيع القول :

ـ إن قصيـــدة الابتهال كشـف جلي للآلام والآمـال التي تعتـور نفس أبي مسلـم، في حالتي الرضا والغضب، والأمن والخوف، والسعة والضيق، والقلق والطمأنينة.

ـ وما تقسيمه لقصائد الـذكر إلى محاور موضوعية الا استجابة موضـوعية لدوافع الحاجات النفسية.

وأبو مسلم يعلم علم اليقين تلك الحالات التـي تعتور النفس البشرية، فتلجأ الى الله داعية مبتهلة، كل حسب حـاجتها، وعن هذا يقول معللا تقسيم الذكـر إلى ما يسميه (حضرة)؛ كل حضرة تشتمل على مقطع: «ثم ان مقاصد الداعين متعددة، فيـأخذ الداعي ما ناسب مقصده، ولابأس من جمع حضرة بأخـرى إذا ناسبتها بحسب المقاصد، ولـو على غير ترتيب الأسماء الـواردة كما لـــو جمعـت أسماء الجلال وأسماء الكمال كـــل منهـا على حـــدة، لما تقتضيـه المظاهر»(٤٨)

---

(٤٧) الديوان ، ط التراث، ص، ١٩٤

(٤٨) الديوان . ط التراث. ص ١٢٥ ، الحضرة القدسية، الحضرة الرحموتية

وبوسع الدارس المتمعن أن يدخل شغاف قلب أبي مسلم ويتجول في أنحاء نفسه، من خلال تلك القصائد التي يعرض فيها نفسه على بارئها دون حاجز أو حاجب، بطواعية ويسر، بعفو وتلقائية. وان بعضها ليغدو صرخات أنين تصعد من أحشائه، وبعضها الآخر صرخات غضب ينفجر حممًا على أعدائه، ومن هنا يتوجه الى الله قاهر كل جبار، ونصير كل مستضعف، ومفرج كل هم، داعياً متضرعاً :

فارج الهم، كاشف الغم عجل فرجاً عاجلاً ولطفاً بذلي

يا مغيث الملهوف يا راحم العبـ ـرة يا منجي الغريق استجب لي

حيطة العلم بي متاب سؤلي وسؤالي فقري وذل محلي

وليس عند أبي مسلم وهو يقف هذا الموقف الذليل الخاشع من وسيلة سوى الدعاء بأسماء الله الحسنى، يقول :

هذه سيدي الوسيلة أدلوها على بابك الكريم الأجل

ليس لي حجة ولا من شفيع بابتهالي وذكر اسمك أدلي

فأراني أخيب اذا قمت أدعو ك وألقيت عند بابك رحلي[٤٩]

ومن ألفى بهذه الطمأنينة، وهذا السمو النفسي عند باب الله رحله جدير به أن يجد الله عند دعائه له مجيباً، مادام في نفسه قريباً.

---

(٤٩) الديوان ، ط التراث، ص، ١٩١

«قصيـــدة الإبتهـــال من جانبهـــا الفنـــي»

هل طبع فن الإبتهال والعقيدة عند أبي مسلم بطابع فني خاص ؟ :

إن الجواب عن هذا التساؤل يستوجب دراسـة فنية متأنية لهذه القصائد، وبما أن العقائد كثيرة تكاد تكون وحـدها ديواناً كاملاً، فـاننا نستسمح القارىء الكريم بالوقـوف عند أبرز السمات الفنية لهذه القصائد مـن خلال البنية العامة لقصيـدة الابتهال وموسيقاهـا الداخلية والخارجية .

أولاً : البنية العامة للقصيدة :

عندما اختار أبو مسلم عنواناً لديوانه «**النفس الرحماني**» ، هل كان يعني مـا توحي به هذه الكلمة من فيض ربـاني، ومدد عرفاني بحيث غدا طابع الديوان هـذا الفيض الزاخر من العطاء الشعـري الذي يمتد أحيـاناً ليصل ١٥٩٧ بيتاً في القصيـدة الواحدة كما فعـل ذلك في «الوادي المقدس»حيث بلغت أبياتها ١٥٨٥ بيتاً ؟.

هذا الطول المفرط هو أول ما يلحظ في البنية العـامة لهذه القصائد، وقد بناها الشاعر على هذا النحو السـامق الشاهق لتتماشى مـع جلسات الذكر التـي يفترض فيها أن تستحوذ على وقت طويل كما أوضـح ذلك في الشروط التي وضـعها لهذه الأذكار الثمانية التي احتوى عليها ديوانه «**النفس الرحماني**» .

وأبو مسلم على وعي تـام بهندسة قصائده على نحو خاص يستجيـب لما نظمت من أجله وقد شرح لنا بنفسه رؤيته الفنية هذه حيث يقول في مقـدمة هذا الذكر الذي عنوانه «**الوادي المقدس**» .

«وبعد،فإنه يحتوي على فاتحة **بخصوص اسمه-تعـالى-«هو»** تشتمل على سـتـة وستين بيتاً ثـم على حضرة بخصوص **اسم الجلالة** وهي عـدد ستة وستين بيتـاً ثم على ثمانيـة وتسعين حضرة **لكل اسم حضرة** بخصوصه.

أولها : اسمه تعالى «**الرحمن**».

وآخرها : اسمه تعالى «**الصبور**» .

ثم على **اثنين وعشرين حضرة** على الأسماء المستخرجة من القرآن العزيز مما لم يدخل في جملة الوارد به الحديث النبوي.

ثم ان كل حضرة من هذه **الحضرات المائة والعشرين ترتبت على أحد عشر بيتاً** بمناسبة عدد اسمه-تعالى-«هو» وبمناسبة أحرف بسط اسم الجلالة تعظيمًا.

ثم على **خاتمة** تشتمل على ستة وستين بيتاً.

ثم على **خاتمة أخرى** تشتمل على ستة وستين بيتاً موضوعها الصلاة والسلام على رسول الله محمد ـ ﷺ ـ والثناء عليه.

ويفصح أبو مسلم عن سبب هذا البناء الخاص لقصائده عندما يذكر طريقة تلاوتها ونلحظ أن طريقة التلاوة هي التي أوحت بهذه البنية الخاصة حيث يقول :

«ثم ان طريقتي في تلاوته ـ أي الذكر ـ توزيعه على أيام الأسبوع مبتدئاً بليلة الجمعة مختتماً بمساء يوم الخميس، والتوزيع على حسب الإمكان لا بالتزام ترتيب مخصوص ولكن ولكن الشرط اتمامها في أسبوع، ومن قدر على تلاوتها في أقل من ذلك ولو في مقام واحد فلكل درجات مما عملوا»(٥٠) .

هكذا نلحظ أن البنية العامة للقصائد خضعت أساساً ومنذ البداية لتستجيب لجلسات الذكر التي تتوزعها أيام الأسبوع السبعة كما شرح وبين .

اللغة الشعرية :

إن أبا مسلم يملك قدرة هائلة في النظم وسيطرة معتبرة على أدواته الفنية تتجلى في هذا الفيض الغزير من الألفاظ والكلمات التي لا تنضب ولا تضعف مما يدل على امتلاكه الراسخ القوي لناصية اللغة العربية ويدل على رصيده الزاخر الذي يغترف من محيط القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والأدب العربي بكل فروعه وبمفهومه الواسع أمثالاً، وحكمًا، ومواعظ.

هذا المدد اللغوي الغزير ساعده على أن يكوّن عوالم خاصة به في بناء لغته الشعرية.

---

(٥٠) الديوان ص ٧

وعندما نتحدث عن اللغة الشعرية فإننا نقصد بهذا التعبير والتصوير معاً أي الألفاظ بدلالتها المعجمية والخيالية، إذ من الصعب الفصل بين العنصرين في العمل الشعري الموحد.

ونعني بدراستنا ما له علاقة بموضوع بحثنا وهو الابتهال فقط دون التطرق الى الجوانب الأخرى التي لها صلة بالتجربة الشعرية لدى أبي مسلم بصفة عامة.

ولعل أول ما يلفت النظر أن العوالم التي يستمد منها أبو مسلم لغته الشعرية هي نفس العوالم التي يستوحي منها أذكاره وأدعيته وهي : القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأدب الصوفي.

وهذا أمر طبيعي لأن هذه القصائد في حقيقة أمرها أدعية وأذكار وابتهالات، فلغتها ينبغي أن تكون مستوحاة من عوالم القرآن اللانهائية، وتعابيرها الفنية مستلهمة من أجواء الآيات القرآنية بصورة أو بأخرى.

وكان أبو مسلم على دراية بهذا الاختيار المقصود لذاته، كما عبر عن ذلك بقوله :

مولاي بالأسماء والأسرار والأنوار، والآثار منها أبتهل

أدعو بكل اسم لذاتك بالصفا ... ت الطاهرات وكل موحيّ نزل

أدعو بكل وسيلة أحببتها ... من سائليك فتستجيب لمن سأل

فلغته التعبيرية إذاً استيحاء ظاهر من الأسماء والصفات والآيات للذات العلية، واذا كان الابتهال أساساً عماده لغة قائمة على أسماء الله الحسنى فإن ذلك يعني بالتبع أن يكون الاستيحاء من القرآن الكريم نفسه، لأن تلك الأسماء إنما وردت في القرآن الكريم أولاً. فهو لهذا يكتفي ببناء الصورة الشعرية مستخدماً فيها الاقتباس، ويتوغل في بناء الصورة الشعرية عن طريق ما يطلق عليها النقاد «الصورة الإشارية» أي يلمح إلى معنى الآية من خلال كلمة واحدة أو يستلهم الأجواء والظلال التي توحي بها الآية من خلال لفظة واحدة أو عدة ألفاظ في الآية الكريمة دون أن يوردها بكاملها ، حيث يترك استلهام ذلك للقارىء الكريم المفروض فيه حفظ القرآن وفهمه، وهذه الكلمة تفيض عليه عطاء ثراً من الصور الموحية التي تجسدها تلك الآية المشار اليها.

(١) الصـــــورة البلاغية :

ونعني بها الصورة التقليدية القائمة على **التضمين والاقتباس حيث يورد الشاعر الآية الكريمة أو جزءا منها داخل البيت أو الأبيات** دون اضافة كما وردت في القرآن الكريم.

ـ كأن يقول :

إلهي تـــؤتي الملـــك مــــن تشــــا وهـذا اختصــاص سره لـلألــوهـة(٥١)

هنا ضمن الآيـة الكريمة : ﴿قل اللهم مالـك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنـزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾(٥٢)

ـ وقوله داعيا الله على العدو الكافر :

إلهي لـــم تجعـــل سبيـــلا لكــــافـر على مــؤمـــن مستمسك بـــالشريعـــة
إلهي مـــا هــــذا المريـــد بمعجــــز وأنــت غيور شـاهـد صدق دعـوتي(٥٣)

وهنا استمداد من الآية الكريمة : ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ (النساء/ ١٤١)
أو استلهاماً من الآية الكريمة : ﴿لاتحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ (النور / ٥٧)

ـ وقوله :

وأيـــن فـــرار العبـد مـــن ملـــك ربـــه ومـــا عـــزبـــت عنـــه حقيقـــة ذرة(٥٤)

من قوله تعالى : ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ (سبأ/٣)

ـ وقال متوسلاً :

بـــرتبــة الحق رفيـــع الـــدرجـــات ذي العرش مبقـي الروح باعث الـرفات(٥٥)

---

(٥١) الديوان ص ٢٨٢
(٥٢) آل عمران/ الآية (٢٦)
(٥٣) الديوان ، ص٤٠
(٥٤) المرجع السابق ، ص ٤٢
(٥٥) المرجع السابق ، ص ١٨٣

من قوله تعالى : ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقـي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ (غافر / ١٥).

ـ وقوله داعياً الله على أعدائه وأعداء الدين :

مكنـــــي اللهـــــم في خير مقـــام في الـدنيـا والـدنيـا وبلغنـي المــرام

ورد أحـــزاب أعـــاديــك الطغــام بغيظهــم عنــا وخـذهـم بــانتقـام

إني مغلـــوب اليهـــم فـــانتصر

ليســو بمعجــزيــن في الأرض ومــا كــان بهم مـــن دون ربي أوليـــا

ضـاعـف لهم مـن العــذاب والشقـا معجـلا مــا عجـــزت عنــه القــوى

حتــى يكـونــوا كهشيــم المحتضر[٥٦]

ـ وفي قوله :

(واني لغفـــار لمن تـــاب) ردنـــــي اليـك فــلا تــردد متـــابي بخيبــة

﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ (من سورة طه / ٨٢)

ـ وقوله :

معشر احســـانــك ربي مـــزدلـــف وفيـــك لي مـــن كـــل فـــائت خلـــف

قـد انتهيــت عــن جميــع المقـــترف (إن ينتهـوا يغفـر لهم مــا قـد سلـف)

ففي الشطر الأخير اقتباس ظاهر للآية ٣٨ من سورة الأنفال.

ونراه أحيانـاً يستلهم الأجواء الروحانية مـن أدعية القرآن فيضمنها أبياته بطـريقة ليست اقتباساً نصياً، وانما هي مزيج من التضمين والإقتباس أو هي إزدواجية بين الصورة البلاغية

---

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٣

والصورة الإشارية .

من ذلك قوله :

وهبتني الذكر كما أجريته ... هب لي به نجاة من أنجيته
ووقني النار كمن وقيته ... (من تدخل النار فقد أخزيته)

وما لظالم عليك منتصر

سمعت من نادى للايمان وقد ... آمنت لا أعدل بالله أحد
بحق الإيمان بغفرانك جد ... معاذك اللهم من خزي الأبد

توفني براً وأنت خير بر

وآتنا وعداً على رسلك تم ... لا تخزنا يوم القيامة في الأمم
لا تخلف الميعاد ما قلت انحتم ... ولا تضيع عملاً فيك ولم

تحرم إجابة الدعاء من افتقر

وهنا استحضار كامل للآيات الكريمة التي علم الله بها عباده الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض في تأمل وخشوع :

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ (آل عمران ، ١٩١ ـ ١٩٤) (٥٧).

وقد جاء هذا الإستلهام عنده في مثل قوله :

هو الله باسم الله يا رب لا تدع ... لأمارتي بالسوء نقطة خيرة
هو الله باسم الله أفرغ عليّ في ... بلائك صبراً ولّيك الشكر لهجتي

(٥٧) وانظر الصفحات التالية : ١٧٩ ، ١٩١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٠٧،، ٢٠٦، ٢٢٣، ٢٢٤ وانظر الصفحات، ١٣، ١٧، ٢٠، ٢٣، ٢٩، ٣٢,٣٠.

من الواضح هنا أن أمارته بالسوء هي نفسه وهنا صورة اشارية الى الآية الكريمة حيث يقول تعالى : ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (يوسف/٥٣)

وفي البيت الموالي استلهام للآية الكريمة ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ (البقرة / ٢٥٠)

دعاني قل ادعوا الله والفقر مطلقاً	وانك يا الله أهل لدعوتي
ونور جلال من (قل الله) مشرق	سريت به حتى شهود الحقيقة
وعز كما من (انا الله) باهر	له استلم الأشياء طوعاً وذلت
وحسن جمال من (هو الله) ظاهر	به نشوة الأرواح تحت الهوية[٥٨]

البيت الأول اشارة الى قوله تعالي في سورة الاسراء ـ ١١٠ ـ : ﴿قل ادعوا الله أو الرحمن﴾ والبيت الثاني إشارة الى قوله تعالى في سورة الأنعام ـ ٦٤ ـ : ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾. أو قوله : ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ (الأنعام ٩١) . والبيت الثالث إشارة الى قوله تعالى في سورة طه ـ ١٤ ـ : ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري﴾.

والبيت الرابع من قوله تعالى في سورة الحشر ـ ٢٢ ـ : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾.

وقوله :

ضاقت عليّ الأرض سيدي بما	رحبت الأرض ونفسي مأثمًا
إليك ألجأت اضطراري مسلمًا	أسألك التوبة يا الله[٥٩]

والواقع أن ديوان أبي مسلم يكتظ بالأمثلة الشاهدة على ثقافته القرآنية الواسعة حفظاً وتمثلاً، واستلهاماً لآية بطريقة فنية بارعة تدل على حفظه القوي لكتاب الله من جهة، كما

---

(٥٨) الديوان ، ص ١٧

(٥٩) الديوان ، ص ٣٢٤

تدل على براعته الفنية في استخدام هذه اللغة المتميزة بايحاءاتها وظلالها وهي لغة منتقاة مقصودة لذاتها لأنها تتماشى مع أجواء القصيدة الإبتهالية في روحانيتها وشفافية ايمانها.

تضمينه واستلهامه :

وإلى جانب الآيات القرآنية نجد الأحاديث النبوية الشريفة اقتباساً نصياً أو استلهاماً إشارياً على أنه لم يكثر من الأحاديث إكثاره من الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله :

بسر الشهيد ارزقني الصبر سيدي	**لحكمك واجعلني شهيد عبودتي**
لأعبدك اللهم حقاً كأنني	**أراك وكل الكون من خلف رؤيتي[٦٠]**

والى جانب استلهام لغة الأحاديث النبوية الشريفة نجده يستلهم الأمثال والحكم العربية مثل قوله :

عند الصباح يحمد القوم السرى[٦١]

* * *

أو قوله :

يا سيدي قد بلغ السيل الزبى[٦٢]

اللغة الصوفية :

أما العنصر الثالث في لغته الشعرية فهو ما يتخللها من **لغة صوفية** ونعني بها تلك المصطلحات التي شاعت عند المتصوفة .

اذ لا مفر من الإعتراف بأن الصوفية كان لهم وجود أدبي ملحوظ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد عرفت عنهم ألفاظ وتعابير دونها المؤلفون، وتلك الألفاظ والتعابير هي ثروة لغوية يقام لها وزن حين تدرس المصطلحات، وقد يقال : «إن لكل قوم ألفاظا وتعابير حتى النجارين والحدادين، ولا يكون ذلك عنواناً على سلطتهم الأدبية، ونجيب بأن ألفاظ الصوفية جرت في الأغلب الأعم حول معان وجدانية وروحية ونفسية واجتماعية فهي ألصق بالحياة

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٥٦
(٦١) المرجع السابق ، ص ١٨٠
(٦٢) المرجع السابق ص ٢٢٠

الأدبية»(٦٣)

وقد أورد الدكتور زكي مبارك في دراسته القيمة عن التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق مجموعة من هذه المصطلحات التي يكثر ورودها عند المتصوفة ولها دلالات لغوية معينة عندهم.

وعندما ندرس شعر أبي مسلم في الأذكار والابتهالات نجده مليئاً بهذه الألفاظ والتعابير، ويبدو أن الشاعر تأثر بها تأثراً عميقاً فطبعت شعره الابتهالي بجوها الروحاني، ولعله تأثر بها من خلال إدمانه لقراءة تلك الأشعار التي تأثر بها قبله شيخه سعيد بن خلفان الخليلي.

ونحن لا نستطيع أن نقطع برأي حول القصد من استخدام هذه التعابير عند الشاعر أهو استخدام فلسفي اصطلاحي معقود لما وراءه من معان وإشارات يعرفها المتصوفة أم هو استخدام لا يتعدى المجال الشعري الذي يستخدم الشعراء عادة من كل الأجواء الأدبية حسب قراءاتهم ورؤاهم الفنية وأبعاد تجاربهم الشعرية ؟

يقول في التمهيد لأذكاره :

نصبت لهم من نيّر الذكر معلماً — وبوّأتهم من أنفع الذخر مغنما

وصيرت نفسي خادماً لطريقة — بها هام أهل الله في الأرض والسما

فيا لرجال الحب والكأس مفعم — هلم اشربوا هذا المغني ترنما

عصرت لكم من خمرة الله صفوها — فموتوا بها سكراً فما السكر مأثمًا

لقد هام أهل الإستقامة قبلنا — بها فانتشوا بين الخليقة هُيّماً

تراهم سكارى ينشر الجمع فهمهم — ويطويه نور الفرق في أبحر العمى

ملأت لكم دني شراباً مروقاً — وحركت أوتاري فأنطقت أعجما

وغنيت في حزب هم الرسل كلهم — «تقدم الى باب المليك مقدماً»(٦٤)

(٦٣) د/ زكي مبارك . التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق ج١ ص ٥٨

(٦٤) الديوان ، ص ٣

اضافة الى هذه اللغة التصويرية الرائعة نلحظ كيف اعتمد الألفاظ الصوفية هنا ، مثل : **المعلم ، والمغنم . والخادم ، والطريقة، و الحب، والكأس، والمغني، والشراب، وخمرة الله، والسكر، والنشر، والطي، والنور، والأوتار،** وغير ذلك منا يشيع في قصائد المتصوفة حتى غدا علامة لهم، وبصمة تطبع شعرهم، ولغة خاصة بهم تحمل أبعاداً وأخيلة ودلالات معنوية رامزة.

وقد استوحى هذه العوالم الصوفية ليبني من لغتها صورة كاملة الأطراف تعتمد اللغة المجازية أساساً، بل هي تعتمد الصورة أساساً فقد صير نفسه خادماً لأهل الذكر يدور عليهم بكأسه التي ملأها بحب الله وقد عمرها لهم من خمرة الله، فلا ضير عليهم أنْ يموتوا بها سكراً، فقد سكر بها سلفهم الصالح من أهل الإستقامة قبلهم، نقاءً وصفاءً وزهادة وإخلاصاً لله، وهو الذي قد ملأ دنه ذكراً وحباً وعبادة، وحرك أوتار ابتهالاته الوجدانية فأنطق الأعجم تأثراً وسمواً، وما ندمانه سوى الرسل المصطفين الأخيار.

إن الأجواء الخيالية والتصويرية في هذه المقطوعة استيحاء واضح من قصائد كبار الصوفية مثل ابن الفارض، وأبي منصور الحلاج، ورابعة العدوية، وغيرهم.

ولم يقتصر ذلك عنده كما لاحظنا على المعجم الشعري ألفاظاً وتعابير، وانما استوحى أيضاً تلك الصورة المتميزة وتخيلاتها التي تحوم حول الشراب والغناء والوجد والإنتشاء.

ويقول في قصيدة أخرى مستخدماً الرمز والتصوير متوسلاً إلى ذلك كله بمصطلحات صوفية معروفة، مثل الوادي المقدس، الأسرار، والذوق، الحقيقة، والمقام وغير ذلك :

طنبت في الوادي المقدس خيمتي ... ورعيت بين شعوبه أغنامي

قل للذئاب الكاسرات تفسحي ... عز الحمى وأعز منه الحامي

فلقد نزلت على عظيم قادر ... عز الجلال إليه والإكرام

يقضي ولا يقضى عليه نزيله ... لو كاده الثقلان غير مضام

من بعد ما ظردت كل مطرد ... ونشبت بين أظافر الأيام

سترتني الأسماء في ملكوتها ... فحجبت عن فهمي وعن أوهامي

وسقتنـــي الأسرار شربـــة ذوقهـــا فعجـــزت عـــن تعبيره بكـــلامـــي
وذكـرت مـــن هـو في الحقيقـــة ذاكـري وحقيقتـــي لا شيء وهـــي مقـامـــي
وحقيقتي أني محوت حقيقتي أعوذ بالله إذ ثبتهـا منهـم مـــن الاصنـــام (٦٥)

وتدخل في اللغـة الصوفية تلك الأذكار والأدعية المعـروفة عندهم وهي في الـواقع ليست خاصة بهم ، راح أبو مسلم يضمنها شعره كما جاء هذا الدعاء المعروف:

مـــــن الشـــــح المطـــــاع والجبــــن وخـــب وخـــداع
والكبر والبهت ومذمـوم الطباعوالحرص وحسد الخلـق بما أعطاهوالجبـن وخب

التكرار:

ومن أبرز السمات التي ظهرت بها قصيدة الأبتهـال عند أبي مسلم سمة التكرار اللفظي والمعنوي، والذي له علاقة بموضوعنا هـو التكرار اللفظي الذي لا يكاد يخلو منه مقطع من مقاطع قصائدة، بل إن التكرار اللفـضي يغدو ضرورة لأزمـة للانشاد أثناء الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله مثل ان يكرر كلمة «هن الله باسم الله» في فـاتحة الذكر الأول وعنوان الذكر هو «جل جـلاله» وتتكرر هذه الجملة الشعـرية ستاً وستين مرة أي بعـدد أبيات القصيدة كلها، كما يكـرر كلمة «تعلقت بـالله» في مللع كل بيت مـن المقطع الثانى ستـاً وأربعين مرة كذلـك وفي المقطع المعنون «الـرحيم جل جـلاله» تتكرر جملـة «عسى نفحات اسـم الحيم» احدى عشرة مرة. والملاحظ أن أغلب الأبيات تبـدأ بكلمة «إليهي» أو يتكرر في أبياتها الاسم الجليل الذي عنون به ذلك المقطع فإذا كان عنوانـه مثلاً «القابض جل جلاله» بدأت الأبيات بكلمة «ياقابض» فتجيء هكذا:

يا قابض الأشياء...

ياقابض الإبداع ....

(٦٥) الديوان، ص٤و٥

(٦٦) الديوان، ص ٢٢٩

ياقابض الأكوان....

يا قابض الأسرار ...

وفي المقطع الذي عنوانة «القريب جل جلاله» تتكرر جملة «إلهي القريب»

الهي القريب الحق ...

الهي القريب الفتح ...

الهي قريب بالاجابة ..

وفي الذكر الثانى «القاموس الأسنى في أسماء الله الحسنى»

ترددت جملة «باسمك الأعظم» ثلاث عشرة مرة متتالية. وكلمة «هو أنت الله»اثنتين وعشرين مرة. وفي «خاتمة السعادة» تكررت لفظة «سيدي» في مطلع كل بيت منها ثمانى وأربعين مرة متتالية.

وفي الذكر السابع الذي عنوانه «الكلم الطيب»

تكررت جملة «بحق لا إله إلا الله» في آخر كل مجموعة أربعة أشطر.

كأن يقول:

غفرانك اللهم ياربـاه   يا سامعاً دعاء من دعاه

عبدك قد باء بما جناه   فاغفر له ما كسبت يداه

بحق «لا إله إلا الله»

تكررت هذه الجملة مائة وسبعين مرة.

أما الذكر الثامن وهو «الباقيات الصالحات» وهي كما هو معروف[٦٧] (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم)[٦٨]

فقد قسمها الشاعر الى صباحيات ومسائيات، اي الاذكار التي تتلى في الصباح والاذكار التي تتلى في المساء، وعمدتها التكرار من اول بيت الى آخر بيت وعدد أبياتها خمسمائة

٦٧- الديوان، ص ٢١٥

٦٨- الملاحظ ان الشاعر اكتفى بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير اما الحوقلة فلم ينظم فيها.

وعشرون بيتاً تقريباً.

وهو لم يكتف بتكرار كلمة التسبيح في اول البيت بل كان يختم البيت بكلمة «الله» على النحو التالي:

سبحان ذي اللطف باسم الله بالله — كم كربة حلها لطف من الله

سبحان ذي المن لم أرفع اليه يدي — فقراً فلم يغنني مَنٌّ من الله

سبحان ذي الفتح لاينفك يدركني — في كل منغلق فتح من الله

وكذلك فعل في باقي الاذكار تحميداً وتهليلاً وتكبيراً، كأن يقول:

الهي الحق ايماني ومعرفتي — في عالم الذكر اكرام من الله

الهي الحق خلصني بخالصة — بالله في الله عند الله لله

وأحيانا يبني الذكر كله على تكرار الشطر الاخير من مجموعة كل اربعة ابيات او خمسة ابيات كما فعل ذلك في «الكلم الطيب» الذي كان يكرر مابين كل اربعة ابيات هذا الشطر (بحق لا إله إلا الله) (٦٩).

هكذا نلحظ التكرار اللفظي لازمة من لوازم أغلب هذه القصائد الابتهالية، والسبب في ذلك يعود الى ان الشاعر انما نظمها لتنشد في خلوة الذكر، والانشاد لايكون الا بصوت موزون فيه جرس وايقاع يبعث النشوة في القلب، ويساعد الذاكر على الجذب والخروج من عالم الماديات كما نرى ذلك في حلقات الذكر عند الصوفية. ولعل الشاعر مراعاة لهذه الموسيقى الخارجية والداخلية عند الاداء نوع التكرار بطريقة لاتبعث الملل في النفس بل يصبح التكرار الرتيب في حد ذاته وسيلة للاسترخاء والانتشاء، مما دفعه الى التنويع مع الاوزان الشعرية والقوافي، فكان يختار من الاوزان مايساعد على الانتشاء مثل بحر الرجز الذي نظم فيه اغلب تلك القصائد وعلاقة بحر الرجز بالانتشاء علاقة حميمة معروفة في تاريخ الشعر العربي .

ويبدو ان حرص ابي مسلم على توفير هذا الجو الموسيقي الخاص خلال الانتشاء في حلقة

---

٦٩ - وانظر الديوان الصفحات ١٣٢، ١٣٣، ١٩٢، ٢٣٩، ٢٣٤، ٢١٥

الذكر-وليس من الضروري ان يكون جماعياً – هو الذي دفعه الى مراعاة الموسيقى الخارجية في كل من الضروري ان يكون جماعياً – هو الذي دفعه الى مراعاة الموسيقى الخارجية في كل قصائده مراعاة تامة، ولانعني بذلك القافية الموحدة او المتراوحة فهذا أمر مفروغ منه في القصيدة العمودية، وانما نعني ان الشاعر أحيانا يبالغ في اشتراط هذا الجانب.

مثل ان يبدأ القصيدة بحرف الالف على ان تكون قافيتها كذلك. ويبدؤها بالباء على ان تكون القافية كذلك.

يقول:

الهي لاسمك الأعلى العلاء　　　له التسبيح مني والثناء

أقمت لعزّوجهك ذل نفسي　　　فأمن النفس فيك لك البقاء

ويستمر على هذا النحو في قصيدة بلغت ثمانية وعشرين بيتاً (٧٠).

ويقول في قصيدة اخرى مراعيا هذه المرة حرف الباء.

بإسمك سيدي تجلي الكروب　　　وذكر تطمئن له القلوب

بحمدك سبحت نفسي وروحي　　　وقلبي فيك منكسر قطيب(٧١)

ويبدو أنه كان ينوي ان ينظم على هذا النحو قصائده من كل حرف من حروف الهجاء الباقية، ولكنه اكتفى بحرفين هما الالف والباء.

ولعله انصرف عن هذه التجربة اقتناعاً منه بعدم مجاراتها لسماحة الفن الشعري، اذ ان ذلك يعد تكلفا وإعناتاً للنفس، والتكلف سمة من سمات الضعف الفني لا من سمات القوة كما يقول النقاد، فإن الشاعر في النهاية يقع في الاخطاء الفنية واللغوية مهما يكن رصيده اللغوي قوياً وغزيراً.

٧٠– الديوان ص ٢٧١

٧١– المرجع السابق، ص٢٨٠

الابتهال بين الزهد والتصوف

يختلف التصوف عن بقية العلوم الاسلامية الاخرى في نشأته وتطوره، ذلك أنه لم يعرف بهذا الاسم في القرن الاول الهجري، وعرف باسم الزهد والعبادة والنسك وما إليه في القرنين الثاني والثالث، ثم أخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث الهجري. ثم ظهر فيه التطرف والافراط بعد ذلك ودخلته الفلسفة وتسربت اليه الهلوسة والدروشة .في عهد الانحطاط والتأخر، ثم بدأ يتراجع ويتصفى وتنقرض فيه الغلواء واقترن بالاخلاق والتبعية في عصرنا الحاضر[٧٢].

على ضوء هذا التفريق بين الزهد والتصوف ينبغي النظر الى قصائد الابتهال عند ابي مسلم متسائلين: أتعتبر هذه القصائد من قصائد الزهد والنسك والذكر النقي فهي تستمد جذورها من الشعر الاسلامي الاصيل ام هي فن شعري يستقي لغته وأفكاره ورؤاه من الشعر الصوفي الى الشعر المتأثر بالفلسفة السوقية اقرب ؟

ومن خلال معرفة الدوافع والاسباب التي تقف وراء ابي مسلم ليتجه هذا الاتجاه وينحو هذا المنحى نستطيع إدراك بعض الحقائق وبالتالي الوصول الى جواب مقنع او على الاقل متسم بالموضوعية.

غير اننا نود قبل ان نعرض للدوافع والاسباب ان نرسم ملامح شخصية ابي مسلم لا من شعره وانما كما حدثنا عنها عارفوه، ونذكر شهادات اولئك الذين عاشروه واختبروه.

كل الذين حدثونا عن ابي مسلم عن طريق مباشر او غير مباشر متفقون على عمق ايمان الرجل ونقاء دينه، وصفاء سريرته، واستقامة سلوكه، وأصالة سيرته وقد وصفه سالم بن سليمان بن عمير الرواحي وهو من بني عمومته واقرب عارفيه برثية قائلا :

سليل المجد محمود السجايا ... أبي الضيم، محروس الذمار[٧٣]
ابو الايتام والفقراء مهما ... عنت شهباء تهلك بالذراري
طويل الباع في كرم وحلم ... الى العلياء جواب القفار
يغار لربه ويصول فيه ... لاعداء الديانة لا يداري
إذا هموا بهضم الدين وحيا ... يكافحهم بعزم واصطبار
تسربل بالمعارف وارتداها ... ونهنه نفسه عن كل عار

---

٧٢ – د/محمد الزحيلي، مرجع للعلوم الاسلامية، ص ٦٦٨ (بتصرف)

٧٣ – ديوان ابي مسلم – ط – الحارثي – ص.ك

الى ان يقول:

ويـــــا أذكـــــاره بـــــوركـت هـــــلا   شجـــاك فـــراق شيـخ الاذّكـــار (٧٤)

إن أبا مسلم يبـدو من خلال شعـره كله مؤمنـا راسخ الايمان، متديناً يخلـص لله الدين يحض على الجهاد فيـه ذياداً عنه وتمكيناً لـه وإعلاء لكلمته مهما عظم فيـه الخطب، وتألبت دونه الشدائد والمحن، فالدين احق مايجب فيه البذل ويهون الفداء، ومنازعه الدينيةالاسلامية شاملة لاقومية محدودة. جماعة المسلمين كـافة هم معناه في اسداء النصح والدعوة الى الحق ومن قبلهم يكون يســوؤه ومايسره، وهو لذلك يأسى لتفرق كلمتهم وانصداع وحدتهم(٧٤)

إن وراء السلوك الصـــارم الذي نهج عليه ابـومسلم – ولاشك – عقيدة ايمانيــة راسـخة، وتربية دينية ملتزمة.

فأبومسلم أباضي معتز بمذهبه، مستمسك بعقيدته ينافح عنها بكل قوة كما دلت على ذلك كتاباتــه النثرية والشعريــة «لذا نجد شعره كلــه في الغالب متمحوراً حول الاستقـامة مبنثقاً عنها داعياً إليها»(٧٥).

غير ان هذه الحقيقــة تدفعنــا الى سؤال آخـر، اذا كان ابـومسلم معتزاً بعقيـدته ومـذهبه الاباضي فما الذي دفعه الى هذا الشعر ذي الطابع الصــوفي في الوقت الذي نعرف فيه موقف الاباضية من التصــوف، وهو موقف الرفض، والانكـار تاريخاً فكرياً ولعل مـوقف اباضية المغرب المتأخرين أكثـر تشددا في انكار التصوف نظرية المتصوفــة او عدم صوابها فإن علم التصوف اكثر العلوم التي تختلف فيـه وجهات نظر المسلمين كما أننا لاترغب في سرد الآراء المتباينة في قبول او رفض هذا النوع من الفكر، فذلك شأن لايعني هذا البحث على الاقل الآن.

وإنما الـذي نريـد الوصـــول اليه هــو مدى مــلاءمة الخط الفكـري والعقدي الموجـود في ابتهالات ابي مسلم مع شخصية الشاعر وانتمائه المذهبي؟

وبما انه قــد سبق لنا ان درسنا العقيـدة الاسلامية في شعر ابي مسلــم في بحث سابق فإننا نتــوجه هنــا مباشرة الى الاجابــة عن الاسباب والــدوافع التي دفعت الشاعــر الى شعر الابتهال ومدى قربه او بعده عن النزعة الصوفية.

أولا : البيئة العمانيــة:بما عــرفته من ظـروف سياسيــة واجتماعيــة خاصــة اتسمت بالاضطراب وعدم الاستقرار السيــاسي والاجتماعي،ممــن احتلاف حاد بين قبائلهــا، وتسلط القوى الاجنبية على بعض مناطقها، كل ذلك جعل اهل الفكر والرأي وذوي الغيرة على وطنهم

٧٤– الديوان، ط الحارثي.ص،ن

٧٥ – احمد بن سليمان الكندي، قصائد السلوك في شعر ابي مسلم اصدارات.المنتدى ص ٢٠٢

ودينهم يشعرون بنوع من الرغبة، أدت بهم الى طلب المدد الروحي من الله ليخلص وطنهم مما هم فيه من كل ذلك.

آية ذلك ان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي كان يتخذ من«سموط الثناء» دعاء يلهج به الى ربه، ولعل ابا مسلم سلك هذا الطريق نفسه فكانت قصائدة الابتهالية الدعاء والابتهال الى الله ليغير من حال وطنه وقومه وامته.

وليس غريبا على من نشأ في بيئة مثل عمان معروفة بمحافظتها الدينية الشديدة وتمسكها بحدود الله وأوامره ونواهيه – ان تكون سيرته على هذه الحال من الزهد والتقوى والورع.

فالسبب الرئيسي كما نرى إذاً نابع من الواقع بكل مناحيه وضغوطه السياسية والاجتماعية وفكرية ودينية ايضا مما ينفي عن الشاعر اية سمة فلسفية خارجة من تصوف او غيره.

وهذا العامل في راينا يعتبر من اقوى العوامل دفعاً لابي مسلم الى هذا الاتجاه وهو طالما ذكر في قصائدة، ومن خلال اذكاره وادعيته، الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية التي أحاطت به على النحو الذي اوضحناه عنه في دراستنا للجانب الموضوعي في قصيدة الابتهال عنده، وهو عامل موضوعي لانه رد فعل طبيعي لما آل إليه امن المسلمين من تضييع شرع الله، والاقبال على الدنيا وزخارفها، والخضوع للاجنبي الكافر يفعل بأرض المسلمين مايشاء.

« أولم يكن عجيباً ان يتقشف بعض المسلمين في عصر صدر الاسلام ويزهدوا في الدنيا لانهم تفرقوا واختلطوا بالامم التي دخلت في الاسلام وشاهدوا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني، أحدث ذلك رد فعل ظاهر فابتعد بعضهم عن الدنيا مرة واحدة وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقاً تخلفوا بها»(76).

وقد اشار الى هذا السبب القوي ابومسلم في قوله:

إلهي صراخي بالدعاء سمعته	**وليس دعاء لافتخار وسمعة**
ولكن أحاطت بي بحور مصائب	**وأعظمها ذنبي وتسويف توبتي**
سمعت ففرجها بروح ورحمة	**وإن لم اكن مستأهلاً للمثوبة(77)**

وهنا لابد من استخضار واستنطاق الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي أحاطت بالشاعر في مسقط رأسه عمان وفي ديار غربته بشرق افريقيا وزنجبار.

76– محمد السن المذهب والافكار المعاصرة في التصور الاسلامي، دار الثقافة، قطر ط ١٩٨٦ ص، ٥٣

77– الديوان، ط التراث، ص ٣٨

ثانيا :

وهو طالما ردد في قصائده العقدية ما يعبر صراحة عن اعتناقة لعقيدة المذهب الاباضي ولا سيما في عدم رؤية الباري جل وعلا في الآخرة وخلود مرتكب الكبيرة وغير ذلك مما هو مبثوث في كتب المذهب الاباضي.

هذا الشاعر الملتزم بعقيدة الشراة لانشك في اعجابه ايضاً بسلوكهم والتزامهم بتطبيق الشريعة الاسلامية في مسيرتهم الحضارية الطويلة.

وقد عرف عن الشراة زهدهم وتوجههم إلى الآخرة في كل مواقفهم سياسية كانت ام دينية عقدية ام سلوكية، فهم أنضاء عبادة واطلاح سهر، أكلت الارض جباههم وركبهم، وافنوا أعمارهم ورعاً وتقى وهم الذين افنوا رجالهم دفاعاً عن عقيدتهم التي لا ترمي الى حب الدنيا بقدر ما ترجو ما عند الله في الآخرة.

«والشراة، مسلمون بسطاء في تدينهم بساطة الاسلام الاول لكن الذي يميز عقيدتهم هو الطريقة التي تدينوا بها: تمسكاً بالعقيدة وتفانياً في سبيلها بالمراقبة الصارمة للنفس وتكريسها في خدمة الآخرة»[٧٨].

وقد شهد بذلك كل الدارسين لتاريخهم وفكرهم وادبهم شهادة اتفق عليها اصدقاؤهم وأعداؤهم، مناصروهم ومناوئوهم قديمًا وحديثاً ولعل ما يبدو في أدبهم وفكرهم من زهد وركون إلى الآخرة رشحهم ليكونوا نواة لنشأة الفكر الصوفي في مظاهره الابجابية لا السلبية. ومنهم مرداس بن حدير امام الشراة والذي توقف اعجابا بشخصيته الدكتور زكي مبارك في كتابه «التصوف الاسلامي ص٢٣» ورأى في سلوكه وتصرفه مع عبدالله بن زياد وهو في السجن ينتظر فضله مثلا للزهد والاخلاص للعقيدة ولا شك اطلاقا في عدم أطلاع ابي مسلم على سيرة امام مذهبه أبي بلال، بل نكاد نجزم بعد مقارنة عقدناها بين الرجلين أن أبا مسلم في سلوكه متأثر الى ابعد حدود التأثر بإمامه، مما يدفعنا الى القول، ان جذور الزهد عنده تضرب في أعماق تاريخ الشراة وتستقي منه.

ثالثا :

ظهرت في الأدب العُمانى هذه النزعة من الزهد في الدنيا باعتبارها زخرفا ومتاعاً قيلاً كما ظهر الى جانبها نزوع الى التصوف العملي وليس الفلسفي على الرغم مما يعرف عن مناهضة المذهب الاباضي لهذا الاتجاه بدءا من الشيخ جاعد بن خميس ولعل ابرز من يمثله في الادب العُمانى الحديث الشيخ العلامة الربانى سعيد بن خلفان الخليلي الذي ظهرت في اشعاره نزعة صوفية واضحة قائمة على النسك والذوق، وإخلاص الدين لله وحده ومعاداة كل انحراف

---

٧٨ – احمد سليمان معروف، قراءة جديدة في مواقف الخوارج – دار طلاس. دمشق ١٩٨٨، ص ١٣٠

عن الطريق السوي وكان يرى القعود عن التصوف قعوداً مع الخوالف. ومما تجدر الاشارة اليه: ان تصوف الشيخ سعيد بن خلفان لم يكن تصـوفاً سلبياً، ولم يكن فيه تلك الشطحات الصوفيـة من الحلول والاتحاد او وحـدة الوجود التي وجـدت عند ابن عـربي وابن الفارض والحلاج أو اضرابهم، وإنما كان تصوفه تصوفاً ايجابياً [٧٩].

فقد كان الشيخ كثير الصـلاة والتقرب الى الله بانواع القربـات. كثير التوسل الى الله-تعالى والتضرع له بقصـائد نظمية او نثـرية لنيل العلم والفضل والتـوفيق على القيام بـالاصلاح الاجتماعي، كثير الاسى على فقدان الحق واهلـه، وظهور الباطل، وانطماس السنة المحمـدية، وللشيخ سعيد مـؤلف قيم عنوانه «النـواميس الرحمانية» يبـدو من محتواه تأثـره الواضـح بمدرسـة ابي حامد الغـزالي الذي ينقل عنه كثيراً مـن آرائه ويشير اليه باسم الامـام الحجة تقديراً واكبارا فالخيط الصوفي لهذه المدرسة العمانية اذاً موصول بعروة المدرسة الغزالية-ان جاز التعبير لاشك في ذلك ولاريب-

وعن هذا التوجه في شعـره، وسلوكه، يقول ابنه في مقدمة مخطوطـة اشعاره «ان والدنا العلامة الـرباني، والنور الـرحماني، السالك الراغـب؛سعيد بن خلفان – رضـوان الله عليه – احق من خدم ونشرت خدماته الربانية، وأذكاره الرحمانية» [٨٠].

ومن أشهـر قصائده التي تـركت أثـراً في الاوساط الادبيـة والفكريـة في عمان قصيدتـه «سموط الثناء» التي خصها ابومسلم، قصيدته التي مطلعها:

«تقدم الى باب الكريم مقدما ،،

وقد شطرها ابو مسلم أيضا، والمعراج لسالكي المنهاج فالعلاقة الروحية والفكرية بين ابي مسلم وشيخه سعيد بن خلفان الخليلي كانت قوية مستمرة على اكثر من صعيد.

أولا : عن طريق التتلمذ غير المباشر فقد كان الشيـخ بالنسبة لذلك الجيل استاذا او شيخا عظيماً تخرجت في مدرسته مجمـوعة معتبرة من التلاميذ فبثوا المعرفة والعلـوم التي تلقوها عنه في انحاء عمان، وما مـن شك في تأثرهم بسلوكه وتدينـه. وكان والد ابي مسلم الشيخ عديم أحد الذين درسـهم الشيخ سعيد ولانشك في تأثـر ابي مسلم بوالده تربية وسلوكة على نحو ما من الانحاء.

ثانيا : الـزمالة القويـة بين ابي مسلم والشيخ احمد بن سعيد بن خلفان، فقـد كانت بين الرجلين صداقة حميمة ربطت بينهما في الُكتّاب، وجمعتهما على درب الحياة الفكرية ولم تكن

٧٩- قراءات في فكر الخليلي اعداد : محمد علي الصليبي المنتدى الادبي ١٠٣- والقراءة للدكتور عبد الحفيظ محمد حسن

٨٠- مجموعة قصائد الشيخ سعيد بن خلفان (مخطوط)ص٢٠

تلك العلاقة الروحية بينهما إلا وليدة انسجام وتقارب في الرؤية والمواقف، وقد وصف هذه الزمالة ابومسلم حيث عدها من أسباب حنينه الجارف الى وطنه عمان، وشعوره بمرارة الغربة على نفسه بهذا الصديق الحميم الذي يقول عنه:

أرتاح فيها الى خل فيبهرني صدق وقصد ومعروف وعرفان

ثالثا :

الاثر الواضح الذي تركته افكار الشيخ سعيد في ابي مسلم. وقد تجاوز هذا التأثر بالقراءة للآثار العلمية والادبية الى ان يصبح تأثراً بالشيخ نفسه اخلاقه وشخصيته، ومواقفه وسلوكه، ورؤيته الى الاحداث السياسية والاجتماعية والفكرية من حوله، ولاسيما تلك التي كانت تهز عمان وتعصره في شبه مخاض عسير مابين فترتى الامامي العظيمين عزان بين قيس وسالم بن راشد.

ولعل اقوى بصمات الشيخ سعيد ظهرا واضحة في شعر ابي مسلم ولاسيما في اذكاره وابتهالاته التي لانشك اطلاقاً في استفادتها من تجربة الشيخ سعيد الشعرية ولاسيما في مجال الابتهال والذكر والزهد، واكاد اقول : (التصوف)

يقول ابومسلم متحدثاً باعجاب شديد عن الشيخ سعيد بن خلفان الخروصي:

«ان شهرة سيدي القطب الجليل العارف بالله سعيد بن خلفان طيب الله ثراه واكرم مثواه شهرة الشمس في كبد السماء، وقد بلغ من علمي الظاهر والباطن مبلغاً عظيماً، دلت عليه آثاره وله كلام في السلوك والحقيقة دل على قدم راسخ في الكمال والتكميل، وعلى مقام عال من المعارف اللدنية ودرجة سنية من مراتب الذوق، وكلامه نظماً ونثراً برهان صادق قاطع على ان علمه كشفي وهبي لايطيق أداءه الا من اكرمه الله بالوصول واقامه مقاماً رفيعاً من المدد والفتح»(٨١).

وقد ظهر ذلك في شغف ابي مسلم بتخميس وتشطير شعر الشيخ سعيد بن خلفان، كما بينا ذلك في مكانه من هذا البحث.

والواقع ان هذا الاتجاه الزهدي عند الشيخ سعيد هو امتداد طبيعي لمدرسة تضرب بجذورها في الاجبال السابقة من مشايخ عرف عنهم هذا السلوك الربانى مثل استاذ الشيخ العالم النحرير ناصر بن ابي نبهان الخروصي، وكان لهذا الشيخ باع طويل في علوم

---

(٨١) الديوان المخطوط ص٢٧٨

الشريعة الغـراء، واصبح شيخ زمانه. وقـد تلقى العلم على يد. والده العـلامة الكبير المسمى بالعالم الرباني والسيد الرئيس جـاعد بن خميس الخروصي، اذ كان هذا الشيخ راسخ القدم في علمي الحقيقة والشريعة[٨٢] وهو معروف بأشعاره في الالهيات.

ويبدو من آثار هؤلاء المشايخ تأثرهم الواضح بحجة الاسلام ابي حامـد الغزالي الذي الغزالي يعتبر من اشـهر علماء الاسلام ترسيخا لعلم السلوك والروحانيات والتصوف العملي. ومن هنا نفهم جذور هذه المدرسة وتأثرها الذي لاريب فيه في كل هؤلاء الاقطاب.

ولم تنفرد عمان او زنجبار بهذا الاتجاه او هذا السلوك فقد كـانت موجة عارمة اجتاحت العالم الاسـلامي كلـه، فكثرت الطـرق الصوفيـة هنا وهنـاك، وقد ادى تطـرف بعضـها الى الوقوع فيما تحرمه الشريعة الاسلامية من غلو في الاعتقاد وانحراف في السلوك.

ولكن كان الى جانب هؤلاء ايضاً العارفون الربانيون الذين كانوا دعاة مخلصـين الى انشاء الـروح والحقيقـة في العبادات وشحـن بطاريـة القلـب بـالاخبـات والانـابـة وشفع الاعمال بالاخلاص والاحتساب، وقد خرّجوا في الاصلاح والتزكية والاحسان أئمة ومحققين انتفعت بهم اجواء واسعة من العالم الاسلامي[٨٣] . والى بعض شيوخ تلك الطرق الصـوفية يرجع الفضل الى بعث النهضة الاسلامية في قلوب المسلمين في مواجهة الكفر والالحاد والتغريب.

على ان الدعـوة الى الزهـد في الدنيـا دعوة اسـلامية صحيحـة احتفل بها القرآن الكـريم وقدمهـا للمسلمين في صور مـوحية شتى تصور الـدنيا على انها زخـرف لايدوم، وخضرة ماتلبـث ان تصوّح، وهذا لايعنـي اطلاقاً الا يـأخذ المسلم منهـا بنصيبه اذ دعـا الاسلام الى العمل فيهـا مع عـدم التعلق بها لانها متـاع قليل، ولان الهدف الاسمـى للانسـان ان يحيـا الحياة الحقيقيـة في الآخرة وان يزهـد في الدنيا وان يعيـش فيها كأنه غـريب عنها او عـابر سبيل، ليترفع عن ادرانه المادية ويسمو الى المثل العليا، والاخـلاق الفاضلة والصلة الروحية برب العالمين وهي العلة التي من اجلها خلق الانسان﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ الذاريات ٥٦ .

ومن هنا نشأ علم الزهد، ثم تطور الى علم التصوف واقترن بالاخلاق والسلوك.

خاتمة

ونخلص من هذا العـرض الى انه لابد من دقـة موضوعية حين الحكم على هذا النوع من الشعر في علاقته بالشعر الصوفي، فالحكم ينبغي ان يستند الى النصوص نفسها، اذ ليس كل شعـر ابتهالي ينضـوي تحت الشعر الصـوفي؛ لأننا عنـدما نعـود إلى التراث الاسلامـي نجد

٨٢– قراءات في فكر الخليلي ص ١١٦ والنص للدكتور مبارك بن راشد السيابي

٨٣– محمد الحسن الندوي. التفسير السياسي ص ٦٤ بتصرف

مستويـات متعددة في هذا النوع مــن الشعر فمنه شعر الـزهد الخالص الذي وضــع بذوره الشراة، وبلغوا فيـه قمة السمـو الروحـي لما تميز به مـن صدق واخــلاص وعفويـة والتزم بالعقيـدة الاسلاميـة الصافية ورفـض كل بهارج الـدنيا وزخـارفها،**وثمة شعـر الابتهال والدعاء** والتضرع لله الصادر عن الشاعر في حالات وجده وحاجته الى ربه تعبيراً عن ضعفه من جهة، وتعلقاً بـربه من جهة ثانية وهو خـال من كل علاقة بالتصوف كـالذي نجده عند ابي العتاهية والبوصيري والسهروردي مثلاً **وثمة شعر التصوف الفلسفي الذي تتداخل** فيه **المصطلحات الصوفيه** ويعرف بمواقـف اصحابه المغاليـة التي ينكرها الشرع الحنيـف مثّل وحدة الوجـود التي هي مدار تلك الفلسفـة المشبهة واقطاب هذه المدرسـة معروفون، وعلى راسـهم محيي الدين بن عربي.

إذاً لابد من التفـريق بين المواقف والرؤى والتصـورات حتى لا نظلم الشاعـر، ولا نكتفي بمجرد ورود مصطلحات وألفاظ وتعـابير قد يكون استعارها او تأثر بها مـن خلال قراءاته ومعايشتـه لشعر التصـوف، هذا مـن جهة، ومن جهة اخـرى لابد ان نشير الى ان بعـض الافكار التـي طرحهـا ابو مسلـم في قصائده مثل التـوسل بـالاولياء الصـالحين والاقطاب، والابدال وما اشبهـه، وعقيدته في شخص الرسـول ﷺ بأنه علة الكون، اضــافة الى اكتظاظ معجمـه الشعري بـالمصطلحات الصـوفية كـل ذلـك يرجـح تأثُّر شعـر أبي مسلم بشعـر التصوف ان لم يكن التأثير في الرؤية والمواقف فهـو تأثير واضح في التجربة الشعـرية من جانبها الفني على الاقل.

ومن طبع الشاعر المبـدع ان تكون لغته منتقاة من العوالم التي يحياهـا سواء تلك العوالم التي يحيـاها واقعاً معيشياً، ام تلـك العوالم التي ينـدمج فيها اثنـاء قراءاته الادبية بخـاصة والمعرفية بعامة.

القــراءة الســادسة

الاطـار الموسـيقي لشـعر أبـي مســلم البهــلاني الرواحــي

محمـد بن ناصـر المحــروقي

جامعـة السـلطان قابـوس

تمهيد :

تحتل الموسيقى جانبا أساسيا في بناء الخطـاب الشعري العمودي ويعتبر الوزن والقافية من اهم مكونات هذه الموسيقى، وشعر ابي مسلم البهلانى بـاعتباره شعراً عمودياً من جهة منبريا من جهة أخرى، يعنى بالتأثير عل المتلقين وتوصيل مجموعة من الخطابات النهضوية اليهم، ويهتم بالموسيقى كاداة فعالة اهتماما خاصا.

وكان ان جرى ابـومسلم في موسيقـاه الشعرية على سنن المرحلـة الزمنية التي عـاشها، والمواكبة للبعث الشعـري في العالم العربي، ومن هنـا يبرز التزامه بالعـروض الخليلي وعدم مجاوزته ، وذلك لامرين:

١ – سار الشــاعر على النهج الذي خطه كبـار شعراء العرب في العصـور الادبية، والتي تراكم انتاجها الشعر العربي، وكان من بينها الوزن الشعري ولم يقيض للشاعر في اعتقادنا في اعتقادنا ان يطلع على اتجاهات الشعر الاوروبي او الفارسي او غيرهما فيفتح ذلك له آفاقا أخرى.

واطلاعـه على الشعر الســواحيلي لم يكن كافيـا لاثارة مثل تلـك النوازع فهـو-أي الشعر السواحيلي – يبدو اكثر تـواضعا الى جانب الانتاج الشعري العربي بتـاريخه العريق ومادته الضخمة.

وجهود ابي مسلم في هذا الاطار تشير الى العكس، فقد حـاول اخضاع الالفاظ السواحلية للقواعد الخليلية، فاستخدمها قافية لقصائد كتبت بالعربية وعلى أوزان العروض الخليليه[١]

٢ – لم يكن الشــاعر مشغـولا بفكـرة إحداث اي تغيير في نمطيـة الشعر العـربي، وإنما انسكب جل اهتماماتــه على مجتمعه ومحاولة تغيير بعض المظـاهر التي لايرتضيها الشــاعر، فالشعر عنده وسيلة لاغاية بحد ذاته.

أولا الوزن : الاستقراء

يوضح الجدول التالي الاوزان الشعرية التي استخـدمها ابومسلم البهلانى ونسبة شيوع كل منها:

---

١ – يروى الاستاذ عبدالله بن سلطان المحروقي في ذلك قصيدة منها:

أحبتنـــا رحلتـم عنـي (جـــوزي) (البـــارحـــة) ... فـــواقكـم حشـى قلبـي مشـــــوزي (حـــــزن)
رحلتم نحـو أرض الخير (بميمبا) (جـزيـرة معروفـة) ... زيــــارتكـم عــــوامــــا او لمويـــزي (شهـــــر)
فـإن طـــــالــــت زيــــــارتكـم (مليلي) (كثيراً) ... فــــردوا لي فــــؤادي مـع بميـــزي (قلبـي)

مقابلة ١٠/١/١٩٩٤م ، مسقط.

الترتيب	البحر	عدد القصائد	عدد الابيات	نسبة الشيوع
١	الطـــويـــل	٢٧	٣٨٦٢	٪٤٠,٨٩٩٪
٢	البسيــــط	١٨	١٩٨٢	٪٢٠,٩٨٤٪
٣	الـــرجـــز	٧	١٥٥٢	٪١٦,٤٣١٪
٤	الكـــامـــل	١٤	٧٣٠	٪٧,٧٢٨٪
٥	الخفيـــــف	١٢	٦٥٠	٪٦,٨٨١٪
٦	الــــرمـــل	٦	٢٣٣	٪٢,٤٦٦٪
٧	المتقـــــارب	٤	٢٠٥	٪٢,١٧٠٪
٨	الــــوافــــر	٣	١٤٤	٪١,٥٢٤٪
٩	مجزوء الكـامل	١	٦٤	٪٠,٦٧٧٪
١٠	المديـــــــد	٢	٢٠	٪٠,٢٢١٪
١١	مجزوء الـرمل	١	٣	٪٠,٠٣١٪
	١١	٩٥	٩٤٤٥	٪٩٩,٩٩٢٪

الملاحظة:

ومن خلال الجدول السابق تأتى لنا ملاحظة التالي:

١ – التزم الشاعر بالعروض الخليلي التزاما كاملا.

٢ – أكثر البحور الشعرية ترددا هو بحر الطويل.

٣ – أقل البحور الشعرية شيوعاً بحر المديد.

٤ – لم يستخدم الشاعر الأوزان المجزوءة الا بصورة نادرة.

التأويل :

نظرا ابومسلم البهلانى في ديوان الشعر العربي فانطبع على خاطـره تكرار بحور معينة، كالطويل والبسيـط والكامل ، وارتسمت في مخيلته أوزانها وصارت قريبـة التناول منه كلما اراد النظم عن تجربة ما.

وبحر الطـويل – على وجه الخصـوص – من أشهر البحور وأكثـرها دورانـا على ألسنة الشعراء.

يقول واحد ممن له بصر نافذ بالشعر وهو ابوالعلاء المعري:

«ان اكثر اشعار العرب من الطويل والبسيط والكامل» ويعقب الاستاذ محمود مصطفى على هذا الكلام بقوله:

«وهذا صحيح يدل عليه الاستقراء» [1].

من هنا يشكل بحر الطويل لدى أبي مسلم البهلاني مانسبته ٤١٪ تقريبا، أي يقترب من تغطية نصف انتاجه الشعري، وجاء بعده بحر البسيط بنسبة ٢١٪ ثم الرجز بنسبة ١٦٪[2] والبحر الاخير تقترب موسيقاه من موسيقى بحر الكامل اقترابا شديدا ، وقد ورد بحر المديد في ذيل القائمة فهو بحر تقل نماذجه في ديوان الشعر العربي القديم[3].

ان محاولة الربط بين البحور الشعرية ومناسبتها لاغراض معينة ظاهرة قديمة في النقد الادبي؛ فحازم القرطاجي يقول في مناهجه:«فالعروض الطويل نجد فيه أبدا بهاء وقوة، ونجد للبسيط بساطة وحلاوة، ونجد للكامل جزالة وحسن اطراء، وللخفيف جزالة ورشاقة، وللرمل لينا وسهولة، ولما في المديد والرمل من اللين كانا اليق بالرثاء»[3].

وكان من الطبيعي ان يهتم بهذه الفكرة الاتجاه التحليلي النفسي في النقد الحديث[4] وعندنا انه قسر للامكانيات الموسيقية التي يوفرها العروض العربي، والتي تفتح امام الشاعر الفرصة المواتية لتوظيف ما يناسب تجربته الخاصة، وربما وقع الشاعر ونظم على بحر ما دون أدنى تخير منه ان البحر العروضي الواحد يضم أنماطا موسيقية متعددة فهو في صورته التامة غيره في صورته المجزوءة او المشطورة او المنهوكة.

كذلك فقد جاءت قصائده ذات بحر موحد وفي اغراض متعددة، مما ينفي الفكر السابقة وهم اذا ذهبوا الى ان المديد والرمل لما فيهما من لين «اليق بالرثاء» على حد تعبير حازم القرطاجي، فقد نظمت الخنساء مرثياتها في أكثر البحور، كما ان مرثية ابي ذؤيب الهذلي، وهي من فوائد المرثيات، جاءت في بحر الكامل ولم تأت في بحر المديد.

١- انظر، الاستاذ محمود مصطفى، شرح كتاب (اهدى سبيل الى علمي الخليل)، العروض والقافية، شرحه وضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور. ص ١٥٦ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥، ط٢.

٢- بتحوير بسيط على تفعيلة بحر الكامل «متفاعلن» ما يسميه العروضيون «الاضمار» أي تسكين الثاني المتحرك، فتصير «متفاعلن» الى «متْفاعلن» وهي نفس القيمة الموسيقية لتفعيلة بحر الرجز «مستفعلن».

٣- يعلل الدكتور ابراهيم انيس قلة نماذجه بانه يمكن ان يكون صورة لبحر الرمل او وزن قديم هجره الشعراء، راجع د.ابراهيم انيس موسيقى الشعر، ص٩٨و٩٩، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨ ط٦.

٤- نقلا عن الدكتور حسني عبد الجليل يوسف، موسيقى الشعر العربي ج١، ص٢٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩م.

ثانيا القافية:

يقدم الـدكتور ابراهيم أنيس التعـريف التالي للقافيـة ، «ليست القافية الا عـدة اصوات تتكـرر في أواخر الاشطـر او الابيات في القصيـدة فهي بمثابـة الفـواصل الموسيقية يتـوقع السامع ترددها»[1].

وتلعب القافية دورا مناسبا في موسيقى الشعـر العمودي، ولقد تم النظر اليها على الدوام من قبل النقـاد العـرب القدمـاء على انها احـدى الخصـائص المميزة للشعـر عن النثـر فهي «شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولايسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية»[2].

واذا كـانت مـوسيقـى الـوزن تتحقق من خـلال تـوزيـع تنـاسبي معين بين الصـوامت والصـوائت من الحروف فـان موسيقـى القافيـة تتحقق من خـلال التشـاكل بين الحروف الواقعة في نهاية كل بيت شعـري.

ويحفل علم القافية بالعديد من الامكانات الموسيقيـة التي توفرها القافية بدءا من تكرار حرف معين في نهاية كل بيت وهو ما يعرف «بالروي» ووصولا الى التـزامات يفرضها الشاعر على نفسه ويتفنن في ابتكـارها بصور عـديدة، كما في الفن المسمى «لزوم مـالايلزم» وبينهما اشكال عديدة لتنويعات القافية.

أ – التصريع :

يعنى الشعراء بمطـالع قصائدهم عناية خـاصة، ذلك لانها اول ما يصافح السـامع، فان نجح الشاعـر في اجتذاب اهتمام سامعـه والا انصرف عنه، ويقترب من هذا عـادة الشعراء في افتتاح قصـائدهم بالغزل لانه أعلق بـالنفوس[3] ومن المواضيـع التي تستحـوذ على اهتمام السامعين، وهنا نلاحظ تأثيرا قصد به التواصل بين الشاعر وجمهوره الى البناء الشعري.

حاول النقاد العرب وضع تصورات محدودة حول ما يجب ان يكون عليه المطلع الشعري وتبقى هـذه التصورات تتصل بتشكيل القـافية، وهو مـا يسمى بالتصريع اي التشـاكل بين الحرفين الاخيرين في شطري البيت.

ويهتم ابومسلم البهلانى بـاحكام مطالع قصائده، فقد كان معنيا بالتأثير على مخاطبيه،

١– انظر، د.حسني عبدالجليل يوسف، موسيقى الشعر العربي المرجع ساق ص ٢٠

٢– د.ابراهيم انيس، موسيقى الشعر ص ٢٤٦، مرجع سابق.

٣– ابن رشيق العمدة، ص ١٥١ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل – بيروت ١٩٧٢م

وحثهم على مجموعة من القيم الاستنهاضية التي كان ينادي بها، من ذلك مطلع نونيته المشهورة:

تلك البوارق حاديهن مرنان فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان[1]

فالتصريع هنا هو التشاكل القائم بين العروض (مرنان) والضرب (وسنان).

ويبتدىء قصيدة اخرى بالمطلع التالي:

الا هل لداعي الله في الارض سامع فما بأمر الله ياقوم صادع[2]

فالعروض (سامع) والضرب (صادع) جاءتا متشاكلتين من حيث انه آخر كل منهما حرف العين، وكذلك تشاكلت الصيغة الصرفية لكل منهما فهما على صيغة (فاعل)، وهذا يعزز فاعلية التصريع بالاضافة الى ان جهارة حرف العين، مما يلفت الانتباه إلى مايقوله الشاعر.

وقد حافظ ابو مسلم البهلاني على تحقيق التصريع في غالب مطالع قصائده الشعرية ذات المضامين المختلفة، من هذه المضامين الرثاء، والشاهد على ذلك مطلع قصيدة رثى بها الشيخ محمد بن يوسف.

عش ماتشاء وراقب فجحة الأجل سينقضي العمر في بطء وفي عجل[3]

والتشاكل هنا بين العروض (الاجل) والضرب (عجل)

ب : الروي :–

وهو الحرف الذي يلزم تكراره في نهاية كل بيت واليه تنتسب القصيدة فيقال لامية المهلهل وعينية ابي ذؤيب ورائية الخنساء ويوضح الجدول التالي احرف الروي التي استخدمها ابومسلم ونسبة ذلك الاستخدام :

---

١ – ديوان ابي مسلم ص ٢٩٩

٢ – ديوان ابي مسلم ص ٣٢٧

٣ – ديوان ابي مسلم ص ٣٨٥

مسلسل	الروي	عدد القصائد	عدد الابيات	نسبة الشيوع
١	ت	٦	١٨٠٠	٪٢٢,٣١٨٪
٢	ل	١٣	٩١٢	٪١١,٣٠٨٪
٣	هـ	٥	٨٥٠	٪١٠,٥٣٩٪
٤	ر	١١	٧٨٦	٪٩,٧٤٥
٥	أ	٥	٧٥٠	٪٩,٢٩٩
٦	م	١٠	٦٠٨	٪٧,٥٣٨
٧	ن	٨	٥٨٣	٪٧,٢٢٨
٨	د	٨	٥٣٦	٪٦,٦٤٦
٩	ع	٢	٣٦٩	٪٤,٥٧٥
١٠	ي	٥	٣٣٦	٪٤,١٦٦
١١	ب	٥	١٦٧	٪٢,٠٧٠
١٢	د	٣	١٤٩	٪١,٨٤٧
١٣	ح	٢	٦٦	٪٠,٨١٨
١٤	ط	١	٥٧	٪٠,٧٠٦
١٥	ف	٢	٥٢	٪٠,٦٤٤
١٦	ق	٢	٢٤	٪٠,٢٩٧
١٧	ك	١	١١	٪٠,١٣٦
١٨	س	٢	٩	٪٠,١١١
المجموع	١٨	٩١	٨٠٦٥	٪٩٩,٩٩١

الملاحظة :

١ – يمثل حرف التاء المرتبة الأولى من حيث نسبة الشيوع.

٢ – جاء حرف السين في المرتبة الاخيرة.

٣ – عدم التناسب بين عدد القصائد وعدد الابيات، فعدد القصائد التي جاءت على حرف التاء – مثلا – ست قصائد، وعدد القصائد التي جاءت على روي حرف اللام ثلاث عشرة قصيدة، بينما تشير نسبة الشيوع لصالح حرف التاء بما يزيد على النصف.

التأويل:

يسرف النقاد في تأكيد الارتبـاط بين القافية وموضوع القصيدة الى حـد يظهر فيه المهرة بالشعر من النقاد القدامى، وهم يصطنعـون القافية وينصبونها للبيت، كأنهم صيادون القوا شباكهم في انتظار الفريسـة، يصور ذلك ابن رشيق القيراني حيث يقول:-

«ان من الشعراء من اذا أخذ في (صنعة الشعر) كتب من القوافي مايصلح للوزن الذي هو فيه ثم أخذ مستعملهاوشريفهاوما ساعد معـانيه، وما وافقها، واطرح ما سوى ذلك، الا انه لابد ان يجمعها، ليعيد فيها نظره وهذا الذي عليه حذاق القوم»[1].

واذا كنا نذهب الى انكار حتمية ارتباط القافية بالموضوع فاننا نقول، ان مثل ذلك التصنع الذي اشرنا اليه ناتج عن الالتزام بالقافية الموحدة وعدم الخروج عليها، وان بلغت حدا كبيرا، يأتى على مخزون الشاعر المحدود حتما من الالفاظ التي تسعفه لتركيب القافية.

وفي هذا الاطار تبلغ احدى القصـائد التي نظمها ابومسلم البهلاني (١٥٩٧ بيتا) ولاشك ابدا في انه تصيد لقوافي هذه القصيدة كما تصيد غيره.

وطول بعض القصـائد يفسر ذلك الاضطراب في انعدام التناسب بين عـدد القصائد وعدد الابيات، كما يظهر الجدول الســابق ذلك بالنسبة للقصائد التـي وردت على رويّ حرف التاء (انظر الملاحظة رقم٣).

ويمثل حرف التاء المرتبة الأولى ففي قصيدة بنيت على رويّ حـروف التاء نظمها الشاعر على نمط قصـائد مشهورة في المجال الـديني، وربما كان من اشهـرها قصيدة ابـن الفارض التائية الكبرى والتي بلغ عدد ابياتها (٧٦١ بيتا)، أي ان طول قصيدة ابي مسلم بلغ ضعف قصيدة ابن الفارض، فهل لنا ان نفهم ذلك على انـه رغبة في التجاوز؟ وربما يسعفنا على هذا الفهم امر آخر، وهو اختيـار التاء كروي لقصيدة طويلة، وهـو - كما يدل عليه الاستقراء - من الحروف القليلة الشيوع.

ففي دراسة الدكتور ابراهيم أنيس حول احرف الروي في الشعر العربي ونسبة شيوعها، «يأتي حرف التاء في القسم الثالث ضمن اربعة اقسام مما يعني قلة شيوعه»[2].

١- ابن رشيق العمدة ص ٢١١

٢- ابراهيم انيس، موسيقى الشعر ص ٢٤٨ مرجع سابق

وامعانا في خلخلة النتائج الاحصائية التي أجريت على حروف الرويّ في الشعر العربي[1]، يسجل حرف السين أدنى نسب التردد في شعر ابي مسلم البهلانى فلا يزيد عدد الابيات التي رَويُّها حرف السين على تسعة ابيات.

ج - التخميس :

المخمسات نمط من القصائد مبني على نظام الاشطار، وتتحد فيها «قافية» الشطر الخامس في كل مخمسات القصيدة بينما تختلف الاشطار الاربعة في كل تخميس عن الآخر، وغالبا ما يأتي المطلع متحداً في قوافي اشطاره الخمسة التي تحتل اللازمة او الشطر الخامس في المخمسات جميعها [1].

ولقد ورد هذا النمط من القصائد عند ابي مسلم الهلاني جريا على عادة شعراء تلك الفترة في تخميسهم للقصائد المشهورة، والتخميسات التي نظمها ابو مسلم كالتالي:

١- درك المنى في تخميس سموط الثناء وقصيدة «سموط الثناء» للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي.

سموط ثناء في سموط فريد   بكل لسان قد بثثن وجيد[2]

اما تخميس ابي مسلم فأوله:

أوجه باسم الله وجه شهودي   لعز جلال الله رب وجودي

تسابيح اخلاصي له وصمودي   سموط ثناء في سموط فريد

بكل لسان قد بثثن وجيد[3]

---

١ - نشير هنا الى الموازنة التي اجراها محمد الهادي الطرابلسي على النتائج الاحصائية والتي قام بها كل من د. ابراهيم انيس على الشعر العربي، وسعد مصلح على شعر الشابي، ودراسته هو نفسه على شعر شوقي ولخصهما كالتالي: فاصوات الراء والميم والتاء والنون واللام والدال تحظى باكثر نسبة في الاستخدام رويا عند شوقي وعند عامة شعراء العربية الذين درست اشعارهم انظر محمد الهادي الطرابلسي (خصائص الاسلوب في الشوقيات ، ص٤٦) منشورات الجامعة التونسية السلسلة السادسة الفلسفة والآداب ١٩٨١م.

٢- د.حسني عبدالجليل يوسف، موسيقى الشعر العربي ص ٣٧، مرجع سابق.

٣- مخطوط «ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي»، الناسخ محمد بن عبدالله الكندي، ١٣١٤هـ

ونظام قافيتها يجري على النحو التالي:

———— د   ———— د

———— د   ———— د

———— د

———— د   ———— د

———— د   ———— د

———— د

وقد نظم هذا التخميس على وزن بحر الطويل ويشير العروضيون الى ندرة خروج المخمسات عن بحر الرجز، لانه كما يقول ابن رشيق بحر «وطيء سهل المراجعة»(١).

فالتخميس يعتمد اعتمادا كبيرا على الصنعة، ذلك ان الشاعر يعمد – غالبا – الى أبيات قصيدة مشهورة فينظم مايتواءم ومضمون تلك الابيات مما يحوجه الى كد الذهن اكثر من الاستجابة للدفق الشعوري.

ومن هنا تأتى مقدرة الشاعر في ان يضيف معاني جديدة تتسق مع المعاني التي تقدمها ابيات القصيدة الاصل، وان لاتظهر الاشطار الثلاثة – وهي التي من نظم المخمس، وكأنما أوتي بها للوصول الى شطري الاصل، وعلى سبيل الخصوص فقد نجح ابومسلم البهلانى في هذا التخميس الى ابعد الحدود فذاع تخميسه(٢).

ونستأنس هنا برأي واحد من أعلام عمان الكبار هو سماحة الشيخ احمد بن حمد الخليل مفتي عام السلطنة الذي يقول عن مهارة ابي مسلم في هذا التخميس: «فالمطلع على هذا التخميس من غير ان يعرف ان الاصل لغير المخمس يتوهم ان الجميع لناظم واحد نظرا للتوافق والانسجام اللذين بين الاصل والتخميس»(٣).

٢ – «هو الله فاعرفه»، جرى فيه على نفس نظام التخميس السابق، كما جاء على وزن بحر الطويل.

١– د.حسني عبدالجليل، موسيقى الشعر العربي ٢، ص ٤٢، مرجع سابق.

٢– سماحة الشيخ احمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة، فعاليات ومناشط، ص١٨٨، حصاد انشطة المنتدى الادبي لعام ١٩٩١م – ١٩٩٢م اعداد محمد علي الصليبي و اصدر ديسمبر ١٩٩٣م.

٣ – مخطوط «ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي – مصدر سابق.

والقصيدة المخمسة للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي

تقـــدم الى بـــــاب المليك مقــــدمـــا لــــه منـك نفســا قبـل ان تتقـــدمـــا[1]

أول تخميس ابي مسلم :

هـو الله فـــاعـرفـه ودع فيـه مـن ومـا دعـــــاك ولم يترك طـــــريقك مظلما

عن الحق نحـــو الخلق يـدفعـك العمى تقــــدم الى بـــــاب المليك مقــــدمــــا

لــــه منـك نفســا قبـل ان تتقـــدمـــا[2]

٣ – «**مقدس النفوس**» أنشأه الشاعر ابتكارا، وعلى بحر الرجز، فاوله:

اصبحـــت لا أملـك للنفس وطـــــــر ولا أرد ذرة مــــن القـــــــــــدر

احمد مـــــــــــولاي على خير وشر مستسلما لما قضي ومـــــا قــــــدر

منتهيـــــــا عما نهى لما امـــــــر[3]

٤ – «**الكلم الطيب**» انشاه الشاعر ابتكارا وعلى بحر الـرجز ويتميز بان الشطر الخامس فيـه عبارة عن لازمـة تتكـرر في نهاية كـل مقطع، وهي :«**بحق لا الــه الا الله**» واول هذا التخميس:

غفـــــرانــك اللهـــم يــــــاربـــــاه يــــاســـامعــــا دعـــاء مـن دعـــاه

عبـــدك قـــــد بـــاء بما جنـــــاه فـأغفـــــر لـــه مـــاكسبـت يـــداه

بحـــــق لا ا الـــــــــــــه الا الله[4]

٥ – «**فاتحة الدعوة المباركة**»، أنشأه الشاعر ابتكارا وعلى بحر الـرجز والشطر الخامس فيه عبارة عـن لازمة تتكرر في كل المقاطع التـالية، واللازمة هــي «والنصر والتفريج والفتح المبين» وأول هذا التخيمس.

الله الله هـــــــو الله أحـــــــــد الله الله هــــــــو الله الصمـــــــــــد

سبحــــانــــه عن والـــــد وعـن ولـــد ولم يكـــن لــــذاتــــه كفــوا أحـــد

بحـــــق لا الـــــــــــــه الا الله وحــــــق اسمائك عجـــــــل المدد

والنصر والتفـريـج والفتح القــريب[5]

---

١ – مخطوطة ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي مصدر سابق

٢ – ديوان ابي مسلم ص ٤٤ ٣ – ديوان ابي مسلم ص ١٧٢

٤ – ديوان ابي مسلم ص ١٩٢ ٥ – ديوان ابي مسلم ص ٢٣٩

الايطاء

وهو ان يكرر الشاعر الكلمة التي تأتى في نهاية البيت بلفظها قبل سبعة أبيات[1]، وربما وقع تكرار كلمات محددة أكثر من ذلك، لاسيما في الشعر الديني الذي يأتى في البعض منه كأذكار تتلى في مجالس مخصوصة، ولابي مسلم قصيدة طويلة عدد ابياتها ٥٢٣ بيتا، كرر فيها لفظ الجلالة (الله) في آخر كل بيت من أبياتها ومن هذه القصيدة:

سبحان ذي اللطف باسم الله بالله	**كم كربة حلها لطف من الله**
سبحان ذي المن لم أرفع اليه يدي	**فقرا فلم يغنني مَنٌ مِنَ الله**
سبحان ذي الفتح لاينفك يدركني	**في كل منغلق فتح من الله**
سبحان ذي النصر كم ظلم منيت به	**فقام بالعدل لي نصر من الله [2]**

والشاعر يقسم قصيدته الكاملة الى ثمانى قصائد جزئية يلتزم فيها الى جانب القافية الكلمة الاولى لكل بيت ، فالقصيدة الجزئية الاولى تكون عى النمط التالي:

سبحان ______ ______ الله

والقصيدة الثانية :

سبحان ______ ______ الله

والقصيدة الثالثة :

الهي الحق ______ ______ الله

القصيدة الرابعة :

الله اكبر ______ ______ الله

ثم يعود في القصائد الاربع الجزئية الى النمط ذاته

وقد استحسن الدارسون هذا التكرار اذا كان في اعادة الكلمة مسعفة للنفس كلفظ الجلالة او اسم المحبوب [3]، كما ان التغني بهذه القصائد في مجالس الذكر يتطلب تلك اللازمة التي يكررها الذاكرون مع حركات جسمانية ملتزمة الايقاع.

---

١ – انظر د.حسني عبدالجليل، موسيقى الشعر العربي، ج١ ص ١٤٥، مرجع سابق الديوان لم ترد كلمة «من» ولايستقيم السياق ولا الوزن بغيرها.

٢ – ديوان ابي مسلم ص٢١٤

٣ – د.حسني عبدالجليل يوسف، موسيقى الشعر العربي ج١ ص ١٤٥ ثم انظر قدامة بن جعفر «نقد الشعر» ص٣٨ والعسكري في الصناعتين ص٢٧٥، وابن رشيق في «العمدة ج٢ ص ٢٧،٢٦» عن محمد الهادي الطرابلسي «خصائص الاسلوب في الشوقيات ص٢٨٢ هامش (١) مرجع سابق

ثالثا : ظواهر موسيقية أخرى:

١ – ظواهر تركيبية . الترصيع :

يلجأ الشاعر الى احداث نوع من النغم الموسيقي ناتج عن تقسيم شطري البيت الشعري الى وحدات متساوية ويسميه النقاد القدامى »الترصيع» وهو يقابل السجع في العبارات النثرية.

وقد استخدم ابومسلم البهلانى التقسيم الرباعي من بين امكانيات تقسيم الشطرين المتعددين، وذلك على صورتين:

أ – تماثلت فيه القافية وحركة رويها، ونظامه:

———— م ———— م ———— م ———— ن

شم اذا حزموا نار اذا عزموا شهب اذا رجموا للفضل هتان(١)

فالقافية الداخلية هي حرف الميم جاءت في ثلاثة مقاطع وحركتها الضم، وخالف المقطع الرابع ذلك بحرف النون اذ التزم القافية الاصلية للقصيدة، ولايكاد يظهر ذلك الخلاف لتقارب مخرجي الميم والنون.

ب – تمثلت فيه قافيتا الشطر الاول، وحركات الروي في كل شطر ونظامة.

———— م ———— م ———— ب ———— ن

صعب شكائمهم سحب مكارمهم ان حاربوا صعبوا او اكرموا هانوا(٢)

وقد جاءت قافية المقطعين الاولين ساكنة (م) وقافية المقطعين الآخرين متحركة (ب – ن) تمنح القافية الداخلية طاقة دلالية في بيان صفات المدوحين والالحاح عليها، وهي صفات تتمحور حول القوة والكثرة.

ظواهر لفظية :

١– رد الاعجاز على الصدور :

وقد ورد في شعر ابي مسلم البهلاني تمطان منهما،

---

١ – ديوان ابي مسلم ص ٢٠٩

٢ – ديوان ابي مسلم ص ٢١١

ما وافقت اول كلمة في الشطر الاول آخر كلمة في الشطر الثاني على الصور التالية:

(.....) ــــــــــــــــــــ ــــــــــــــــــــ (.....)

اريني اين اصحابي واهلي   ومن عمروك احقابا اريني[1]

وربما كرر الشاعر مشتقات اصل مراوحا بين الافعال كما في قوله:

أبنت محاسنا زانت فشاهت   فبيني أيها الشوهاء بيني[2]

فاللفظ الاول (أبنت) فعل ماض، واللفظ (بيني) فعل أمر، وكذلك اللفظ الثالث، والدلالة واضحة هنا في الحث على الظهور، كذلك نلاحظ في هذا البيت الجناس الناقص بين لفظي شاهت (شوها).

ب- ربما وقع التكرار بين فعل واسم فاعل كما في قوله :

ايهدم الف مابني الفرد منكم   وكيف بناء الفرد والالف هادم[3]

فاللفظ (يهدم) فعل مضارع، و(هادم) اسم فاعل.

جـ - ما وافقت آخر كلمة في الشطر الاول ، آخر كلمة في الشطر الثاني كما تمثل الصورة التالية

(.....) ــــــــــــــــــــ ــــــــــــــــــــ (.....)

كقول ابي مسلم:

قضى الله ان احيا من العجز قابعا   وما أنا في همي الى الله قابع[4]

ومن صور هذا النمط ما يأتي اللفظ الاول مفردا واللفظ الثاني جمعا كقوله:

لو ارعوت مع الغرام نهية   يعبث الحب بأحلام النهى[5]

وقد يكرر الشاعر تركيبا في نهاية الشطر الاول والثاني ، كقوله:

حييت بهم على علق ثمين   فمن لي اليوم بالعلق الثمين[6]

فالمتضايفان (العلق الثمين) تكرار في نهاية الشطرين الاول والثاني.

---

١ - ديوان ابي مسلم ص ٤٩١   ٢ - ديوان ابي مسلم ص ٤٩١

٣ - ديوان ابي مسلم ص ٣٢٦   ٤ - ديوان ابي مسلم ص ٣٣٤

٥ - ديوان ابي مسلم، ص ٣٣٨   ٦ - ديوان ابي مسلم ص ٤١٩

٧- د. حسني عبدالحميد، موسيقى الشعر العربي، ج١ ص ١٧٣ مرجع سابق

٢ – التطريف :

ويقع في نهايات الاشطار، حيث تتشابه لفظتان او اكثر في الحروف، وتزيد احداهما عن الاخرى بحرف او أكثر، وقد ورد على قلة عند ابي مسلم البهلاني، كقوله:

قد استباحوا حرمات دينكمُ ومنعوا الارض الحياة والحيا (١)

فلفظ (الحياة، الحيا) تشابها في الحروف وزاد اللفظ الاول بتاء التأنيث، وهذا التشاكل الموسيقي لم يمنح الدلالة قيمة خاصة، وكان في اللفظ (الحياة) دلالة كافية على المعنى المقصود، فما (الحيا، المطر) الا نوع من مسببات الحياة فاذا امتنعت الحياة امتنع بالاخرى اي مسبب لها.

وفي موضوع آخر يقول ابومسلم(١):

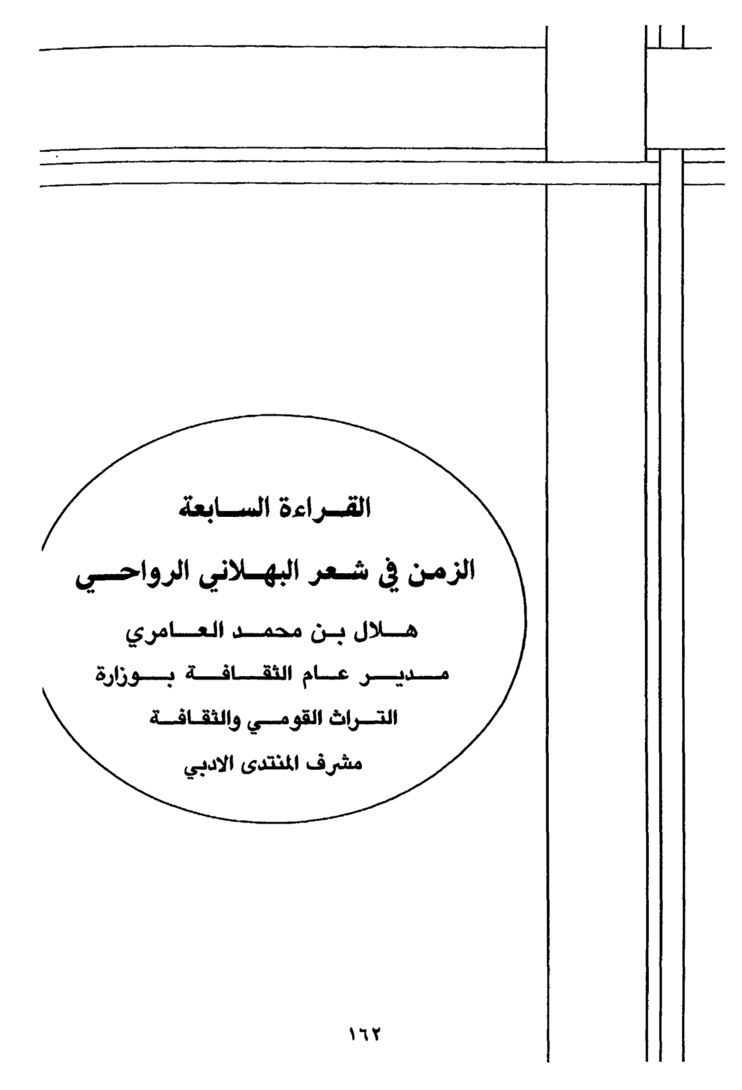
يبلى الزمان وما تبلى محسانكم مادا دام يحمد مطعام ومطعان

فلفظ (مطعام ومطعان) تشاكلا في كل الحروف ما عدا الحرف (الاخير) وهذا التشاكل الموسيقي تسعفه دلالة معنوية، فقد رصد اللفظان اهم قيم المديح في أبيات الشعر العربي وهما الكرم والشجاعة، ووقف الشاعر مدحه لمدوحيه على ثبات هاتين القيمتين، والسياق يوهم انهما باقيتان.

وهكذا لعبت موسيقى الاطار دوراً مهماً في تعزيز فاعلية شعر ابي مسلم البهلانى، لاسيما الشعر الوطني الذي سعى فيه الى اثارة للهمم وتذكير مواطنيه بماضيهم العريق، وذلك من خلال تمكنه الجيد لوسائل الشعر العمودي.

---

١ – ديوان ابي مسلم ص ٣٠٨



القــراءة الســابعة

الزمن في شعر البهــلاني الرواحـــي

هــلال بن محمــد العــامري
مــديــر عــام الثقــافــة بــوزارة
التــراث القومــي والثقافــة
مشرف المنتدى الادبي

تقديم

منذ السبعينات وخارطة الأدب العُمانى تشهد تحولات عـدة عل كل المستويات والأصعدة وبدأت البنية الثقافية تتسع رقعتها كما هو الحال بخارطة التنمية الشاملة وفي كل الاتجاهات وكنتيجة لهذا التغيير اتسعت رقعة الاجنـاس الأدبية وتنـوعت لتبرز الـرواية والأقصـوصة والمسرح والقصة القصيرة ومسرحية الشعر وقصيدة النثر بعد قصيدة التفعيلة بعد أن كانت القصيدة العمودية أو الكلاسيكية لا يشق لها غبـار.. ثم أتسعت رقعة النزاع وأختلفت الرؤى حول الأشكال والاساليب دون أن ندري أننا نؤسس فقـط لكتابة جديدة لم تأخذ زينتها بعد أمام مرآة تكوين الثقافة العربية بين المطرقة والسندان.

ويتساءل المرء منا في كثير مـن الاحيان حول الزمـن الذي يعيش فيه.. هـل نحن سبقناه؟ هل نحن نعيش بمواقيـت الأمس؟؟ أم نعيش زمن اليوم الفعلي لكن بذاكرة مثقـوبة؟؟ هل هذا الزمن هو السبب في تراكم الاحداث؟؟

كثير من الأسئلـة ترفـع أشرعتها في وجـه الوقت الذي يحدد إقـامتنا ويلبسنـا الأحداث الواقعة في مسافاته الزمنية، يحدد إقامتنا المسكونة بالأحلام، ويذر علينا رماد الوقت القادم من مـدائن الأزمنة حين تحضرنـا الأحلام ويسجننـا في مفكرة مـواعيده حين تسكننـا ذاكرة الأمس لنؤوب مـن رحلة الغيب. حين ننتظر اللحظـة بلهفة العشاق تمر علينا بـوجه القرون وحين تغمرنا السعادة؛ تمر علينا كموكب الريح أو كانكسار الضوء في المرايا.

زماننـا الذي يمضي كتلـويحة اليد ينتظر زمـاننا الـذي يغشاه الغيـب وحين نصطف على حدود الـوقت نسأل أزمنتنا القـادمة عن كنه الأحـداث التي ستلم بهذا الكون لمحطـات فيها الانتظار لقطار الزمن المجهـول. نبدو حين يغمرنا الذهول كقديسي الزمـن المهجور من مرافىء الاحداث ويلبسنـا نفس السـؤال.. هل نحـن أبناء هـذا العصر الذي نعيـش فيه؟؟ وإذا كـان الجواب هو الرد القـاطع؛ فهل نحياه جسدا وعقـلا؟؟ أم أن هناك تواصلا غـامضا لأشياء لا نعرفهـا وأشياء نجهلها وأشيـاء لا نستطيع التنبؤ بها، مـا يرتـاد أخيلتنا في اللاوعـي يلبس وجها آخر حين نستدعي حضوره في عوالم الوعي.

كل منـا يحاول أن يستنبط اجابة.. ايـة اجابة؛ حتى ولـو كانت غير مكتملة؛ وسـأحاول تلمس شكـل للاجـابة على عصر مـن هذه العصـور.. هل نحـن أبناء عصرنـا الأدبي؟؟ وهل سبقناه أم تبرأ منـا؟؟ نحن دائما نتعالج بـالحلم وبنا رغبـة للخروج من الاقبية ولكـن مالم نتفق عليه هو أي عصر ينتظرنا بعد الخروج؟

ليس في البـال ما يبيح تجاوز الموجود إلا بـالأحلام فنحن جميعا نبحـث عن تفسير لهذا الحاضر المفقود بين ما كان ممكنا وما سيأتي، الابداعات

بجهضها الجري اليومي من أجل المحافظة على البقاء وأحداث العالم تجبرنا أن نعيش بأزمنة أخرى غير أزمتنا، ليس ذلك فحسب بل يصعب التنبؤ بها. حين نلتقي لنحضن حلم الوقت بركام نتاجاتنا الفكرية والأدبية فاننا نؤسس إقامة جبرية لهذا الزمن الذي يلبسنا ويرتدي باحتمالات لا نعرف ميلادها ولا موطن إقامتها وكأننا نكتب بوقت سيسافر بمواقيت أخرى نجهل محطاتها القادمة.

لا يمكن للزمن أن يقاس بأي شيء أكثر دقة من الفواصل الزمنية في عصر تكثر فيه المتغيرات وتزداد سرعة إيقاعات الحياة. لكن السؤال؛ هل يمكن أن يعتبر الزمن عنصرا حيا في تسجيل إيقاعات هذه الحياة وحساباتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وهل تبدو إيقاعات الزمن بنفس السرعة حينما تتوقف الذاكرة ويغيب الانسان في اللاوعي الماضي ليدخل به غياهب المستقبل؟؟ أو ليتجول به بين دهاليز الحاضر؟ وهل الزمن ثابت أم متغير؟؟ أسئلة كثيرة يثيرها الزمن في الأدب خاصة عبر الدراسات الحديثة.

ليس من أحد سوى الشعراء حاول أن يلبس الزمن أو يتلاشى بقلب الزمن ليلبسه فاصبح الزمن الشعري متغيرا بتغير تجاربهم وتردد انفعالاتهم وماضيا مضارعا بمضي وحضور عواطفهم، صعودا وهبوطا وكما هو متغير لدى هؤلاء الشعراء هو وسيلة اختلاف بينهم أيضا، حيث لم يتحدد مفهوم الزمن لديهم، فأصبح لكل منهم زمنه الخاص الذي يختلف عن أزمنة الآخرين بمفهوم النسبي باعتبار ان الوقت مقياس لن تفرزه الممارسة الانسانية بل هو تركيب موضوعي وجد في تحديد مسارات الطبيعة منذ الخليقة، أما الزمن فهو مفهوم خاص وملتصق بذاتية الفرد وشخصيته. منذ أن نشأ الشعر العربي في العصر الجاهلي

إذ لم يكن المكان يمثل حضوراً في وعي وذاكرة الشعراء نظراً لكثرة سفرهم وترحالهم وتنقلهم فكان المكان وقوفاً بالطلل وليس محور حضور كشأن الذي عزفوا على هاجسه فاثار هواجسهم؛وهاجس الزمن عندي شاغل كبير مازلت اعيش تناقضاته واحاول في مركب اختلافاته عبر أطراف البسيطة. هذا الزمن الذي نتغنى بهذه المقولة فيه «الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك» فهل في مسيرتنا الحياتية استطعنا ان نقطع الزمن ونستغله ونستفيد منه ونربي أجيالنا على احترامه والخوف من ضياعه؟؟.

لم يذكر القرآن الكريم الزمن بشكله المباشر لكن التعرض كان بذكر الدهر كما ورد في قوله تعالى:

١- ﴿**هل اتى على الانسان حين من الدهر**﴾[١] فالحين مقدار من الزمن والدهر جامع للحقب الزمنية. ثم قوله تعالى :

---

(١) الآية (١) من سورة الدهر

٢- ﴿وقالوا ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر﴾

لكن تحديد الزمن ورد في الحديث النبوي الشريف «لا يأتيكم زمان إلا الذي بعده اشر منه» (وقد عشق الشعراء الزمن وتغنوا به وبأحقابه وتذمروا منه كما قال المتنبي:

اتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم واتيناه على الهرم

فمفهوم الزمن عبر انحاء البسيطة مختلف والتعامل معه متغير حسب فهم شعوب الارض واستغلاله متباين حسب الحاجة إليه، فالبعض يستفيدون من زمانهم قدر الاستطاعة فيبقى في نظرهم ذلك الخصب المعطاء الذي يجب ان يستفاد منه والبعض يرى فيه ذلك الكهل الهرم فيستمتع ببطء مروره.

إن هذا الزمان بحق يشغل البال فنحن لا نستطيع تحديد مكانه لانه لا يتوقف فوجوده يعني الحضور والحضور يعني الثبوت والثبوت في الزمن غير موجود لان الثبات منفي حتى لجزئيات. اللحظة وعلى اساسه حددت مسافات الزمن بأنه الماضي او المستقبل وحدد الحاضر المضارع بالآن وحددت الجزئية الآنية من الزمن العابر من الماضي الى المستقبل مرورا بآن الحاضر حيث يمكن اعتبارها محطة فصل بين الماضي والمستقبل،

وإشكالية الزمن في شعر البهلاني هي ما تعنيني في هذا البحث وبالتالي تحديد مفهوم الزمن اجتماعيا لدى هذه الحقبة من الزمن التي يتحدث عنها الشاعر البهلاني وبوجه التحديد في نونيته الشهيرة المسماة (نونية ابي مسلم) التي بنيت عليها هذا البحث

نبذة عن حياة الشاعر :

هو الشاعر العماني المعروف ناصر بن سالم بن عديم بن صالح البهلانى الرواحي وكنيته ابو مسلم.

ولد على اصح الاقوال في عام ١٢٧٦هـ (٢) للهجرة في عصر الامام عزان بن قيس، وأختلف على المدينة التي ولد فيها، قيل: مسقط؛ وقيل : في وطن والده الاصلي مدينة محرم من أعمال وادي بني رواحة بولاية سمائل حيث نشأ هنالك وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن سليم الرواحي ببلدة السيح بوادي محرم مزاملا للشيخ احمد بن سعيد بن خلفان الخليلي/رحمهما الله/ قضى الفترة الاولى من حياته طالباً للعلم متنقلا في البحث عن المشايخ والعلماء للاستزاده من علمهم ومعارفهم ثم ارتحل الى افريقيا الشرقية عام ١٢٩٥ للهجرة واستقر بزنجبار ثم عاد الى عمان وهكذا ظل ينتقل بين عمان وشرق افريقيا حتى وافته المنية هناك عام ١٣٣٢ هـ للهجرة.

---

(١) الآية (٢٤) من سورة الجاثية

(٢) على اختلاف في سنة ولادته

مؤلفاته :

أشتملت مؤلفاته على النظم والنثر وهي :

١- النشأة المحمدية.

٢- النور المحمدي.

٣- النفس الرحمانى لابي مسلم البهلاني.

٤- السؤالات في الفقه.

٥- نثار الجواهر في ثلاثة اجزاء وافته المنية قبل ان يتممه.

استوقفني في شعر ابن عديم مـزجه للازمنة واتكاؤه على المسافة الواقعـة ما بين الذاكرة والمخيلة وكذلك اختيالـه في المسافة الواقعة ما بين السكـون والحركة في مجمل بحور شعره، لم يكن زمنه الشعري مفصولا عن زمانه الاجتماعي والتاريخي والسياسي.

لذا نجده يكثر مـن استخدام فعل التذكر سواء بالتعبير المبـاشر او غير المباشر، وقد يأتى ضمن مـدلول عام أو ذكـر واقعة من الـوقائع، أو يأتي مـرتبطا بدلالـة مادية كـالنسب او الانتساب وما أكثر هذه الدلالات في شعر البهـلاني! فهو يبني معظم قصائده على الذاكرة التراثية والعقائدية والاجتماعية.

مثال :

يـاللـــرجـال ألم يـأن الجهـاد لكم   بلى لقـــد فـــات إبـــان وإبـــان

يـاللـــرجـال انـــدبـوا لله غيرتكـم   فـالـوقت قــد ضـاق والتثبيط خسران

هذا المزج الـزمني الذي يدفـع ذاكرة الشاعـر ويستفزها ليقفـز المسافات الـزمنية،

ولعل الغربة عـن وطنه هي الدافع الاقوى تلون حنينه بحـركية النسيج البصري في زمنه الماضي لربوع عاشـت في الذاكرة واحدث تقرب مخيلته للتصوير فتجعلـه اسير التوهج الفني للصورة المتخيلة وللتفاصيل المستذكرة يوردها في تعبير حميمي تدنفه اكثر لخلق العلاقة بين المتلقي والحدث ونرى خياله يتسع في الموافقة بين عـالمه الداخلي والخارجي فيظهر لنا مزيجه الحسي والاستعاري المجـازي ليضيء لنا جانبـاً نت تجربتـه الشعرية التـي تبين الحنين الذي يفتح الغربة في مسالك الذاكرة.

انه الماضي دائما يراه الشاعر ليس بعين الذكريات فحسب بل عبر الاستحضـار كما اراد له

وكما يجنح هو بخياله اي كما يريد له ان يكون ولابد ان يسقط في هـذه الحالة ردود فعله على الحدث «أي كما يشاء القدر ان يمضي هذا الحدث».

وإذا أراد نص ابن عديم ان ينهي هذا التوصيف الشعري فأنه يفتحه على تأويل عميق لا لاشكاليةعلاقته بالحاضر او المستقبل، حيث ينبري الاستدعاء في الفرق الظاهر بين «الواقع» الماضوي الـذي نتذكره وبين المسافة الزمنية والشعرية التي يطرح الشاعر اسئلة الحوار معها في مغامرة للوصول الى هذا الماضي.. الذي نمضي ليه في زمن الفعل ولا نصل اي انه زمن ورقي او دغم الآنية في زمنية الفعل المنتقى عن هذه الآنية.

إن عدم الـوصول الى الماضي في ذاته هـو وصول الى الشعـر وادراك للمفارقة الجوهـرية القائمة بينهما «زمن الفعل وزمن رد الفعل في اسقاط ما بداخل الشاعر على آنية كتابة الحدث والمسافة بينهما قد تكون الغربة او عدم المعايشة والاعتماد على المخيلة واسترسال الذاكرة في السرد ليصل الشـاعر الى الذروة بفعل الفعـل منصتا لايقاع قافيتـه المتردد بحركة آلية منتقاة.

البنى الشعرية عند البهلاني :

تغلب على شعر البهلاني عدة بنى اغلبها :

١- البنية الديناميكية.

٢- البنية السكونية والاستاتيكية.

٣- البنية الاستنهاضية (مبنية على ايقاع الذاكرة).

٤- البنية اللغوية.

٥- البنية الايقاعية «اختياره للنون الصوتية الحية».

٦- بنى وطنية رؤيوية :

إن دلالات الزمن معـاكسة لما كان يـراه من قتامـة الرؤية وأزمـة الموقف وعسر المخرج، وفقدان الامل في الاصـلاح احياناً لذا حين يستخـدم ابن عديم افعال التذكـر تولجه دائما في مجهوليـة التحكم في امر المستقبل حيزيـا وزمنيا وتبيان الاحـداث الواقعة به والفـرق بينها وبين ماحـدث في ضمير الماضي المنصرم فيربط كينونة الحدوث بـالحاضر في وصف الاحداث والحالات.

النغمية في بنيته الايقاعية :

صـوت يلبث زمناً «مرنان- وسنـان» والايقاع فيهـا فقرات عـدة، بينها أزمنـة محدودة

المقاديـر توزع الحركـة والسكون بين شطـري البيت الواحـد وتكسر حدة القـافية الـواحدة للقصيدة الطويلة بنغمة ايقاعاتها

الشاعـر يختار من بين احـداث التاريخ الممتـد منذ فجـر الاسلام في هـذه الرقعـة مرورا بالغُزاة الذيـن تعاقبـوا من فرس وبـرتغاليين ومـرورا بالاحداث الـذاتية المحليـة التي ادت بالمجتمـع العماني الى عدم الاستقرار في تلـك الآونة فيختار البهـلاني صورا لأشيـاء وأمكنة وأشخاص ومشاعر يكـون محورها بؤرة الذاكرة لاختلاف أزمنتهـا أو لاختلاف زمكانيتها في ارض الواقع واتحادها في بؤرة الذاكـرة، فهو يتحدث عن الارض كموطن والامكنة حسب تحديداتها الجغرافية والقبلية والعادات والتقاليد التي تتوارثها الاجيال عبر الزمان والتاريخ. فالبهـلاني وان توجه بروح الجماعة داعيـا إياهم الى نبـذ الخلافات والتـوحد خلف الـراية الواحـدة؛ نراه يسجـل رؤيتهـلجيل ممـزق بالخلاف في أزمنـة الحلم والذاكـرة المزحومـة بالتاريخ فيختلط وعيه فيتجمد الزمن، هـذا التجمد في الزمن يخلق مسافة بين الكلمة والكلمة ويخلق مسافة زمنية اخرى بين شطري البيت في القصيدة الواحدة، حتى الحركة التي تشكل البنية الديناميكية في بعـض الاحيان نجدها حركة مراوحة في الـداخل وليست حركة انطلاق من شيء آخر واذا بدأت في الخروج فانها تكون في حـركة استدعاء للتاريخ؛ للماضي.. للشكل القبلي البحت احيانا وهذه افعـال تؤطر الزمن إن لم تجمده في مدلـوله الحقيقي لكنها تعطي مسافة ارحب في الزمن الورقي او آنية الكتابة. ويتجلى التمزق الداخلي للشاعـر في قمة لوعته ولهفته لوطنه اثناء هجرته لزنجبار في هذا البيت:

أني اشـح بـــدمعـي ان يسـح على أرض ومـا هـي لي يـابـرق اوطـان

ويخلط بشـدة ذكرىٰ ماضيـه الغابر في آنيـة الحاضر مستخدمـاً الزمن كربـاط وثيق في الحفاظ على الاشياء و بقائها كما كانت عليه لتبدو كما هي عليه في البيت:

وكيـف انسى عهـودي في مسـارحهـا وهـن وسـط ضميري الآن سكـان

حيث كان المزمن هاجسه في معظم أبيات نونيته الشهيرة يحث بالزمن الماضي همم الرجال ويذكرهم بوقائع أشبه حصولها بـالامس ويسقط فعلها على وقائع اليوم ليتدارك بذلك حث الغد وما قد يسببه من وهن وضعف وفرقة للجمع.

يـــاللـــرجـــال ألم يحزنكمُ زمـن طـار البغـــاث بـــه وانحـط عقبـان

وتراه دائم الرفض للسكونية والجمود، دائم التجـديد في الايقاع في بنية قصائده حتى إذا استمر بنفس طويل في القـافية الواحدة فهو يقدم قصائده باقـل قدر من الصور معتمدا على

عنصر الزمن الذي يوجه الذهن نحو البنى العميقة الكامنة خلف البنى السطحية الناتجة عن المباشرة التي يخاطب بها الانسان العادي لان قراءة التاريخ في ذات الشاعر على اساس يلبي الاحتياجات الراهنة والمستقبلية تحتاج الى بناء أزمنة الذاكرة وخلطها بشكل حميم لان طموح القصيدة يمتد من نقطة اختراق المطلق الى نقطة في جدار الماضي السحيق لكل امة من الامم، تتبلور الاحداث عبر هذا الخط المستقيم عبر ازمنة تاريخية متعددة تختزل الزمن الممتد بين الماضي والمستقبل لتشكل نقطة الالتقاء عبر الاحداث المماثلة وتشكل كينونة الحدث في ذات الشاعر:

وتمثل الازمنة التاريخية في شعر البهلاني محاور عدة تمتزج فيها غربته عن وطنه وحنينه لهذا الوطن فضلا عن محور زمن الشاعر الفرد متوحداً بأزمنة الجماعة الذين يتفاني الشاعر من اجلهم فتختلط الازمنة في حلمه على امتداد الاحداث من الامس الى الغد مرورا بآنية الكتابة وقت وقوع الحدث وهو ما يمثل الحاضر في استدعاء مسهب للازمنة التاريخية الماضية والمتمثلة في سيرة الانسان والوقائع التاريخية وذاكرة الشاعر وهو يجتر منها احداثاً اقليمية وقعت بموطنه إلا انها تنطبق على الاوضاع العربية في مختلف أزمنتها التاريخية حيث يقول:

ياللرجال دماء المسلمين غدت	هدراً كما عبثت بالماء صبيان
ياللرجال افيقوا من سباتكم	فقد احاط بكم بغي وعدوان
هبوا لاخذ المعالي من مراقدكم	فليس يستدرك العلياء نومان

بهذه القصيدة النونية يصور البهلانى ازماناً تتشابه في ذاكرته بأزمان اخرى، يصور شكل الانسان المعايش لذلك الواقع بذلك الزمن فيعبر عن الانسان الجماعي المحاصر والانسان الذي يستحيل الى شبح، أو الى شكل بلا دلالات انسانية لخوفه من المجهول ورعبه من المحيط الذي يعيش به، وذعره من وعيه الذاتى، وحصاره الانسانى ضمن الابعاد الاجتماعية والنفسية، والسياسية والبيئية والقبلية، حيث يقول:

واطول ما أقضي به أقصر المنى	خيال اصطبار بينها لويلازم
فيا لهفا اما قضيت وما قضت	حقوق معاليها الهموم العوادم
أفارق في افريقيا عمر عاجز	وبي كيس كالطود في النفس جاثم

لذا نرى الشاعر يلجأ الى السطحية المفرطة في هذه التصورات ضمن كثير من صوره وتخيلاته التي تخلق العلاقات الايحائية بين لونٍ وشكل وصفة الاشياء والامكنة والقبائل

والبطون واستدعاء مدلولاتها السالفة عبر ماضيها المنصرم وواقعها الراهن، ففي استدعائيته المستمرة (ياللرجال).

هذه الجملة يجعلها بؤرة الذاكرة التي تدور حولها الأزمنة المستدعاة لاحداث ماضويه، تتردد في مواضيع مفصلة من القصيدة، ليعيد في بؤرة الذاكرة بناءها من جديد لتربط بين مستويات الزمن «ماضي ذو مدلول تاريخي – حاضر.. مستقبل» ثم يخترق فضاء الامكنة باستنهاض الذاكرة معددا هذه الامكنة حسب القبائل التي تقطنها في حشدية متواترة.

أمثلة :

وأين عامر والاحساب مشرفة ... ناهيك عن عامر والاصل عيلان

واين همدان من صفين تعرفهم ... اذ عك واذ همدان همدان

واين نار الوغي آل المسيب من ... قضاعة وزعيم القوم زهران

وينتقل البهلاني بين استدعائيته القبلية الى استدعائية الامكنة حيث يقول:

وأين حلقوم ذلك الملك معصمه ... سمائل فهي للسلطان سلطان

الى ان يصل الى الشمولية في استدعائيته التي تتمحور حولها بنى القصيدة حيث يقول:

أين العصائب من قحطان اجمعها ... وأين من نتجت للمجد عدنان

هبوا لاخذ المعالي من مراقدكم ... فليس يستدرك العلياء نومان

هكذا يحاول البهلاني طرح اسئلته على عصره الادبي من خلال طرح الاحداث في نونيته الشهيرة فيلبس الزمن احيانا ليتقي خطوب دهره الذي يشكوه حينا ويشتكي منه حينا آخر عبر أبيات عديدة نوجز منها ما يلي في مواقع متفرقة من القصيدة محور البحث:

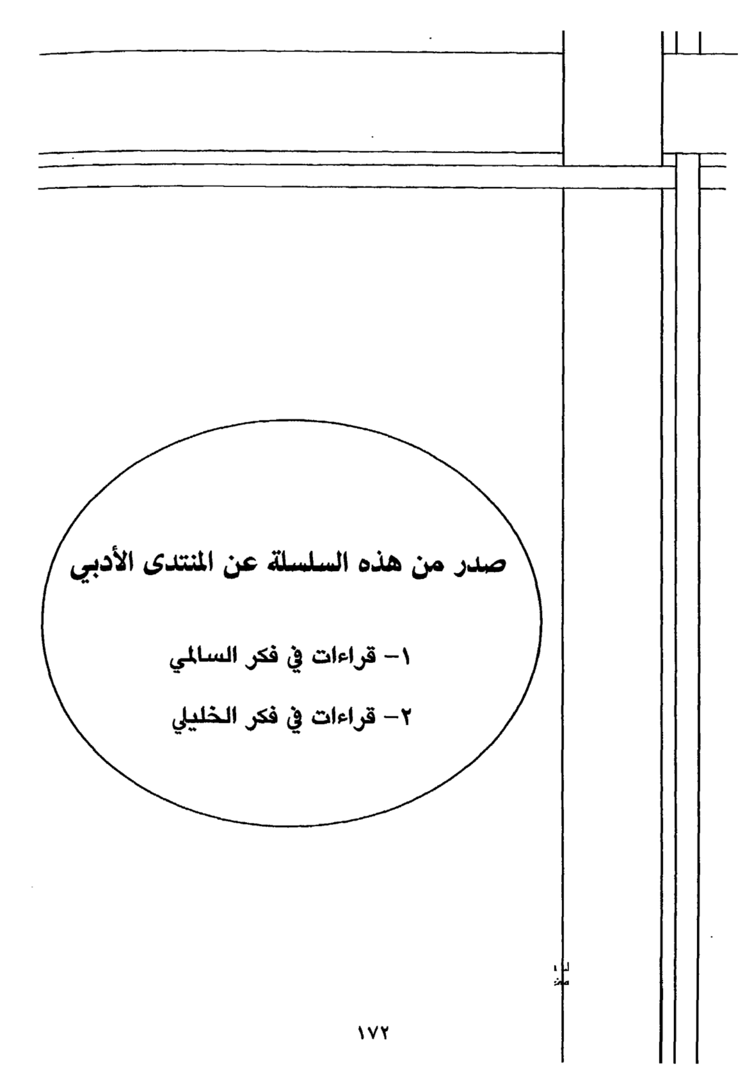
حتام يادهر لا تبقي على بشر ... حر وحتام ضيم الجر إحسان

يادهر ياباخس الاحرار حقهم ... اعط العدالة إن الله ديان

اخفى غبارك يادهر محاسنهم ... فان دعوتهمو في نكبة بانوا

هكذا نرى الزمن المختلط في شعر البهلانى يرتديه حينا ويسخره احيانا أخرى ويخضع جزيئاته لرؤيته الخاصة.

الفهــرس


صدر من هذه السلسلة عن المنتدى الأدبي
١- قراءات في فكر السالمي
٢- قراءات في فكر الخليلي

ما ورد في هـذا الكتـاب من قـراءات يعبر عن رأي كـاتبها فقط ولا يمثل رأي المنتدى الأدبي بالضرورة.

رقم الايداع ١٤/١٩٩٨م



15

المطابع العالمية - روي - سلطنة عُمان